

# فتح آفاق القرآن

أسلوب جديد في التفسير الموضوعي  
للقرآن الكريم

سلسلة  
الدراسات

معرفة الله (٢١)

تمت طباعته في دار النشر الإسلامية  
بمكة المكرمة - ١٤٢٠ هـ

# نَفَاحَاتُ الْقُرْآنِ

أُسْلُوبٌ جَدِيدٌ فِي التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ  
لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

طَرِيقُ مَعْرِفَةِ اللَّهِ

الجزء الثالث

سَمَاحَةُ آيَةِ اللَّهِ الْعَظِيمِ الْمُتَعَالِي  
نَاصِرٍ مَكَارِمِ الشَّيْخِ الْإِسْلَامِيِّ

بِمُسَاعَدَةِ مَجْمُوعَةِ بَيْنَ النَّصْرَةِ

مكارم شیرازی، ناشر، ۱۳۰۵ -

نقحات القرآن / مكارم الشيرازي: بمساعدة مجموعة من الفضلاء - قم: مدرسة الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام)، ۱۴۳۶ ق. - ۱۳۸۴.

ISBN:964-8139-75-X (سوره)

۱۰ ج

ISBN:964-8139-97-0 (ج. ۳)

کتابنامه

۱. تفاسیر شیعه - قرن ۱۴، الف. مدرسة الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام).

ب. عنوان

۲۹۷ / ۱۷۹

BP ۹۸ / م ۷ ۱۳۸۴



نقحات القرآن / الجزء الثالث

المؤلف: سماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي (مد ظله) بمساعدة مجموعة من الفضلاء

الكمية: ۲۰۰۰ نسخة

الطبعة: الاولى (التصحيح الذاتي)

تاريخ النشر: ۱۳۸۴ ش - ۱۴۳۶ هـ

عدد الصفحات: ۳۰۸ صفحة

حجم الغلاف: كبير

الطبعة: سليمانزاده

الناشر: مدرسة الإمام علي بن ابي طالب (عليه السلام)

ردمك: ۹۶۴-۸۱۳۹-۹۷-۰

ردمك الدورة: X- ۹۶۴-۸۱۳۹-۷۵-۰



ایران - قم - شارع شهنا - فرخ ۲۲

تلفکس: ۷۷۳۳۲۴۷۸ - ۲۵۱-۰۹۸

[www.amiralmomeninpub.com](http://www.amiralmomeninpub.com)

سعر الدورة: ۳۵۰۰۰ تومان



للهدية

إلى الذين أحبوا القرآن  
إلى الذين يريدون أن ينهلوا المزيد من معين  
الحياة الصافي  
إلى الذين يتوقون إلى معرفة القرآن وفهمه  
أكثر فأكثر.



مركز تحقيقات علوم الدين الإسلامي  
بمساعدة العلماء الأفاضل وحجج الإسلام السادة:

محمد رضا الآشتياني  
محمد جعفر الإمامي  
عبد الرسول الحسني  
المرحوم محمد الأسدي  
حسين الطوسي  
سيد شمس الدين الروحاني  
محمد محمدي الاشتهاردي

## المقدمة

### الطريق إلى الله...:

كما ورد في بداية هذا الكتاب فإن هناك حبلاً ممتداً من أعماق قلب كل إنسان متصلاً بالله عز وجل، فتنتطلق في روضة روح كل إنسان أنشودة تعبر عن هذا الارتباط، ولهذا السبب، ونظراً لكثرة النفوس الإنسانية، فإن الطريق إلى الله لا حصر لها، ولكل إنسان نوع خاص به من الإدراك والشعور بالنسبة لله سبحانه وتعالى.

ولكن مع كل هذه الاختلافات فإن وجهة الجميع واحدة، العالم بأسره منقاد له، وينمو في أعماق روح كل إنسان برعم من معرفة ذاته وصفاته، وتزهر في قلب كل إنسان زهرة من أزهار معرفته.

ويرتفع دائماً من «الوادي الأيمن» نداء «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ» ويدعو الفطرة السوية الكامنة في كل النفوس الإنسانية إليه بصوت: «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى». (طه / ١٢) يأمر الجميع بأن يسيروا بكل خضوع وخشوع واحترام وحذر شديد في الوادي المقدس. ويوصي جميع بني آدم بأن يعملوا بوصيته مثلما عملت مريم عليها السلام عندما أوصاها بقوله: «وَهَـزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ». (مريم / ٢٥)

فيهزّون الأغصان المشجرة لشجرة التوحيد لتساقط عليهم ثمرات الإيمان والمعرفة العلية.

وأن لا يخشون أبداً من نيران شرك النمروديين، وأن يكونوا إبراهيميين فيدخلونها بكل اطمئنان وهدوء ليظفّنوا نيران الشرك المحرقة ويحيلونها إلى روضة للتوحيد. وأن يركبوا في سفينة المعرفة العنجية كما ركبها نوح، ليغرق كل الذين يدعون ويلهجون بغيره - حتى الكنعانيين منهم -.

وأن ينهالوا بالضرب على رأس «السامري» دون وجل، ويحرقوا بنار غضبهم المقدسة عجله الذهبي المنقوش الذي يتسبب في جذب قلوب المتعلقين بالدنيا ومحبي الثروة واكتناز الذهب وينثروا رماده في بحر القناء

أجل فإن سالكى هذا الطريق يكرّرون ما قام به الأنبياء المرسلون في سيرهم الظاهري في هذا العالم من خلال سيرهم الباطني للوصول إلى الهدف والمراد وهو «معرفة الله». وفي نهاية المطاف يلتون النداء الروحي لنبي الإسلام ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، فيقتربون من أعلى مقامات الفلاح والفوز من خلال ترديدتهم لنعمة التوحيد الروحية السامية بجميع أجزاء وجودهم «حتى الوريد والشريان». فيخرجون بهذا السير والسلوك الإلهي من «دار الطبيعة» ليجدوا طريقهم إلى «دار الحقيقة» ومقام القرب الإلهي.



ولكن النقطة المهمة تكمن في أن هذا الطريق يفتقر بكثرة المنحدرات والمرتفعات والمنعطفات التي تكمن في مسالكها شياطين الجن والإنس، الذين يبذلون الجهد الجهد و«يزخرف القول» لحرف سالكى هذا الطريق عن مسيرتهم لأن إمامهم وزعيمهم إبليس أقسم بعزة الله وجلاله منذ البدء لإغواء بني آدم، ولعلمه بأنه «رجيم» ومطرود من حضرة، فإنه يدعو الآخرين لاتباعه والاصطباغ بصيفته.

إن «الرسواس الخناس» هي صفة للشياطين الذين يضمون النقاب على وجوههم، كالغول الأسطوري في قصص العرب، يسيرون عدة أيام في جادة الصواب، وبعد أن يجذبوا مجموعة من الناس إلى صفوفهم، ينحرفون عن الصراط المستقيم، ويلقون بهم في الأودية السحيقة «للضالين» و«المضروب عليهم».

إذن ماذا ينبغي القيام به؟

وأين طريق النجاة؟

يا ترى، هل يمكن طي هذا الطريق بواسطة العقل المجرد، على الرغم من أن العقل يعد وسيلة من الوسائل التي وهبها الله تعالى للإنسان فهو نور من الأنوار الإلهية؟! أم يجب ركوب أجنحة الوحي والصعود إلى سماء المعرفة، فنتجاوز ضوء الشمع والمصباح، ونمدُّ أيدينا نحو الشمس المتلألئة، فنستمد العون من نورها للوصول إليه، لنحصل على الدليل من ذاته على ذاته؟

حيث إن مضمون حديث رسول الله ﷺ: «مَنْ ابْتَغَى الْعِلْمَ فِي غَيْرِهِ (غير القرآن) أَضَلَّهُ اللهُ»<sup>١</sup>، ينصّ على ذلك، وهل يوجد غيره، يعرفه حق معرفته ليتمكن من تعريفه للآخرين؟ إن هذا الكتاب وهو المجلد الثالث من التفسير الموضوعي لـ «نفحات القرآن» هو عبارة عن جهد متواضع في هذا المجال لمعرفة الله في مختلف الطرق بتوجيه آيات القرآن المجيد، وتأيد حكم العقل بلسان النقل، وترسيخ أسس البرهان بآيات الوحي.

محرم الحرام ١٤٢٠ هـ ق قم المقدسة - الحوزة العلمية

مركز تحقيقات مركز ١٣٦٨ هـ ق - ناصر مكارم الشيرازي





مرکز تحقیقات کتاب و اسناد اسلامی

# براهين معرفة الله

١- برهان النظم (قد ذكر سابقاً)

٢- برهان التغير والحركة

٣- برهان الوجوب والإمكان (الغنى والفقر)

٤- برهان العلة والمعلول

٥- برهان الصديقين

٦- الطريق الباطني لمعرفة الله (الفطرة)



تجربہ نامہ



تجربہ نامہ

## تجهيد:

بالرغم من أن الطرق إلى الله لا حصر ولا حدود لها - وكما يقول بعض العلماء إن السبل إلى الله هي بعدد الخلائق «الطرق إلى الله بعدد نفوس الخلائق»<sup>١</sup> - إلا أنه توجد خمس طرق عملية رئيسية وطريق فطري واحد لإثبات د ب الله لمقدسة، والطرق العقلية هذه عبارة عن

١ - برهان النظم.

٢ - برهان الحركة.

٣ - برهان الوجوب والإمكان (الفقر والغنى).

٤ - طريق العلة والمعلول.

٥ - برهان الصديقين.

والطريق السادس هو طريق (النظرة) ولسلوك (الباطن) والبحث في أعماق الروح الإنسانية، ومن الملاحظ أن لقرآن الكريم قد استند إلى هذه الطرق أجمع، غير أن أشمل البراهين التي يطرحها للمعارضين هو (برهان النظم) الذي يشب وجود ذلك المبدئ الأزلي وما يملكه من علم وقدر، وذلك من خلال عرض عجائب الخلق والآثار البديعة والأنظمة العجيبة في عالم الوجود وبدأ حُصِّص أكثر بجزء الثاني من (معاني القرآن) لشرح هذا البرهان وتبيان موارد - وشواهد في القرآن الكريم

١ نقله الهمض بعبارة (عدد أنفاس الخلائق، ومعنى أن كل نفس تشققه الإنسان هو طريق الله ولكن هذه الجملة لم يجدوها بصورة حديث في مصادرها بل وردت في كلمات العلماء

والآن نتابع سائر الطرق القرآنية لإثبات وجود الله، ثم نتحدث عن قضية المطرة في ظلّ التوجيهات القرآنية.

هذه صورة إجمالية عن أبحاث هذا الجزء.

نؤكد مرّة أخرى وبكرّر بأنّ هذه الأبحاث لا تُقدّم كأبحاث فلسفية أو كلامية، بل كأبحاث في التفسير الموضوعي كما تقتضيه طبيعة الكتاب، أي أنّنا نسير في هديّ الآيات القرآنية ونستضيء بتوجيهات هذا النور الإلهي، ولو كانت ثمة قصايا أحصر فيها سوف نتحدث عنها تحت عنوان (إيضاحات)، وأبعدنا - في الحقيقة - لا تتوجب غير ذلك، لأنّها في غير هذه الحالة سوف تفقد أصالتها كأبحاث تفسيرية.



## ٢- برهان التعبير والحركة

### تمهيد:

إنَّ عالماً الذي نعيش فيه هو في حالة تغير وتغير دائم، فلا يبقى الوجود على حالة واحدة، وكل شيء يعيش حالة من التغير والتغير

ويبدو أنَّ نطاق حياة البشر والحيوانات والنباتات المقترنة بالتغير والحركة أوسع وليس بوسع أحد أن يسخر هذا التغير والتبدل على صعيد نفس الإنسان أو على صعيد عالم المادة، فالإنسان يواجه مشاهد مختلفة من هذا التعبير ليلاً ونهاراً، بل إنَّ ظاهري (الليل والنهار) هما من أوصاف المادج عن التعبير والتبدل في العالم.

هذه التغيرات والتغيرات والحركات التي يحكمها العالم تدلُّ بوضوح على وجود مركز ثابت تنشأ منه، وكأنَّ الجميع يدور حول هذا المركز لتثبت على محيط دائرة.

والتعبير والحركة في الموجودات بعدد بمثابة شاهد على حدوث الموجودات، كما أنَّ حدوثها دليل على وجود حلقها.

هذا الاستدلال - الذي سيرد شرحه بالتفصيل مستقبلاً - ورد في الآيات القرآنية بلطاقة خاصة، وبهذه الإشارة يرجع إلى القرآن الكريم كي نقرأ هذه الآيات:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ • فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُجِبُ الْآفِينَ • فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لِي بِهِدْيَ رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ • فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ • إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(الأنعام / ٧٥-٧٩)

## شرح للمفردات:

١- «أفول»: و(أفولت) مشتقة من مادة (أفول) وتعني لإحتفاء كما يقول جمع من اللعويين. ولكن (الرابع) هي (المفردات) أكثر دقة حيث يقول. الأفول يعني احتفاء الأجسام النيرة كالشمس والقمر، والصحيح هو ما يذهب إليه الرابع، لأن هذا المعنى هو المتبادر من إطلاق هذا اللفظ، كما أنه ذو معنى كائني في بعض المجالات، فمثلاً يبر عن موت العالم به (الأفول)، وفي ذلك - في الحقيقة - تشبيه بـشمس أو النجم، والتعبير بالأفول والعروب هو بهذا اللحاظ.

٢- كلمة «بازغ» و(بازغة) مشتقة من المصدر (بزوغ) بمعنى الشروق وانتشار النور، كما يذهب إليه الرابع في المفردات فيقول هو في الأصل يعني أحرار دم الحيوان بعمية العلاج ثم استعمل بمعنى الطلوع

أما من منظور فأنه يقول في (لسان العرب): لأصل فيه بمعنى الفتق وسعمل في موارد فتق العروق في الإنسان أو الحيوان من أجل العلاج وبما أن طلوع الفجر وأمثاله يشق طلام الليل لذا استعمل هذا اللفظ في هذا المعنى

٣- «كوكب»: مشتق من (وكب) أو (كوب) وقد فسر الكثير بمعنى (النجم)، ولكن الرابع في المفردات فسر بمعنى (النجم عند الطلوع)، وعندما يفسره البعض بمعنى كوكب (الرهرة) فهو من قبيل المصداق الواضح له، لأن كوكب الزهره هو أشد النجوم تلالؤاً ولمعاناً. كما يطلق هذا اللفظ أحياناً على نوسيم وجميل أو الجره المهم من كل شيء، وعلى كبير القوم أيضاً، ولكنها معاني مجازية في الطاهر.

أما «قمر»: وإن كان معروفاً، ولكن توحد هنا نقطة حديرة بالإنفعات وهي أن الكثير من اللعويين صرحوا بأن لفظ (القمر) يطلق في فترة تمتد من الليلة الثالثة وحتى الليلتين الأخيرتين من الشهر، وعليه لا يطلق لفظ القمر في ليلتين الأولىين ولا في الليلتين الأخيرتين بل يطلق لفظ (الهِلال)، لأن اللعويين يعتقدون بأن (القمر) و(القمار) من أصل



واحد ويعني الغلبة، وبما أن نور القمر في البية الثالثة يتعلّب على أنوار النجوم المجاورة، لذا أطلق عليه هذا اللفظ<sup>١</sup>.

«شمس»: هذا اللفظ وإن كان له معنى معروف ولكن من العسير أن يذكر هذه الملاحظة وهي أن لفظ الشمس يطلق على الكوكب نفسه وعلى النور الساطع منه أيضاً. وبما أن الشمس غير ثابتة في السماء وهي في حركة دائبة (بالنسبة لسكان الأرض) لذا يطلق هذا الاصطلاح على الأشخاص الموضوعيين والحيوانات الجموحة فتُعرف بـ (الشموس).

### جمع الآيات وتفسيرها

إبراهيم عليه السلام يواجه مهدة الأسماء بمنطق قوي:

تحدثت الآية الأولى عن إراءة الله سبحانه (ملكوت) السماوات والأرض لإبراهيم عليه السلام كي يبعث اليقين في نفسه بمشاهدتها، وتتجدّد الحياة في إيمانه القطري حيث تقول: «وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»<sup>٢</sup> إن المقصود من (إراءة ملكوت السماوات والأرض) هو مشاهدة حكومة الله ومالكيته لعالم الوجود بملاحظة الموحودات (متغيرة في هذا لعالم [لأن لفظ (ملكوت) مشتق من (ملك) بمعنى الحكومة والمالكية، وزيادة الواو والتاء للتأكيد] هذه المالكية المطلقة والمالكية المسلّمة لله على العالم جاءت بالتفصيل في الآيات اللاحقة، وهذه الآيات - في الحقيقة - جاءت على صورة البيان (الإجمالي) و(التفصيلي) وهو من الأساليب القرآنية المعروفة في بيان القضايا المهمة، ففي البداية تذكر القصة بشكل معلق كي يستعدّ السامع ثم تشرحها [التعبير بفاء التمريع في (فَلَمَّا) إشارة واضحة إلى هذا الأمر] .

١. لسان العرب: معجمات الرغيب، كتاب النور.

٢. يقول بعض المعصّرين بأن في تشبيه الآية إشارة إلى أننا كأرسال - يائس الإسلام - ملكوت السماوات والأرض قائم قد أرىناها إبراهيم أيضاً (و عليه في الآية جملة مقدّرة).

على آية حال فإن القرآن اعتمد نبيان هذا لإجمال في الآيات اللاحقة، فبدأ أولاً بالبحوم وبين استدلال إبراهيم عليه السلام في إبطال مذهب عبدة النجوم بهذا النحو ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾

التعبير **بمدركي كوكبا** مع أن نحوماً كثيرة يظهر في الليل - فيه إشارة إلى نجم كبير ولامع لفت نظره إليه، وبما أن كوكب (الزهرة) يظهر في الليل (كوكب) يعني (النجم عند طلوعه) يتعذر بذلك التفسير الذي يمين إليه أغلب المفسرين وهو أن النجم كان الزهرة أو المشتري اللذين كانا يعتبران في العصور القديمة من آلهة المعودة عند المشركين، ويؤيد ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في إحدى الروايات بأن هذا النجم هو كوكب الزهرة. على كل حال فإن هذا النجم لم يدم طويلاً حتى أم، فقال إبراهيم عليه السلام ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾.

مرة أخرى التفت إبراهيم إلى بروج (القصر) من وراء الأفق فأضاء السماء والأرض بوره الأحاد والحميل فقال إبراهيم عليه السلام ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾. ولكن لم يدم طويلاً حتى تعرض انقمر إلى مصير النجم واحتفى وراء الأفق وعادت السماء مظلمة. (عندئذ قال إبراهيم عليه السلام الذي كان يسمى للوصول إلى حقيقة وكه المعبود ﴿لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾

وبهذه الطريقة نبين أن سعي الإنسان لا يكفي للوصول إلى الحق، بل يجب أن يستعمر بالعون والحماية الإلهية لكي لا يكون من الضالين، ومن المؤكد أن هذا الإمداد والعون يشمل الذين يجهدون أنفسهم في اتباع الحق، وطلب معرفته الله سبحانه وتعالى وأخيراً انتهى الليل. وأخذ الظلام يدم ستاره لتي أسدلها على السماء، وبرغت الشمس فحاة بوجهها البير المتلائي من الشرى وألفت أشعتها الذهبية على الحبال والصحاري. ﴿فَلَمَّا رَمَتِ الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ﴾<sup>١</sup>

١ «الشمس» وإن كانت مؤنثاً مجازياً ويجب أن يشار إليها بـ (هذه) ولكن يعلم أن قصبة الذكر والمؤنث سهلة وهنا يمكن أن يكون (هذا) إشارة إلى (الوجود) أو (المشاهد).

ولكن بانتهاء النهار وسقوط الشمس في خوف الليل المظلم واختفاء صورتها خلف حجاب العروب، نادى إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾. لقد فهم إبراهيم عليه السلام من حلال مشاهدته بعروب الشمس وأقول النجم وغياب القمر، بأن كل ما رأى ما هي إلا مخلوقات خاضعة لقوى النفس الحلقية كالأقول والغروب والتغير، وفهم بأن هناك قوة خفية لا يعترىها التغير والغروب والأقول أبداً، وهذه القوة تتمثل بالذات الإلهية المقدسة.



وقال: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ إِلَىٰ مَن خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَا أَدْعِيَ لِلشِّرْكِ أَبَداً، إِنِّي مُوَحِّدٌ كَامِلٌ التَّوْحِيدِ وَعَانِدٌ وَعَدٌ مَحْضٌ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِّكْرِ فَطَرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ خَتِيفاً وَقَدْ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

هل وقعت الحوادث الثلاثة في ليلة واحدة أم في ليلتين؟

قال بعض المفسرين: نظراً لعدم فهمهم عن تصور وقوعها في ليلة واحدة - أو في ليلتين، فقد قالوا إن طاهر الآيات يدل على أنها تعاقب في ليلة واحدة وبهار واحد وهذا ممكن تماماً، لأن كوكب الزهرة يظهر منتصف الشهر وبوضوح في أول الليل ثم يأهل سريعاً، ثم يظهر القمر بداراً من أفق الشرق [ والتعبير بـ(بازرع) يدل على أن القمر كان بداراً أو قريباً منه ] وعندما يختفي القمر في أفق العروب لا تلبث الشمس حتى شرق، وبهذا الترتيب تكون الوقائع الثلاث قد حصلت في ليلة واحدة وبهار واحد.

وهذا الأمر ليس مهماً، المهم أن نعرف هو كيف يمكن لشخص مثل إبراهيم عليه السلام وبهذه المكانة العلمية والعرفانية ومع الأحاد بنظر الاعتبار عصمة ومقام الأنبياء وحتى قبل بعثتهم، أن يجري على لسانه مثل هذا الكلام والذي يحمل في طياته شركاً طاهراً؟ يمكن الإجابة عن هذا السؤال بطريقتين.

الأول: بقرينة الآيات الواردة حيث يقول ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يفهم أنه كان

في حالة التحدّث والكلام والجدال مع المشركين ونعم أن مدينة بابل كانت تضم عبدة النجوم والقمر والشمس.

إنّ المعلم الذكي والمتحدّث الماهر عندما يواجه المعارض اللجوج المعاند فلا يقابله بمعارضة عقيدته فوراً بل يماشيه فترة، ويتميز آخر يتحرّك مع الموجة قليلاً ثم يركبها، وبهذا النحو يكون إبراهيم عليه السلام في بداية الأمر معهم طاهراً لكي يريهم ضعف عقيدتهم ومنطقهم عند أقول هذه الأحرار السماوية، وهذا الأسلوب في المناش مؤثر وناقد ومقبول كثيراً ولا يتنافى مع ما لإبراهيم عليه السلام من مقام في التوحيد والمعرفة.

في رواية عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في جوابه للمأمون الذي كان يعتقد بمعارض هذه الآيات مع عصمة الأنبياء أنه قال: «... إنّ إبراهيم عليه السلام وقع إلى ثلاثة أصناف: صنف يعبد الرهرة، وصنف يعبد القمر، وصنف يعبد الشمس. وكان قوله هذا على الإنكار والابتحار...»<sup>١</sup>.

والتفسير الآخر هو أنّ إبراهيم عليه السلام اتقى هذا الكلام بشكل عرضي، والمحققون يوافقون ذلك في الغالب عند التحقيق.

للبعض نقول: يتوصّل الإنسان تارة إلى حقيقة ما عن طريق الاستدلال الوجداني والشواهد العظيمة ولكنه يريد أن يجعلها في إطار البرهان العقلي، فيستعين بعرضيات مختلفة ويدرس مستلزمات كلّ فرضية حتى يصل إلى ما يريد.

مثلاً يتوصّل المحقّق إلى أصالة الروح بوجدانه ويرغب في إقامة البرهان على ذلك فيفترض الروح مادية أو أنّ المادّية من خواصّها ثم يدرس أعراض المادّة وخواصّها ومستلزماتها فيصل أخيراً إلى أنّ المادّية (أو أعراض المادّة) لا تتسجم مع الظواهر الروحية فيتميّز الواحد تلو الأخرى حتى ينع نجرّد روح

وإبراهيم عليه السلام أيضاً ولكي يسلك طريق التوحيد المنطقي والذي توصّل إليه بوضوح في أعماق روحه يفترض عرضيات مختلفة ويقول (هذا ربي) و(هذا ربي)، ثم يصل إلى بطلان

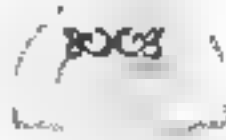
١ عيون أخبار الرضا عليه السلام باختصار، بنقل من تفسير العبر ١٠ ج ٧، ص ٢١٤

هذه الاحتمالات بأقوالها وعروبها حتى يقول 'حيراً' «إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِأَلَدِي قَطْرَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»<sup>١</sup> ويكمل توحيد المستدل.

ونلاحظ في بعض الروايات إشارات جميعه إلى هذا المضمون، كما نقرأ عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» الآية في حديث طويل وفي آخره يقول الراوي: قلت له: أفي صلال كانوا قبل نبي أم على هدى؟

قال عليه السلام: «لَمْ يَكُونُوا عَلَى هَدًى بَلْ كَانُوا عَلَى فِطْرَةِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَهُمْ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، وَلَمْ يَكُونُوا لِيَهْتَدُوا حَتَّى يَهْدِيَهُمُ اللَّهُ أَمَا تَسْمَعُ لِقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: (لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) أَي نَاسِياً لِلْمِيثَاقِ»<sup>٢</sup>

ولكن القرائن الموحودة في الآيات والروايات هي وردت عن الإمام الرضا عليه السلام في هذا المجال أكثر تلائماً مع التفسير الأول



### العلاقة بين الأقول والحدوث:

لقد استدلل إبراهيم عليه السلام بأقوال الكواكب ونشمن وعروبها على هي ألوهيتها، وقال بأن هذه الموجودات لا يمكنها أن تكون آلهة لهم، والكلام هنا كيف يحكم توصح هذه العلاقة؟

توجد هنا آراء مختلفة:

١- (الأقول) علامة التعبير، بل هولون من التعبير، ولتغيير دليل على نقص الموجود، لأن الموجود الكامل من كل جهاته لا تتصور فيه لحركه ولا التعبير لأنه لا يفقد شيئاً ولا

١. وردت احتمالات أخرى في تفسير الآيات أعلاه منها: الاستفهام الإنشكاري والاستفهام بقصد الاستهزاء وأمثاله، وخاصة في تفسير التبيان وتفسير العبر الراوي حيث أورد احتمالات عديدة، ولكن لا يسجم أي منها مع لحن الآية.

٢. تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٣٦ ح ١٤٨

يكتسب شيئاً فهو الكمال المطلق، وعلى ذلك فإن الموجودات المتعيرة والمتحركة تكون ناقصة حتماً فهي إما تفقد كمالاً، أو أنها تبحث عن كمال جديد، والموجود الناقص لا يمكن أن يكون واجب الوجود.

٢- الموجود المقرون بـ (الأقول) معرض لسحوادث، وكل ما كان معرضاً للحوادث لا يمكن أن يكون عديماً وأزلياً وواجب الوجود لاستمراره الجمع بين (الحدوث) و(الأولية) وبين هاتين الظاهرتين حالة من التضاد.

٣- كل حركة تحتاج إلى محرك من الخارج، فإن كان ذلك المحرك متحركاً فعلينا أن نبحث عن محرك آخر حتى نصل إلى وجود نيس فيه حركة مطلقاً.

٤- الحركة - وخاصة الحركة نحو الأقول - دليل على أن عالم المادة صائر إلى الفناء [وهو أصل الكهولة و(الأنتروبي) الذي يشير إليه] وكل ما كان مصيره الفناء لا يكون أبدياً حتماً، ومثل هذا الموحود لا يكون أزلياً قطعاً، وبذلك لا يمكن أن يكون واجب الوجود إن كل واحدة من هذه الاستدلالات التي ذكرت يمكن أن تكون لها القابلية على استدلال النبي إبراهيم عليه السلام بها، ويمكن أن يكون كلام إبراهيم إشارة طريقه إليها جميعاً ينقل (المفسر الرازي) عن بعض المحققين: أن استدلال إبراهيم من السمو والشمول ما يجعله مورداً لاستفادة الحاشية والموسطين ولعوام

أما الحاشية فإنهم يفهمون حقيقة (الإمكان) من (الأقول) وكل موحود ممكن هو بحاجة إلى حالق، وهذه السلسلة متصلة حتى تنتهي بظاهر استزاد من الإمكان ولا سبيل إلى داته، كما نقرأ في قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ (الشم ٤٢)

وأما المتوسطون فإنهم يفهمون من الأقول مطلق الحركة وأن كل متحرك حادث وكل حادث محتاج إلى وجود القديم الأزلي، وأما لعوام فإنهم يفهمون العروب من الأقول ويشاهدون الشمس والقمر والكواكب تسمى وتصلح عند العروب وتزول سلطتها وحكومتها، ومثل هذه الأشياء لا تصح للألوهية، إذن جملة ﴿لَا أُحِبُّ الْإِقْلِيلِينَ﴾ كلام يستفيد منه (المقربون) و(أصحاب اليمين) و(أصحاب الشمال) وهذا أكمل وأوضح برهان<sup>١</sup>.

ومن هنا يتضح لماذا لم يستند إبراهيم عليه السلام إلى طلوع هذه الكواكب مع أن الطلوع والغروب كلاهما مصداقان للحركة؟ وذلك لأن ظاهرة الزوال والفساء وانقطاع الفيض والبركة يشاهد في الغروب تماماً في حين لا يشاهد ذلك في الطلوع وعليه فإن الفصاحة والبلاغة تقتضيان أن يكون الإعتماد على (الغروب) لكي تتوضح القضية أكثر. وتكون مقبولة تماماً لدى جميع طبقات. وهذه النقطة جديرة بالملاحظة أيضاً وهي أن الحركة - كما سيأتي - لها أنواع وأوصفها هي (الحركة في المكان) وقد استند إليها في الآية (الحركة المكانية) مما يقتدر به بالحركة الكيفية، لأن كيفية النور في هذه الكواكب تتغير مع الحركة وتكون صعبة البصر عند الغروب حتى تحتفي عن الأنظار)



يعتقد بعض العالمة أن هذه الآية تنضم إلى برهان الحركة حيث يقول تعالى ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمْدًا وَهِيَ تَمُورُ مَرًّا السُّحَابُ سُمْغٌ أَلْهَىٰ أَلْفَنُ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

(النمل / ٨٨)

فيقول أولئك بأن هذا التعبير ناظر إلى (حركة الجوهرية) وهي الحركة التي تكون في ذات الأشياء وباطنها، الحركة التي تدل على أن عالم المادة بأجمعه حادث ويحتاج إلى خالق [ سيأتي شرح هذا الكلام في باب الإيضاحات بإذن الله ] ولكن بناءً على أن الآية ناظرة إلى حقيقة (الحركة الجوهرية) فإنها لا تشير إلى الاستدلال التوحيدي ولا إلى الاستفادة من ظاهرة الحركة لإثبات وجوده (بأمل جيداً).

ويعتقد أغلب المفسرين بأن هذه الآية ترتبط بأشراط الساعة (أشراط الساعة هي الأحداث المروعة التي تحدث عند قيام نفيسة وخاصة تحرك الحبال وتلاشيها ثم صيروتها غباراً كما جاء في آيات عديدة من القرآن الكريم)¹

ولكن كما قلنا في التفسير الأمثل إن هذا معنى لا يسجّم مع ظاهر الآية، لأن تلاشي

١ للمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة التفسير الأمثل ديد الآية ٨٨ من سورة النمل.

الجبال قبيل قيام الساعة مروع إلى درجة يجعل الإنسان يعيش وحشة عظيمة في حين تقول الآية بأنك لا تعلم بحركة الجبال

ولهذا نعتقد أن الآية تشير إلى حركة الجبل المواكبة لحركة الأرض في الدنيا وتشبيهها بحركة السحاب، وجملة (ترى) فيها إشارة إلى الوضع لموجود والتعبير ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ﴾ ودليل الآية: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ كلاهما دليلان على أن الآية ترتبط بحركة الجبال في هذه الدنيا<sup>١</sup>.

ويعتقد البعض الآخر بأن الآية ٢٩ من سورة الرحمن: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ إشارة إلى مسألة الحركة الجوهرية التي يمكن عن طريقها الوصول إلى وجود الله (عن طريق برهان الحركة).

ولكن دلالة هذه الآية على الدعوى المذكورة غير واضحة أيضاً، بل إن ظاهرها هو أن الله يحل كل يوم أمراً جديداً، خلفه دنم مستمر، وهو يتكرر في كل زمان أمراً جديداً، وقدّر كل يوم نعمة جديدة، وعمله هو الإستجابة لقتضاء حوائج السائلين

كما أن الظاهر من معنى الآية وكذلك الروايات الواردة في تفسيرها هو ما ذكره أيضاً (تحدثنا عن هذا الموضوع مفصلاً في التفسير لأمثل)<sup>٢</sup>

ويُستنتج من مجموع ما تقدم أن أبرز الآيات الدالة على برهان الحركة هي آيات إبراهيم عليه السلام التي استدلت بها على نفي ألوهية سحوم وذلك بأقوالها وغروبها واحتياجها إلى الخالق كذلك.



## توضيحات

### ١- برهان الحركة ومقدماته

الفهم الصحيح لبرهان الحركة وكيفية استخدامه في مسألة إثبات وجود الله يقتضي ملاحظة الأمور التالية إجمالاً

١. لاحظ التفاصيل في التفسير لأمثل، ذيل الآية ٨٨ سورة النمل.

٢. التفسير لأمثل ذيل الآية ٢٩ من سورة الرحمن.



(أ) تعريف الحركة.

(ب) وجود الحركة

(ج) أركان الحركة.

(د) المقولات التي تقع فيها الحركة.

(أ) تعريف الحركة

ذكرت عدة تعاريف للحركة، أوضحها تعريفان الاتيان.

١- خروج الشيء من القوة إلى الفعل بصورة تدريجية.

٢- الزوال والحدوث المستمر.

عندما تتساقط قطرات المطر من السماء والنتيجة هي إما أن ينبت نبات أو يصبح شجر تدريجياً، وهي هذه الموارد كلها يكون للجسم وضع فعلي كما أن له القابلية هي ذات الوقت لا تحاذ وضع آخر، وعندما يعقد الروح الموجود تدريجياً وتعتل وضعاً حديداً (ما كان فيه بالقوة يصبح فعلاً) فإن ذلك الموجود وفق سلسلة من الزوال والحدوث المستمر يكون قد انتقل من حال إلى حال، غير أن هذا لا يعني أن الحركة مركبة من أجزاء إسعها (السكون) أو أنها مركبة من (الوجود) والعدم بل إن للحركة أمر واحد مستمر في الخارج وله أجزاء هي التحليل العقلي

مما قدمنا يمكن استنتاج أن الشيء قد كسب له فعلية تامة ووجود مطلق فلا تتصور فيه الحركة، بل سيكون ذا ثبات تام، وبعبارة أخرى أن الحركة تكون مقرونة بنوع من النقصان، وعليه لا توجد في ذات الله سبحانه حركة عني الإطلاق.

(ب) وجود الحركة

لا نواجه مشكلة مهمة في إثبات الوجود للحركة فذلك من الأمور البديهية، حيث نلاحظ بأن أعيننا وبوصوح وبحس بحواسنا لأخرى باستمرار وجود حركات في الخارج،

وعليه فإن أدلة المكربين لوجود الحركة ومهم (الفيلسوف اليوناني ذنون وأتباعه) لا قيمة لها وأنها تواجه أمراً بديهياً، وذلك لأننا لا يمكن أن نعبر الماء الجاري في النهر، أو التفاحة التي تنضج في الشجرة تدريجياً، أو عندما يركب السّيارة ونسافر من مدينته إلى أخرى أموراً خيالية قد ابتلياً بها، وأنها أمور ذهنية وليست حارحية لأن هذا الأمر هو أشبه بإنكار البديهيات، ونحن في غنى عن الاستدلال لإثبات ذلك.

ولكن لا يمكن إنكار أن فهم الحركة بدون قوة حافظة أمر غير مقدور، لأن الحركة لا يمكن إدراكها بإحساس أي لأنها أمر تدريجي

### ج) أركان الحركة

ذكر الفلاسفة ستة أركان للحركة

١- المبدأ ٢- الغاية ٣- المتحرك ٤- المتحرك ٥- موضوع الحركة ٦- زمن الحركة  
استعرف أن الزمان ليس سوى مقدار الحركة، ويتعبر آخر أن الزمان وليد الحركة وليس والدها.

وسرى أيضاً أن هذه الأركان الستة تطابق نظريته شهيرة ذهب إليها الأقدمون وعليه فإننا لا نحتاج موضوعاً للحركة بعد الإقرار بالحركة الجوهرية.

### د) مجالات الحركة

كان الفلاسفة في السابق يعتقدون بأن الحركة تحدث في أربع مقولات من مجموع تسع مقولات عرضية هي<sup>١</sup>.

١- الحركة في المكان، نظير حركة قطرات المطر وحركة السيارة في الطريق.

٢- الحركة في الكمية (نظير زيادة حجم نبات النامي).

١. المقولات العرضية السبع هي: الكم، الكيف، الوصف، المسمى، الأيس، أن يفعل، أن يفعل، ملك، والإضافة وشروحها في معالها.

٣- الحركة في (الوصح) بطير حركة الأرض حول نفسها.

٤- الحركة في (الكيفية) نظير التعبير التدريجي في لون وطعم ورائحة الفاكهة في

الشجرة.

وكانوا يعتقدون بعدم وجود حركة في غير هذه الموضوعات الأربعة (غير ممكنة في جوهر الأشياء من باب أولى) فكان فلاسفة يونان لاسيما (أرسطو) وأتباعه وكذلك بعض الفلاسفة المسلمين ومنهم ابن سينا وآخرون يعتقدون باستحالة الحركة في الجوهر، وكما قلنا في البحث الماضي: إنهم كانوا يتصورون أن ذات المتحرك هي من أركان الحركة، ويعتقدون بأن الحركة لا مفهوم لها ما لم يوجد موجود ثابت ينمّص للحركة

ولكن صدر المتألهين (الفيلسوف الإسلامي الشهير) قدّم نظرية جديدة وقال بأن الحركة هي الجوهر ليست غير مستحيلة فحسب بل لا يمكن أن توجد حركة في الاعراض ما لم تكن مستندة إلى حركة هي الجوهر

وسمى أحراراً (الحركات العرضية) تنشأ من (الحركة في الجوهر)، قال صدر المتألهين لماذا نعرض هنا أمراً ثانياً؟ وما المانع من أن يكون (الجوهر) متحركاً في ذاته؟ بمعنى أنه يفقد نفسه باستمرار ويكتسب تشخيصاً جديداً

هذا الموضوع يبدو عجيبيّاً لأوّل مرّة - طبعاً - لأنه يستلزم أن يكون (المتحرك) مع (الحركة) شيئاً واحداً، وأن يكون الموجود نفسه سبباً لتحركه، لكنّه يقول: لو دققنا قليلاً لوجدنا أن الأمر ليس عجيبيّاً فحسب بل هو أمر لازم وملفت للنظر أيضاً

ويصرّ صدر المتألهين على أن أصل الحركة الجوهرية موجود في أقوال السلف ويذهب إلى أبعد من ذلك حيث يستعين بآيات قرآنية كشواهد على هذا الموضوع (كي لا تكون حادثة هذه النظرية سبباً لنزاع المعارضين كما هو الحال في أية نظرية جديدة).

ولو افترضنا أن هذه النظرية ليست جديدة، غير أن عرضها بهذه السعة يعتبر أمراً جديداً.

## ٢ - أدلة وجود الحركة للجوهرية

يعتقد صدر المتألهين بأن الوجود على صورتين:

- ١ - الوجود مستقر وثابت وعديم الحركة مطلقاً لا في ذاته أو صفاته.
  - ٢ - الوجود سيال ومتحرك في ذاته، أي أن السيلان جزء من ذاته وليس له سكون ولا قرار. وقد يلاحظ هذا الإضطراب الذاتي بوضوح في اضطراب الاعراض، وقد لا يلاحظ تغير في ظاهر الذات في حين تتجدد في باطنها باستمرار.
- وبتعبير آخر إن هذه الموجودات السيالة لها وجود حديد في كل آن، وهي أشياء جديدة، ولكن هناك لون من الاتصال بينها يجعلها تبدو كوجود واحد.
- وقد ذكر الماصرون لـ (الحركة الجوهرية) أدلة لإثبات مرادهم، وإن لم يسمح المحال لبيان هذه القضايا، غير أننا نشير إلى ثلاثة أدلة رئيسية هي:
- ١ - من القاعده القائلة (كل ما بالعرض ينتهي إلى ما بالذات)، هناك أصل عام وهو أن كل موجود استعار صفة من غيره وأنها لا بد أن تنتهي إلى مصدر منشأ منه، وبدون ذلك سواجه مشكلة (التسلسل)، أي أن الحرارة في الماء الحار مستحارة ولا بد لها أن تنتهي إلى النار التي تولد الحرارة من ذاتها.

بناءً على هذا الأصل فإن الحركة التي يلاحظها في أعراض الجسم (نظير الكمية والكيفية) لا بد لها أن نعرف أن هذه الحركة ناشئة من اضطراب الذات والباطن، فمثلاً لو كانت التفاحة ثابتة في ذاتها ومستقرة فكيف ينشأ لون أعراضها؟ هذه الحركة الظاهرية إذن تخبر عن حركة الداخل.

- ٢ - كل (معلول متغير) بحاجة إلى (علة متغيرة)، فلو جلسنا في ظل شجرة في بستان ولاحظنا التحرك المستمر للظل فالواجب أن نعلم أن علة ذلك وهي أشعة الشمس في حالة تحرك، ومن هناك ندرك الحركة في ذات الجسم عن طريق الحركة في أعراضه.

٣ - الزمان دليل آخر على الحركة لجوهرية، لأننا نلاحظ جيداً أن حوادث العالم لا تكون مجتمعة، فحوادث اليوم تتحقق بعد حوادث أمس وقبل حوادث غد، وهذا أمر واقعي،

وهذا الاختلاف هو ما طلق عليه عنوان تعاوت (الزمان).

من خلال نظرة سطحية وابتدائية للزمان منه يبدو واقعاً مستقلاً عن الموجودات ووعاء للحوادث، ولكن لو افترضنا - ولو للحظة واحدة - عدم وجود الموجودات المادية لوجدنا أن الزمان لا مفهوم له، ويتعبر أوضح (الزمان) (وليد المادة) أو (الزمان) هو (مقدار الحركة). ومن جهة أخرى إذا اعتقدنا بأن الموضوعات التي تقع فيها الحركة تنحصر في الموضوعات الأربعة السابقة فإنه يعني أن لموجود الفاعل لهذه الحركات، أي لا يلاحظ وجود للحركة في ظاهره، فإن هذا الموحود يعني أن لا يكون دماياً، في حين أن وحداننا يحكم بأننا نشعر بالزمان رغم عدم هذه الحركات الرباعية، وليس ذلك إلا لأن المادة ذات حركة في ذاتها لكي تتقبل أجراء الزمان.

هذه هي أهم الأدلة لدى أنصار الحركة الجوهرية وقد اعتمدنا الاختصار في عرضها وهناك سؤال لا يزال قائماً عند البعض: كيف يمكن أن نتصور أن (المتحرك) هو عين (الحركة) مع عدم وجود موضوع للحركة مطلقاً؟ وكيف يمكن التصديق بشيء يكون تصوّره محل سؤال؟

والعجيب أن القائل بالحركة الجوهرية نفسه تتمسكه بالحيرة أمام هذه المعضلة العويصة، وتتهين أقواله مثلاً يدل على أن حنّها غير مسير<sup>١</sup>

وباختصار أن أبحاث الحركة الجوهرية بجمعها تنفّرع عن قابلية تصوّر الحركة بدون موضوع، ويقول البعض: إن هذا أمر غير معقول، كما يعتقد البعض أن تصوّر هذا المعنى يقتضي إحلاء الذهن والابتعاد عن المفاهيم التي يأنس الإنسان بها في مجال الحركة حتى يتصوّر وجوداً هو عين الحركة والمحرك وحركة واحدة، كانت هذه خلاصة عن أبحاث الحركة.

❦❦❦

١ للمريد من المعرفة حول هذا الأمر راجع كتاب الأسفار في بحث الحركة أو دروس المرحوم الشهيد مطهرى حول بحث الحركة في الأسفار، ج ١، ص ٤٤٧

### ٣- إثبات وجود الله بواسطة برهان للحركة

لا شك في أن الحركة لا تنحصر في الحركة الجوهرية، ولذا لا يتحدد برهان الحركة لإثبات ذات واجب الوجود يبحث الحركة الجوهرية، على الرغم من أن برهان الحركة - بعد الإيمان بالحركة الجوهرية - أكثر وضوحاً في معرفة الله، ومن أجل ذلك نقول:

إن الحركة الجوهرية تقول بأن عالم المادة بأسره عبارة عن حركة، أي أنه في حالة حدوث وتجدد متواصل، وله في كل أي وجود جديد، وهذا الحدوث المستمر يثبت الارتباط الدائم للعالم بمبدأ غير حادث، أي أنه يثبت الأزلية والأبدية لواجب الوجود.

ويتعبر آخر: إن العالم في حال (ضرورة، دائمة لا (كيونة)، وليس ذلك في الأغراض بحسب بل هو متأصل في أعماق ذاته، ولذا يكون محتاجاً إلى المبدأ باستمرار لكي يحلقه كل آن.

من خلال هذا البحث يمكن التوصل إلى نتيجة طريفة وهي أن خلق العالم لم يحدث في البداية ثم انتهى، بل إنه عملية الخلق مستمرة في كل آن، ولذا فإن حاجة العالم إلى علّة أرليه، أبدية لم تكن في البدايه فقط، لأنه في حالة حدوث وخلق مستمر وفي كل آن، وهذا المعنى كامس في أعماق مفهوم الحركة.

ولهذا بواسطة الحركة الجوهرية يثبت حاجة العالم إلى واجب الوجود عند نشوئه وحاجته إليه في البقاء تبقى قائمة ومستمرة أيضاً، بل وكما ترى نظرية الحركة الجوهرية فإنه لا مفهوم للبقاء أصلاً والحدوث دائم، غير أنه حدوث متواصل ومتسلسل ولهذا يطلق على الاتصال مصطلح البقاء.

هذا يمكن أن تذكر تشبيهاً ناقصاً لكيفية ارتباط الأشياء بالمبدى الأزل للعالَم وهو أن الموجودات في العالم تشبه المصابيح التي يتوصل وجودها من خلال ارتباطها بالمصدر الكهربائي، وبما أن النور يتجدد في كل آن فإنه بحاجة إلى العلة في كل آن والتعرف على كيفية انبعاث النور في المصابيح يكفي لمعرفة حاجتها المستمرة للمصدر المؤد للطاقه الكهربائيه

صحيح أن (برهان الحركة) له علاقة بـ (برهان الإمكان والوجوب) غير أنه يُبحث بصورة مستقلة من أجل الحصول على صورة جديدة عنه



#### ٤ - للعالم متغير وكل متغير حادث

استند الكثير من المتكلمين (علماء العقيدة) على هذا الدليل (دليل التعير) لإثبات وجود الله دون ملاحظة نظرية الحركة الجوهرية لأن التعيرات التي تشاهد في ظواهر الموجودات في العالم باستمرار تكفي لإثبات آرائهم.

ولتوضيح ذلك نقول: لا يبقى في عالم لمادة شيء على حاله واحده، فكل الأشياء - دون استثناء - في حالة تغير.

ومن جهة أخرى، أن التعير والحركة حادثان، وبما أن المادة مستعرضة لهذه التعيرات والنحولات دائماً فيسببي أن تكون حادثاً أيضاً فمن غير الممكن أن تكون المادة أزلية وتعرض للحدوث والتعير منذ الأزل لأن ذلك يستلزم اجتماع (الحدوث) و(الأزلية) وهما متضادان كما يعلم

إن هذا الاستدلال ومن خلال ملاحظة 'سطريات' الجديدة بشأن المادة يرد بصورة أوضح، فكل مادة - وفق النظرية الفيربائية الجديدة - تتركب من ذرات، والذرة عبارة عن مجموعة من الحركات، وكل حركة حادث، فمادة - إذن - والتي هي عبارة عن مجموعة حركات (الالكترونات) و(البروتونات) لا يمكن أن تكون أزلية، وبعبارة أخرى أن كل حركة لها بداية ونهاية، وكل ما له بداية ونهاية لا يكون أزلياً

هذه المسألة جاءت بشكل ملفت للسطر في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام في مناظرة مع (ابن أبي العوجاء) حيث قال له لإمام عليه السلام: أسأل ما شئت، فقال (ابن أبي العوجاء): ما الدليل على حدث الأجسام؟ فقال الإمام عليه السلام: ما وجدت شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلا إذا حُسم إليه مثله صار أكبر، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولى، ولو كان قديماً ما زال

ولا حال، لأنّ الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث، وفي كونه في الأزل دخوله في القدم، ولن تجتمع صفة الأزل والحدث والقدم والعدم في شيء واحد<sup>١</sup>.



## ٥ - حدود للعالم والقوانين العلمية الحديثة

لقد ثبت في البحوث العلمية الحديثة [ خاصة بحوث (الثرموديناميك) والقانون الثاني المعروف بقانون (الانثروبي) أو ما يسمى (بكهولة)، أو (الإضمحلال) ] ثبت:

«أنّ الحرارة تنتقل من الأجسام الحارة إلى لباردة دائماً ولا يحدث العكس بنعسه أبداً، و(الانثروبي) في الحقيقة هي سنة الطاقة التي لا يمكن الانتعاع بها إلى الطاقة القابلة للانتعاع، ومن ناحية ثانية نحن نعلم أنّ هذا الانتقال والانثروبي في العالم في حالة تزايد، فلو كان العالم أزلماً لكاست الحرارة في الأجسام كلها مساوية منذ عصور قديمة ولم تبقى طاقة باقية وبالتالي لم يحققوا في العالم أي عمل أو تفاعل كيميائي، ولاستحالت الحياة على الأرض، لكننا نلاحظ بأنّ التفاعلات الكيميائية مستمرة والحياة على الأرض ممكنة، ولذا فإنّ العلوم تثبت البداية للعالم - دونما قصد - وبهذا تثبت ضرورة وجود الله بطلراً إلى أنّ الحادث لا يحدث لوحده بل يحتاج إلى المعرّك الأول<sup>٢</sup>»

والطريق الآخر الذي سلكوه لإثبات الحدوث للعالم هو التحقيق في الأجسام (المستقرة) وهي أجسام لها ذرات غير مستقرة وفي حالة اضمحلال وزوال مستمر حتى تتبدّل إلى ذرات مستقرة، ولها عدد ذري أكبر من ٨٠ ويكون على شكل أجسام ثقيلة وغير مستقرة، وفي حالة إشعاع ذري، وكأنّها تلقى بدياتها من الخارج حتى تتحوّل إلى عناصر مستقرة. إنّ وجود هذه العناصر في الطبيعة دليل على أنّ العالم حادث وذو تاريخ، وكما يقول

١ بحار الأنوار ج ٣ ص ٤٦: أصول الكافي، ج ١ ص ٧٧ ب حديث العالم

٢. كتاب إثبات وجود الله، لادوارد لوتر كيل، ص ٥٥ (باختصار طيب)



المفكر الشهير (دونالد روبرت كار) ولتخصص في (الكيمياء الحياتية) كتاب (الأرض) وهو كتاب يعين عمر الأرض بحساب كاربون الإشعاع الطبيعي: «لو كان العالم أزلياً وأبدياً لما وحدها عنصراً مشعاً وذلك لتبدنه إلى عناصر مستقرة»<sup>١</sup>.

وستنتج من ذلك أن العلوم الطبيعية تثبت حدوث لعالم أيضاً بطرق مختلفة، ومن هنا تتضح ضرورة وجود خالق أزلي أبدي لتفسير ظهور عالم الوجود.

**وتفسير/وضع:** إن اصطلاح المادة (الاصري) دليل على أن للعالم تاريخاً ينهي عن بداية حدوثه، فلو كان عالم المادة أزلياً لكان قد مضى عليه زمان غير محدود، ولكانت الحرارة فيه متساوية وانعدم النشاط فيه وتعرض للماء.

ويشبه هذا إذا وضعنا وعاءً ملئاً بالماء يحار في غرفة، فما دامت الحرارة في الوعاء تختلف عن حرارة الجو فإن لهواء حوله يكون متحركاً باستمرار ويرداد حرارة ويتصاعد إلى الأعلى ويحل محلّه الهواء المحاور له وهذا يحدث حركة مستمرة في العشاء المحاور، وعندما تتساوى الحرارة في الغرفة فلن تكون أية حركة.

وهذا هو مصير العالم أخيراً، **والحركة الموجودة حالياً دليل على عدم مرور زمان لا محدود عليه، أي أن له تاريخ ظهور وحدث.**

وهو يشبه الأواني المستطرقة المتصلة فبد سكبها الماء في أحدها فإنه سوف يتحرك في الأواني كلها حتى يتساوى فيها وبذلك يحل السكون، ويقول العالم الفلكي (استونتر)، «قام العلم باحتساب أعمار الكثير من الأشياء مثل: عمر الأرض، والصخور الشهبانية، والقمر والشمس، والمجرة وأخيراً عمر الذهب، والعمر اللازم - لتكوين العناصر المختلفة وتفككها - وظهر أن هذه الأعمار متقاربة وتقارب ٦٠٠٠ مليون سنة منذ بداية حدوث العالم»<sup>٢</sup>.

8008

١. كتاب إثبات وجود الله، لاندوارد بوتر كيل، ص ١٥٥

٢ المصدر السابق، ص ١٦٠

وفي الختام نعود لنقول إنَّ حديث إبراهيم عليه السلام في الآيات المذكورة يستهدف مسألة إثبات وجود الله عن طريق الحكم العقلي القائل بأنَّ الشيء المتعَيَّر لا يمكن أن يكون خالداً وإنَّ كانت براهين أخرى للحركة كاسمة في طبيّات استدلال إبراهيم عليه السلام

❦❦❦

### ٣- برهان الوجوب والإمكان (الغنى والفقر)

#### تمهيد:

استدل الملاسمة والمتكلمون (علماء العقيدة) بأدلة مختلفة لإثبات وجود الله سبحانه، والبعض منها ذات أصول مشتركة، ومن هذه الأدلة برهان (الوجوب والإمكان) وبرهان (العلّة والمعلول)، وستأتي تفصيلاتهما تباعاً برؤى الله وبما أن هذه الاستدلالات تكون ذات شروح مختلفة لذا فإننا نشير إليها بصورة مستقلة مع الإشارة إلى أصولها المشتركة

إن الأساس في برهان «الوجوب والإمكان» أو «المعنى والفقر» يرتكز على مبدأ حاجة وفقر المخلوقات، فعندما ننظر إلى أنفسنا وسائر الموجودات في العالم، نراها دائماً في حالة عوز وحاجة، فالحاجة إلى ما حولها يكاد يكون أمراً بديهياً، إن الحاجة والفقر الشامل في هذا العالم يدل على وجود مصدر عظيم للمعنى وعدم الحاجة، وهذا المصدر أطلق عليه لفظ الجلاله «الله» سبحانه وتعالى<sup>١</sup>

وبعبارة أخرى إننا نعد كل موجود في هذا العالم تابع، ولا يمكن لهذه التبعية أن تكون إلى ما لا نهاية، والعالم عبارة عن مجموعة من التبعيات، مما يدل على وجود ذات مستقلة قائمة بذاتها في هذا العالم تتبعه هذه (التبعيات) وتستند إليه.

بعد هذا التمهيد نرجع إلى القرآن الكريم نتأمل حاشعين في الآيات التالية:

---

١ التعبير «إِنَّ اللَّهَ عِزِّ جَلْدٍ» وأمثاله جاء في عشر آيات قرآنية في البقرة: ٢٦٧؛ إبراهيم: ٨؛ الحج: ٦٤؛ لقمان: ١٢؛ لقمان: ٢٦؛ الحديد: ٢٤؛ الممتحنة: ٦؛ النور: ٦؛ النساء: ١٣١ والآية أعلاه كما أن وصف الله بالفقير ورد في آيات أكثر عدداً، وهذا التأكيد والتكرار القرآني في هذا المقصد يحكي أهمية المصنوع في هذا التعبير

- ١- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر / ١٥)  
 ٢- ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ (محمّد / ٣٨)  
 ٣- ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن / ٢٩)

### شرح المفردات:

(فقراء) جمع (فقير)، وأصله كما يقول (الربيع) هي (المعدرات) هو الذي كسرت فقرات ظهره، وبما أن البؤساء يشبهون حال من تعرّض بكسر الفقرات لذا أطلق عليه هذا المصطلح كما أن (مسكين) مشتق من (السكون) ويعني المحر عن المشي ولذا أطلق على الفقراء المعدمين، ولذا تطلق كلمة (فاقره) على الحادثة أو المصيبة العظيمة التي من شأنها أن تهشم الفقرات.

وقد ورد في (مجمع البحرين) بأن (أفقير) يُطلق على الذي هو أفضل حالاً من (المسكين)، ولذا قيل لرحل في الصحراء أفقيراً فقلت: قال: لا والله بل مسكين<sup>١</sup> وعلى أي حال فإنهم ذكروا (الفقر) أربعة معاني هي:

- ١- الحاجة الضرورية التي تشمل جميع بشر بل كلّ الموجودات في العالم، والآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ يدهشون بها شير إلى ذلك.
- ٢- الإحتياج إلى النعمة الأبدية من مستلزمات الحياة، ويعتقدون أن الآية ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ...﴾ تشير إلى ذلك.
- ٣- فقر النفس والذي يعي الطمع، وقد عدّه الحديث المعروف كفرة (كاد الفقر أن يكون كفراً) ويقابله غنى النفس.
- ٤- الحاجة إلى الله كما جاء في الحديث معروف (اللهم أعنني بالإفترار إليك ولا تفقرني بالإستغناء عنك)<sup>٢</sup>.

١ ينسب البعض إلى العكس في ذلك.

٢ مفردات الراغب، مادة (فقر).

وقد جاء في كتاب (العين) كلمه (تُقَرَّر) على وزن (تُقَرَّر) بمعنى الحفرة التي يوجد فيها الإنسان في الأرض من أجل غرس لشتلات، ومن الممكن أن يكون الأصل في (فقير) هو هذا المعنى وهو نشوء فجوة في حياته، ومن المحتمل أن يكون استعمال هذا اللفظ في العمود الفقري وذلك لوجود التفقرات فيه.

«غنى»: من مادة (غَنَاء) وتعني عدم الإحتياج ويقابله الفقر، ولذا ذكروا له هذه الموارد الأربعة في استعمالاته:

١- الغنى بمعنى عدم الإحتياج إلى أي شيء وهذا مخصص في الله سبحانه.

٢- عدم النقص في مستلزمات الحياة.

٣- الغنى وعدم احتياج النفس أي الفناعة.

٤- الاستغناء عن الله وهذا المعنى محال، ولكن قد تحطر هذه الفكرة لدى بعض الناس

ويكون سبباً للطغيان: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ \* أَنْ رُءَاهُ اسْتَفْقًا﴾ (الملق / ٦- ٧)

ويقول ابن منظور في (لسان العرب): (الغنى) بالفتح بمعنى المقتمة وغناء بمعنى التطريب

وعني (بلا مدّ) يعني الإستهناء وعدم الحاجة، ومن الممكن أن يعتقد بوجود أصل مشترك

بين هذه المعاني كلها ويقول بأن الماء يطلق عندما يرفع الإنسان صوته ويسمى به الجو

كالأغنياء الذين لهم وفرة من المال والثروات

XXXX

### حاجة الجميع إلى الله:

الآية الأولى تحاطب جميع الناس ويدون استثناء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾

إِنَّ (الفقر) هنا معانٍ واسعة وتشمل كل احتياج لأي شيء في الوجود، فأننا ومن أجل

مواصلة حياتنا المادية بحاجة إلى ضوء الشمس، ونماء، والهواء، وأنواع من الغذاء

والملبس والسكن.

ومن أجل بقاء الحياة في أجسامنا نحن بحاجة إلى الأجهزة الداخلية من قلب وعروق

وحهاز للتنفس والمخ والأعصاب.

ونحتاج في الحياة المعسوية - من أجل أن يميز الطريق السليم عن غيره ونعرف الحق من الباطل - إلى قوة عاقلة، وأرقى من ذلك نحن بحاجة إلى القادة الإلهيين والكتب السماوية. وبما أن منشأ كل هذه الأمور يعود كنهه إلى الله لذا فأتنا بحاجة إليه في وجودنا كله. إن الشهيق والزفير هي عملية التنفس يحدثان بمعاصد الآلاف من العوامل وبدونها لا يحدثان، وكل هذه العوامل هي هبات إلهية، فهي كل نفس هناك آلاف الصم، وسبغى الشكر على كل نعمة.

هذه الآية وإن كانت تفصد كلام الذين يستعربون من إصرار النبي ﷺ على عبادة الله تعالى كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين<sup>١</sup> ويقولون هل أن الله بحاجة إلى عبادتنا؟ فيجيبهم القرآن أنتم الفقراء إلى الله وعبادته تكامل أرواحكم

ولكن هذا الكلام لا يحدث من سعة مفهوم الآية في جهاتها المختلفة، لأن فضيلة استثناء الله وإحيائنا هي الأساس في حل الكثير من المشكلات.

وعلى أية حال فإن الفرق باعد إلى أخصاق ذات الشر أجمع، بل وكل الموجودات، ولا تقتصر الحاجة إليه في الرزق ومستلزمات الحياة فقط، بل إن وجودها يحتاج إلى قبضه في كل لحظة وأن (أولو تَوَقَّفَ لحظة تهذمت الهياكل)

أجل، إن الغنى في عالم الوجود هو الدات المقدسة، ولما كان البشر - وهم تحفة عالم الخلق - بحاجة إليه في كل وجودهم فإن حال سائر الموجودات واضحة ولا تحتاج إلى بيان، ولذا فإن الآية تضيف في ذيلها «وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» وملاحظة أن التعبير أعلاه يدل على الحصر - فوق القواعد الأدبية - فإن مفهومه ليس إلا هدا، وهو إن الغنى المطلق هو الدات المقدسة لله سبحانه، ولو قسمنا البشر إلى (فقير) و(غني) فإن هذا أمر نسبي غير حقيقي.

وبتعبير آخر، إن الموجودات كلها فقيرة ومحتاجة، وإن ذات الله المقدسة تمثل الغنى

١ تفسير الكبير: وتفسير روح المعاني في ديل آية مورد الحديث.

والإستغناء، وهذا هو أول الكلام وآخره.

على هذا الأساس فإن الله سبحانه لا يحتاج إلى عبادتنا وطاعتنا أبداً، كما لا يحتاج إلى مدح وثناء، بل إن طاعتنا وعبادتنا له ومدحنا وثناءنا عليه هي جزء من احتياجنا إليه وسبب لتكاملنا المعنوي والروحي، حيث إننا كلما اقتربنا من منبع النور فإنا نزداد نوراً، وكلما اقتربنا من المصدر الفياض ذاك فإنا نستفيد أكثر، ويتميل ناقص إننا كالباتات والأشجار التي تستقبل نور الشمس دون أن تحتاج إليها الشمس

إن فهم هذه الحقيقة يقدم للبشر درساً في التوحيد حتى لا يحضنوا إلا إلى الله ولا يطأطئوا رؤوسهم ويستسلموا لغيره وأن يمدو يد الحاجة إليه لأن الله (عني وكريم ورحيم وودود)

إن الإلتئاف إلى هذه الحقيقة له الأثر السالم في تربية الإنسان، فمن جهة يخرج من حالة الغرور وعبادة هوى النفس، ومن جهة أخرى يحرمه من جميع القيود ويجعله غنياً عن سواه، وبهذه الرؤية والفهم سوف لا يصيب في عالم الماديات، وتتوجه دائماً إلى مسبب الأسباب، وهنا لابد من الإلتفات إلى أمر مهم:

**الأول:** أن الله هنا (في الآية) قد وُصف بـ (لحميد) بعد وصفه بـ (العني)، وكما أشرنا أن هذا التعبير قد تكرر في عشر آيات مما يدل على وجود نقطة مهمة فيه - هي كما يحتمل - إن الكثير من الأغنياء يتصفون بصفات دميعة نظير الكبر والعز والحرص والبخل، حتى لو كان لدى أحد إخوانهم نعمة واحدة ولديهم ٩٩ نعمة فأنهم سيصرّون على أن يسلبوه نعته، إلى حدّ يتبادر في ذهن الكثير بأن لفظ (لغني) تعني الظلم والكبر والبخل، في حين أن الله سبحانه في عين كونه غني فهو كريم وعفو وعفور، ولذا هو أهل لكل مدح وثناء. أجل، إن (الغني) الوحيد المبرأ من كل عيب ونقص وذو الفضل واللفظ والرحمة هي الذات المقدسة.

**الثاني:** أن المحاطين في الآية هم البشر فقط، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فلماذا لم تذكر الموجودات الأخرى في حين أنها فقيرة إلى الله أيضاً؟

قال الكثير من المعشزين إن ذلك ناشئ من سعة حاجة الإنسان، فكلما كان الموجود أكمل فأنه أكثر احتياجاً في مسيرته ويردد شعوراً بالحاجة كما هو الحال في الاحتياج المادي، فالطير يقنع بشيء من الماء والحب وتعيش البسيط في حين لا يقتنع الإنسان بألوان الطعام واللباس والبيوت والقصور<sup>١</sup>.



والآية الثانية تحدثت عن (الإعاق في سبيل الله) وبحل البعض في الإنفاق في سبيل الله وانعكاس بحل البهلاء على أنفسهم لأنهم محرومون من عيش الله ورحمته اللامحدودة، فتقول: «وَأَقِمْ الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ»

قد يكون هذا التعبير من أجل رفع التصور بأن الله تعالى عندما يدعو الناس إلى الإنفاق في سبيل الله فأنه محاسن إلى إنفاقهم، أو أن هذه الجملة تنامي مع الجملة التي وردت في آيات سابقة حيث تقول: «وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُهُمْ»

فنقول الآية: إن الله عني على الإطلاق والجميع محتاجون إليه، فعندما يأمرهم بالإعاق فليس ذلك لحاجته، بل لأنهم هم المحتاجون، ويصعدون إلى الكمال من هذه الطرق ويتقربون إلى ذلك الوجود اللامحدود.

صحيح أن بداية الآية ترتبط بـ (الفقر والمعنى المادي) وتنظر إلى الإعاق في سبيل الله، غير أن الإطلاق في ذيل الآية يعطي مفهوماً وسعاً، ففي الوقت الذي تعرف الله سبحانه بالغي المطلق فأنها تعتبر البشر محتاجين في كل وجودهم، وقد ينفذ الفقر إلى أعماق ذواتهم ولهذا يمكن استخدامه للاستدلال في هذا البحث

١. انتبه بعض المعشزين إلى هذه النقطة أيضاً وهي أن ذكر (الفقر)، بصورة معرفة (مع أن الخير يكون تركة عبادة) ولو كان معرفة لما احتاج المخاطب إلى الخير، هو ليس به تذكير، أي أن المخاطب نفسه يعلم بأنه فقير إلى الله وهذه تذكير ليس إلا وقد جاء في علم البلاغة أيضاً أن المخاطب العالم الذي لا يصل بعلمه بشيء جهلاً ويذكر عن طريق الأخبار (تأمل جيداً).



على أي حال فإن من المملت أنه هو الذي تفصل بالهبات كلها ووهبها للعباد ثم يطلب منهم أن يفتقروا في سبيل الله، وهذه مقدمة لهبات أكبر ولا يحصر هذا في قضية الإبداع فحسب، بل يحرى في كل التكاليف وتعود بنتائجها على العباد أنفسهم.

وقد جاء هذا المضمون في آيات عديدة منها ما تضمنته هذه الآية حيث نقرأ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ (سبأ / ٤٧)  
وكما جاء في قوله تعالى ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (الصكوت / ٦)



والآية الثالثة والأخيرة من بحثنا تصور هذا المضمون (المقر العام للموجودات والعنى المطلق لله) في حلة جديدة وجميلة ونقول: «يَسْتَلْهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». وكل يوم هو في شأن ومسح مواهب جديدة: «كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» وبملاحظته الفعل المضارع (يسأل) والذي يدل على الاستمرار، وملاحظته ما للآية من معنى واسع يشمل البشر جميعاً والملائكة وسكنة السماء والأرض (وباحتمال قوي يشمل كل الموجودات العاقلة وغير العاقلة والتعير بل من الذي يستعمل للعاقل هو للتعليل) وملاحظة أن الآية لم تذكر الموضوع المسؤول عنه فبدل ذلك على شمولية الآية، وسيكون مفهوم الآية هو أن كل الموجودات في عالم لخلق تستمد الفيض من مبدأ الفيض بلسان حالها بصورة دائمة ومستمرة، (فيض الوجود وامتداته).

وليس هذا الطلب من ذات ممكن الوجود في حاله الحدوث فحسب، بل في البقاء أيضاً يكون محتاجاً إلى واجب الوجود وفي كل لحظة يطلب منه الوجود.

وقد ورد هذا المعنى بتعبير واحد تقريباً في تفسير (روح البیان) و(روح المعاني) حيث جاء فيهما «... قاطبة ما يحتاجون إليه في دوتهم ووجوداتهم حدوثاً وبقاءً وسائر أحوالهم

سؤالاً مستمراً بلسان العقال ولسان الحال ونهم كافة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتفرع عليه من الكمالات بالمرّة بحيث لو انقطع ما بينهم من العناية الإلهية من العلائق لم يشتموا راحة الوجود أصلاً فهم في كل أن مستمرّون على الاستدعاء والسؤال<sup>١</sup> من هنا يتضح أن اعتقاد البعض بأن السؤال يرتبط به (الرزق) أو (الرحمة الإلهية) أو (متطلبات الدين وادني) أو (العلم بعافيه العمل وصلاح النفس وفسادها) فقط لا دليل عليه وإن أدرجت في المفهوم الواسع للآية

8008

### توضيحات

#### ١ - برهان الوجود والإمكان من الناحية الفلسفية

وهو من البراهين القاطنة للفهم، حيث يمكن بلسان عامة الناس، وكذلك بواسطة التعبيرات والاصطلاحات الفلسفية الخاصة، وتعبير بسيط عندما نرجع إلى وجودنا بعد أن وجودنا برمته في حالة احتياج ولا يؤمن الاحتياج من الداخل، ومن أجل تأمين هذا الاحتياج يجب أن نمد الدنيا خارج وجودنا، وكما يقول المثل كلما ازداد العصى ازدادت الحاجة فكذلك تصاعفت قوة الإنسان في لظاهر (مادياً أو معنوياً) توسعت دائرة احتياجاته، فالطير في الصحراء يكتفي بقليل من الماء والحب وعش مؤلف من بعض الأوراق، في حين تحتاج حياة سلطان مقتدر إلى آلاف الحاجات، وهكذا لو فارما الحياة العلمية لمحقق كبير بالنسبة لطالب مبتدى..

ومن خلال ملاحظة هذا الاحتياج وبإلهام باطني يدرك الإنسان أن لهذا العالم مُبدئاً غنياً يتجه الجميع إليه ليل حوائجهم وهو الذي مطلق عليه (الله) تبارك وتعالى  
أما في العبارات الفلسفية وبحوث المتكلمين فإن الوجود يقسم إلى قسمين، (ممكن) و(واجب).

١. تفسير روح البیان، ج ٩، ص ٢٩٩؛ وتفسير روح المعاني، ج ٢٧، ص ٩٥

فواجب الوجود يكون وجوده ذاتياً، وداته لمعدسة غير محتاجة إطلاقاً، في حين لا يملك الممكن في ذاته شيئاً فهو محض.

وبهذا يُعد احتياج الممكن إلى العلة من نقصانيا لبدئية والأولية والتي لا تحتاج إلى إقامة البرهان، ومن يتردد في هذا الأمر فإنّ -نك يعود إلى عدم الهمم الجيد لمفهوم الممكن. ثمّ يُطرح هذا السؤال: ما هو سبب احتياج لممكن إلى العلة؟ هل السبب هو الوجود أو مسألة الحدوث؟ أي هل أنّ الأشياء تحتاج إلى العلة بسبب كونها حادثاً أو بسبب كونها موجودة؟ أو أنّ الملاك الأصل وهو (الإمكان)؟ وبناء على هذا الدليل فإنّ الإحتياج إلى العلة يجب أن لا يبحث في أصل وجود الشيء أو في حدوثه، بل إنّ العلة الأساسية هي الإمكان.

ولاريب في أنّ الإجابة الصحيحة والدقيقة هي الإجابة الثالثة، لأنّ إذا -بحسب ما معنى الإمكان وحدها أنّ الإحتياج إلى العلة متحقق فيه، لأنّ - (الممكن) وجود (غير اقتضائي) أي أنّ ذاته لا تقتضي الوجود ولا العدم.

وبملاحظة هذا الإسناء الذاتي يكون في وجوده وعديمه بحاجة إلى عامل ولذا فإنّ الفلاسفة يقولون بأنّ حاجة الممكن أوليه، «حاجة ممكن الوجود إلى العلة أمرٌ بديهي» ويُستنتج من ذلك أنّ حاجة الممكن إلى واجب الوجود لا تقتصر على ابتداء الوجود فحسب، بل هي ثابتة في مراحل البقاء كلّها، شئت لإمكان في حقّ الممكن دائماً لذا فإنّ الحاجة إلى العلة أمرٌ باقٍ وثابت.

وللمثال على ذلك فأنّا حينما نمسك بقلم ونحرّكه على فرطاس نجد أنّ حركة القلم تحتاج إلى محرّك من الخارج ويتمثل في أصابعنا، فما دامت الحركة في اليد والأصابع فإنّ القلم يتحرّك كذلك، ويتوقّف بتوقّفها.

وأوضح من ذلك ما يوجد في أفعال أرواحنا، فحينما نعزم على العمل ببرنامج ما نجد أنّ الإرادة والعزم -وهما من فعل الروح- يرتبطان بها ويختصمان حال انقطاع هذا الارتباط.

إنّنا مرتبطون بوجود الله كذلك وهذه الوجود الارتباطي لا يستقرّ لحظة واحدة بدون

ذلك.

ويقول الشاعر:

لم أسلم النفس للاستقام تبليها إلا لعلمي بأن الوصل يسحبها  
نفس المحب على الآلام صابرة لعل مسقمها يوماً يداويها  
قد يقال: إنا نشاهد البناء باقياً بعد موت بانيه فكيف إذن تستغني الأفعال عن الفاعل في بقائها؟

فنقول إن ذلك يحصل بسبب حدوث علّة محلّ علّة أخرى، فهي البداية تقوم بد البناء الماهر بوضع لبنة على لبنة أخرى ثم يبقى البناء مستقراً بفصل جاذبية الأرض وعوامل الالتصاق من جص وإسمنت

وباختصار، أن وجود (الممكن) وجود ارتباطي ولا يستمرّ دون الإنكال على وجود مستقل، وعليه فإن تعريف معنى الوجود الارتباطي كما في التعريف على الوجود المستقل دون الحاجة إلى بحث واسعة في «الدور والتسلسل» (تأمل جيداً) يُسبطن في مفهوم الوجود الارتباطي وينتهي معنى الإسناد إلى واجب الوجود فهل للوجود الارتباطي معنى دون الوجود المستقل؟



## ٢- برهان للغنى والفقر في الروايات الإسلامية

نقرأ في دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة - وهو من أعمق وأثرى الأدعية الواردة عن المعصومين: - خاصة في بحث التوحيد إذ يقول عليه السلام:

«كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفترق إليك؟ أكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو الظاهر لك؟»<sup>١</sup>

ونقرأ في موضع آخر من الدعاء نفسه:

«إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقرتي؟»

١. يستفاد من هذه الجملة في (برهان الصديقين) أيضاً، فبما فيها من بحثه إن شاء الله.

ويجد في حديث نبوي: «الفقر فخري وبه أفخر»<sup>١</sup>

إن أحد التفسيرات المعروفة لهذه الرواية هو الشعور بالفقر الذاتي تجاه الله سبحانه وهو الداعي إلى الفخر، وليس الفقر هنا بمعنى ضيق المعيشة والافتقار إلى المخلوق وهو ممّا تذمّه الروايات، كالحديث الذي ينصّ:

«كاد الفقر أن يكون كفراً»<sup>٢</sup>.

ولذا قرأ عنه عليه السلام في حديث آخر: «اللهم أغني بالافتقار إليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك»<sup>٣</sup>.

كانت قلبي أهواء مفرغة فستجمعت إذ رأتك العين أهوائي  
تركّت للناس دنياهم ودينهم شغلاً بذكرك يناديني ودنياي

❦❦❦

١ بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٥٥: وخسر روح البيان، ج ٧، ص ٣٣٤

٢ بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٣٠

٣ سفينة البحار، ج ٢، ص ٢٧٨ وخسر روح البيان، ج ٧، ص ٣٣٤



## ٤ - برهان العلة والمعلول

تمهيد:

لا شك أن العالم الذي نعيش فيه يشتمل على مجموعة من العلل والمعلولات، والعلة هي من أوضح القوانين في هذا العالم.

كما لا شك في أننا والأرض التي نعيش عليها لم يكن موجودين بصورة دائمة بل أننا معلولون لعلة أخرى، فهل لهذه السلسلة من العلل والمعلولات أن تستمر بلا نهاية ونبقى في حاله بسلسل؟ وبعبارة أخرى أتكون كل علة معلولة لعلة أخرى ولا ينتهي في موضع ما؟ إنها قضية لا يتقبلها أي وجدان، فكيف يمكن لأصفار موضع جيباً إلى جيب وإلى ما لا نهاية من أن تكون رقماً ما؟ (المقصود من الصفر هو الوجود الذي لا وجود له من ذاته بل وجوده مكتسب من علته)، وكيف يمكن أن يصطف فقراء - والمعمورون إلى ما لا نهاية ثم يحصل منهم وجود غني؟

يجب الإدعان - إذن - إلى أن هذه السلسلة من العلل والمعلولات تنتهي بوجود، وهذا الوجود هو علة غير معلول حيث ينبع الوجود من ذاته، وبتمهيد أدق هو عين الوجود اللامتناهي وواجب الوجود.

إنه أوضح دليل على إثبات الوجود الأبدى والأبدى لله سبحانه.  
والملاحظ أن الاستدلالات الأخرى لإثبات وجود الله تنتهي كذلك ببرهان (العلة والمعلول) ويدونه تكون ناقصة.

بعد هذا التمهيد نمن خاشعين في الآيات القرآنية التالية:

- ١- ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور / ٣٥)  
 ٢- ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ (الطور / ٣٦)  
 ٣- ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ شَيْخَانِ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الطور / ٤٣)

### شرح المفردات:

«خلقوا»: من (الخلق) ومعني في الأصل، «التقدير المباشر، وبما أن صُنع وإيجاد شيء غير موجود في الماضي، وليس له أصل ومادة يكون صُماً وإيجاداً بكل معنى الكلمة، لذا أُطلقت هذه المفردة على الإبداع والإيجاد.

كما تستعمل هذه الكلمة في عملية إيجاد شيء من شيء آخر نظيره

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْقَةٍ﴾ (الحل / ٤)

من البدن أي أن (الخلق) بمعنى (الإبداع والإيجاد) من العدم) محنص بالله، ولذا نفي هذه القدرة عن غيره حيث يقول تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتُ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الحل / ١٧)

في حين يصدق المعنى الثاني (وهو إيجاد شيء من شيء آخر والتقدير له)، على غير الله تعالى، باظرة إلى هذا المعنى. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون / ١٤)  
 وقد تستعمل هذه الكلمة بمعنى «الكذب بصبأ، ولعل ذلك لما يخلقه من أشياء لا واقع ولا وجود لها

وقد ذكروا (الخلق) أصليين في مقاييس بلغه/حدهما: التقدير، وثانيهما: الليونة والنعومة، ولذا يطلق على الصخرة المساء (لصخرة الحلقاء) كما يطلق فعل (خلق) على الأشياء القديمة حينما تكون ملساء نتيجة لتعاقب الأرمية عليها

أمّا (الأحلاق) والتي تعني الصفات والسحيا الإنسانية الثابتة فأنها مشتقة من المعنى الأول وهو التقدير (لأنها تحدد أبعاد الشخصية والروح الإنسانية وقدرها).



## جمع الآيات وتفسيرها

### لستجولب مجيبه!

لقد جاءت الآيات المذكورة أعلاه ضمن تسع آيات في سورة (الطور)، ووردت في نطاق ١١ سؤال على صورة الإستفهام الإستنكاري وهذه الآيات تضع الإنسان أمام مجموعة من الأسئلة المتسلسلة العجيبة ثم تسدّ عليه طريق الفرار كي يذعن للحقّ

وتتابع هذه الأسئلة الأحد عشر ثلاثة أهداف مهمّة هي: إثبات التوحيد، المعاد، ورسالة نبي الإسلام، غير أنّ الأساس فيها يتمحور حول توحيد الخالق المعبود.

الآية الأولى من الآيات الثلاث التي تقدّمت بقول: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴾

وبعبارة أخرى: إن كلّ إنسان لا شلّقه في شيء معلول وحادث ولا يصرّح من ثلاث حالات أمّا معلوق من دون علّة أو هو علّة وجوده نو أن علّته هو الوجود الأزلي والأبدي وهو الله سبحانه.

وبما أنّ الاحتمالين الأوّل والثاني لا يتولّقان مع العقل والوجدان فالاحتمال الثالث هو الثابت حتماً، ولذا ذكر الاحتمالين الأوّل والثاني بصيغة «لا إستفهام إستنكاري»، وحيثما يتفحص العقل والوجدان، يثبت الاحتمال الثالث لا محالة.

هذا جوهر الاستدلال الشهير بـ (لعلّه وللمعلول) حيث يعرض في جملتين قصيرتين ومركّزتين ذات معنى واسع.

وقد يبرز هنا احتمال رابع وهو أن يكون الإنسان معلولاً لعلّة أخرى وهذه العلّة معلولة لعلّة أخرى وهكذا تستمرّ هذه السلسلة إلى ما لا نهاية

وهذا الاحتمال يبرز لدى الفلاسفة عادة وليس لعامة الناس، ولعلّ الآية لم تذكره لهذا

السبب.

على أية حال فإنّ هذا الاحتمال واضح لبطلان أيضاً، لاستحالة (تسلسل العلل والمعلولات) منطقياً ووجداناً، وسيأتي إيضاح ذلك بإذن الله.

وقد ذكر الكثير من المفسرين تفسيرات أخرى للآية، ترتبط بصورة أساسية بالهدف من الخلق وإن كانت بعبارات مختلفة وتفسيرات متعددة، حيث يقولون بأنّ المراد هو أنّ البشر لم يخلقوا دونما تكليف وأمر وبهي وثواب وعقاب، ويعتبرونها بطير قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾<sup>١</sup>.

ولكن بملاحظة ذيل الآية يصحّح هذا لإحتمال تعاماً لأنّه تعالى يقول: ﴿أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾، وهذا التعبير يدلّ على أنّ الجملة لأولى ناظرة إلى سبب الحلقة وعلة ظهور الإنسان لا العاية من حلقة، وبعبارة أخرى أنّ الآية تلاحظ العلة الفاعلة لا الغائية



الآية الثانية تُشير إلى خلق السماوات وتعيد استدلال العلة والمعلول هذا في مورد خلق السماوات والأرض وتقول: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾<sup>٢</sup> ويعني هذا أنّ السماوات والأرض حادثتان دون شكّ لتعرضها إلى الحوادث باستمرار وحدوث أنواع التغيرات عليها وكلّ شيء معرض للتغيير لا يمكن أن يكون أزلها في هذه الحالة يجرى السؤال عن خالق السماوات والأرض فهل هي خلقت نفسها؟ أو لا خالق لها أبداً وقد وجدت صدفة؟ أم أنّ حانقها هو إبشر؟ وبما أنّ الإجابة عن هذه الأسئلة بالنفي، يعلم أنّ لها حانقاً ليس مخلوقاً بل هو أزلي أبدي والملاحظ أنّ من بين هذه الاحتمالات يتوجّه الاستهزام الإنكاري إلى احتمال حانقية الإنسان للسماوات والأرضين فقط، وذلك لأنّ احتمالات الأخرى وردت في الآيات السابقة، وعدم التكرار هو مقتضى الفصاحة وسلاسة.

١. تفسير مجمع البيان؛ تفسير الكبير؛ تفسير القرطبي؛ تفسير الميراث؛ تفسير روح المعاني وتفسير روح البيان؛ حيث ذكروا هذا المعنى كحصى رئيس في الآية أو كاحتمال.

من هنا فإن الآيتين أعلاه أقامتا برهان العلة والمعلول في الآفاق والأنفس، وعليه فإن الآية الثانية تشهد كذلك على أن الحديث يدور حول العلة الفاعلية لا الغائية.

في الحتام تشير هذه الآية إلى هذه الحقيقة وهي أن القضايا في هذا الصدد واضحة، ولكن العيب هو أنهم لا يستعدون للإيمان واليقين: ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾.

أجل، إن الحق يتن، بيد أنهم معاندون وأعداء للحق.

وفي الحقيقة فإن هذه الجملة تشابه ما ورد في قوله تعالى:

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ ذَاتِ آبَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. (الحاثية / ٤)

أو تشابه ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾. (الداريات / ٢٠)

وواضح أن أولئك لو كانوا من الموقنين لم يحتاجوا إلى الآيات، وعليه فإن الحديث

يدور حول الذين لا يقين لديهم ولكنهم على استعداد لقبوله.

ودهب جمع من المسترين إلى أن المقصود هو أن أولئك لا يقولون بأنهم حلفوا،

السموات والأرض، بل يعتقدون بأن الله هو الخالق سطر ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ

سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾. (لقمان / ٢٥)

بيد أن هذا التفسير يبدو بعيداً

والأصح من هذا الاحتمال هو ما يقوله الذين يعتقدون أن معنى الآية هو: «أنهم لا يقين

لهم بما يقولون وهو أن الله خالق السماوات والأرض» وهو اليقين الذي يدعوههم إلى

العبودية والطاعة.

ويتضح خطأ هذا التفسير من أن آيات هذه لم تطرح قضية خلق الله للسماوات

والأرض، فكيف يمكن أن تكون هذه الجملة إشارة إليها؟<sup>١</sup>

وأخيراً نقول الآية الثالثة كاستنتاج دون ذكر للاستدلال. ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ

اللَّهِ عَمَّا يَشْرِكُونَ﴾.

١. أقر الزمخشري هذا التفسير في الكشاف وقد احتمله الفهر الرازي في الكبير وجمع آخر من المعشرين.

٢. جاءت عبارة ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ في المنكوت، ٦١: الزمر، ١٣٨.

الزمر ٩ و ٨٧ لقمان، ٢٥

إنه في الحقيقة استدلال على توحيد المعبود، أي عندما يكون هو الخالق للعالم فإنَّ العبادة يجب أن تقتصر عليه أيضاً لا على غيره، كالأصنام والشمس والقمر والنجوم وغيرها

وكما أسلفنا فإنَّ هناك سبعة أسئلة أخرى إضافة إلى هذه الأسئلة الثلاثة الواردة على صورة الاستفهام الإنكاري في آيات ثلاث ترتبط بقصة النبوة وأمور أخرى لا حاجة لذكرها في هذا البحث التوحيدي<sup>١</sup>



## توضيحات

### ١- برهان العلّة والمعلول في الفلسفة والكلام

يعدُّ هذا البرهان من أقدم وأشهر الاستدلالات على إثبات وجود الله ابتداءً من فلاسفة اليونان القدماء ومنهم أرسطو الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد وحتى يومنا هذا حيث كانوا يستندون إليه، وكما أشرنا من قبل فإنَّ أغلب الأدلة على التوحيد تعترض غير تامة إذا لم تستند إلى برهان العلّية.

ولكي نتوضّع قواعد هذا الاستدلال، ينبغي ملاحظة عدّة أمور

#### ١- تعريف أصل العلّية

(العلّية) هي العلاقة الوجودية بين شيئين بشكل يكون أحدهما تبعاً للآخر، ومن يرى أنَّ علاقة العلّية عبارة عن ظهور حادثين على اتّعاقب فإنَّ هذا التعريف يكون ناقصاً، فصحيح أنَّ المعلول يحدث بعد علّته ولكن ذلك لا يكفي لتوضيح مفهوم العلّية، بل لا بدَّ أن يكون هذا الأمر ناشئاً من العلاقة بينهما ومن تبعية الوجود الثاني إلى الوجود الأوّل

١ للمزيد من الإيضاح راجع التفسير الأمثل ديل الآية ٣٥ من سورة الطور

## ٢- شمولية قانون العلية وسعة تطبيقها

طبقاً لما يقوله بعض المحققين، كان قانون العلة والمعلول أول قضية شغلت الفكر البشري من بين القضايا الفلسفية ماصياً وحاصراً ودفعت البشر للتفكير من أجل اكتشاف أبعاد الوجود، وأهم دافع للتفكير لدى الإنسان الذي يمتلك القدرة على التفكير هو فهم قانون (العلة والمعلول العام) الذي يشتمل أن نكل حادثة علة وهو السبب في تبادل مفهوم (لماذا) في ذهن البشري، ولو لم يتعرف اندهن البشري على مفهوم العلة والمعلول العام ولم يدع لقانون العلة لم يكن ليحظر في ذهنه مفهوم (لماذا)؟<sup>١</sup>

هذه الـ (لماذا) هي الأساس لكل العلوم وأفكار البشرية والتي دفعت الإنسان للبحث عن الحدود وال نتائج لهذا العالم وحوادثه المختلفة.

وبعبارة أخرى: إن جميع العلوم البشرية هي كاس لقانون العلية، ولو سلب هذا القانون من البشر فإن هذه العلوم سوف تفقد كل محتوياتها وكذلك لو فقدنا قانون (العلية) فإن (الفلسفة) أيضاً سوف تزعزع بكل فروعها، وعليه فإن العلوم والأفكار والفلسفة مبنية على هذا القانون.

## ٣- جذور معرفة قانون العلية

كيف توصل الإنسان إلى قانون العلية؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بد أن نرجع إلى الوراثة نستقرئ حياتنا في الصغر، عندما يوضح عقل الإنسان وتكتمل قابلية التمييز لديه، فاطفل عندما يمد يده إلى النار فيحس بألم الاحتراق، وعندما يعيد هذا العمل ويتكرر الإحساس نفسه يتيقن شيئاً قسئاً بوجود علاقة بين أمرين (مس النار والشعور بألم الاحتراق).

وهكذا حينما يحس بالعطش ويشرب نماء فإنه يشعر بالراحة وروال العطش ويتكرر هذا العمل حتى يتيقن بوجود علاقة بين العطش وشرب الماء، وعندما تتكرر هذه التجارب

١ أصول الفلسفة، ج ٣، ص ١٧٥ (اقتباس واحصار)

في محالات كثيرة وموضوعات مختلفة يتفق بأن لكل حادثة علّة وبهذا يكتشف قانون العلّية بشكله العادي البسيط، ويتقدم عمره وبوسطه النحارب التي يمرّ بها سواء على صعيد الحياة الاعتيادية أو على صعيد العلوم والأفكار سيدرك سعة هذا القانون وقوّته أكثر فأكثر (كما يصل إلى هذا المبدأ وهو أن لكل حادثة علّة عن طريق الفلسفة)

نحن لا نقول بأنّ عاقب حادثين يعني العلّة بل نقول إنّ القصيّة لا بدّ من تكرارها حتّى يتّضح وجود علاقة بينهما، وأنّ الثاني تابع للأول.

والظاهر أنّ القائلين، إنّ قانون العلّية حاصع للتجربة، يذهبون إلى أنّ الإنسان يتوصّل إلى الجذور والأصول عن طريق التجربة والحسّ ومن ثمّ يكتشف علاقة العلّية من خلال (التحليل العقلي)، وهو في الحقيقة يتوصّل إلى مقدّمة من خلال (الحسّ) وأخرى من خلال (العقل) وذلك لأنّ القوانين الكلّية توجد في العقل بصورة بديهية، ودور الحسّ هو إدراك الموضوعات المتفرقة ثمّ يقوم العقل بجمعها لتتوصّل إلى الساتح.

ومنصّور البعض أنّ مبدأ العلّية - هو عبارة عن علم حصولي - يستحصل من العلم الحضورى (النفس) بالنسبة إلى (أفعال النفس).

وفي توضيح كلامهم هذا يقولون أنّ الروح الإنسية تحسّ بأمور في أعماقها تابعة لها وفائمه بها كالتصوّر والأفكار والإرادات والقرارات، هذه كلّها أفعال الروح الإنسية ومعلولة لها، ومن خلال العلاقة بين هذه الأفعال والروح يمكن أن يكتشف قانون العلّية، ثمّ يستندون في ذلك إلى قول لابن سينا حيث يقول «فإنّ ما لم يثبت وجود الأسباب لمسيّبات من الأمور بإثبات أنّ لوجودها تعلّقاً بما ينعقد فيها في الوجود، لم يلزم عند العقل وجود السبب المطلق، وأنّ ههنا سبباً ما، وأمّا الحسّ فلا يؤدّي إلّا إلى العوافة وليس إذا توافى شيان وجب أن يكون أحدهما سبباً للآخر

ولا شك في أنّ هذا خطأ كبير ومن المستبعد أن يقصد ابن سينا هذا المعنى لأنّ هذه التحليلات بشأن الروح وأفعالها هي من اختصاص الفلاسفة لا عموم الناس، في حين أنّ

عامة الناس يعرفون قانون العلية حتى الأطفال منهم، ولا شك في أن ذلك حصل لهم من خلال التجارب الخارجية والحسية كما أسلفنا، غير أن العقل ما لم يحلّل هذه التجارب وما لم يجعل من القضايا الجزئية أمراً عاماً، فنحن لا ندرك (قانون العلية)، وعليه فإن الأساس في معرفة هذا القانون هو التحربة إضافة إلى العقل، ولعل ابن سينا يقصد ذلك ولا يمكن قبول غيره، بيد أننا لا ننكر أن الفلاسفة والعلماء يسهل عليهم معرفة العلية من خلال الأفعال النفسية كما يمكن ذلك عن طريق الحس.

كما أن ثمة طريق استدلال واضح يوصل إلى هذا الأمر، وهو أننا لو أنكرنا قانون العلية وجب أن لا يكون شيء شرطاً لشيء، وسوف يشأ كل شيء من أي شيء، بل يجب رفض مباحج الاستدلالات العقلية أيضاً، ولوصول إلى نتيجة منطقية مثلاً - يجب أن لا يستعبد من أدلة خاصة، بل إننا نصل من كل مقدمة إلى أية نتيجة نتوخاها، وهذا ما لا يتقبله أي عاقل قطعاً.

يسمى إذن أن تدعى بعلاقة العلية في الخارج وفي الأمور العقلية.

#### ٤- أقسام العلة

العلة لها مفهوم واسع وأقسام عديدة:

العلة التامة وتعني أن الشيء إذا وجد فإن معلوله سوف يوجد مباشرة

والعلة الناقصة وتعني أن الشيء يحتاج - في وصوله إلى المعلوم - انضمام أمور أخرى،

كما تقسم العلة إلى (العلة الفاعلية) و(الغائية) و(المادية) و(الصورية) وهذه تقسيمات

مشهورة يمكن إيضاحها بمثال بسيط.

لو لاحظنا ملابسنا التي نرتديها نوجدنا نكي توحيد يجب توفر المادة (كالقطن

والصوف) ثم تحويلها إلى قماش مناسب ثم تباشرها يد الخياط لخياطتها، ومن الأكيد أن

الخياط يصنع اللباس لهدف خاص وهو الإنتعاع منه.

تعتبر المادة الأصلية هي (العلة المادية) والصورة التي أعطيت لها هي (العلة الصورية)

والذي جعلها على صورته اللباس هو (العلة المعلية) والدافع لهذا الشيء هو (العلة الغائية).  
ومن المعلوم أننا استندنا في برهان (العلة والمعلول) الذي ستابعه إلى العلة القاعلية  
وخاصة العلة التامة



## ٢- إيضاح برهان العلية

بعد اتصاح هذه المقدمات نرجع إلى أصل برهان العلية.  
إن برهان العلة والمعلول في الحقيقة مبني على أساسين هما:  
١- أن العالم الذي نعيش فيه (حادث) و(ممكن الوجود).  
٢- كل موجود حادث وممكن الوجود يجب أن يستهي إلى واجب الوجود، وبعبارة  
أخرى يجب أن تستهي الوجودات الإرتباطية إلى الوجود المستقل  
وقد تكلمنا بما فيه الكفاية عن المقدمة الأولى وهي حدوث العالم، يبقى أن نشيب الآن  
المقدمة الثانية:

إنها قضية واضحة وحتى الساذجون والمسكرون لوجود الله يقرّون بها، بيد أنهم يقولون: إن  
(المادة) لها وجود أزلي وأبدي ومستقل بالذات، لكن هذا الكلام باطل استناداً إلى الأدلة  
التي تثبت استحالة أرلية المادة وأبديتها وقد شُرنا إلى ذلك.  
ولتوضيح هذه المقدمة من المناسب أن نقول مع الإقرار بأن العالم حادث فسنواجه  
خمسة افتراضات لا سادس لها:

فإما أن يوجد العالم بدون علة، أو أن يكون هو علة لوجوده، أو أن يكون معلوله علة له،  
أو أن يكون العالم معلولاً لعلة وهي معلولة لعلة أخرى وهكذا إلى ما لا نهاية.  
أو أن نقرّ بأن كل هذه الموجودات الحادثة مستندة إلى موجود أزلي أبدي فوق المادة،  
وهذه السلسلة من العلل والمعلولات تنتهي أخيراً إلى (واجب الوجود)

الفرضية الأولى: وهي حدوث العالم بدون علة وتسمى بفرضية (الصدفة) وهي فرضية



باطلة، لأن الحادث إن لم يحتاج إلى علة فإن كُن موجود يجب أن يوجد في كل زمان وأي ظرف، في حين نرى بوضوح أن الأمر ليس كذلك، حيث يحتاج كل حادث لحدوثه إلى توفر الشرائط والظروف الخاصة.

وهكذا بطلان الفرضية الثانية وهي (أن يكون الشيء نفسه علة لوجوده) يعتبر أمراً يديهاً، لأن العلة يجب أن تكون قبل المعلول ولو كان شيء علة لنفسه فلا بد أن يكون موجوداً قبل وجوده مما ينلزم اجتماع (الوجود) و(العدم) وهو ما يطلق عليه بالمصطلح العلمي (الدور).

وهكذا بالنسبة لبطلان الفرضية الثالثة، حيث يكون معلول الشيء علة لوجوده، وهو أمر واضح لا يحتاج إلى توضيح

وأما بطلان الفرضية الرابعة التي تعني استمرار سلسلة العلل والمعلولات إلى ما لا نهاية فإنه بحاجة إلى إيضاح (التمسلس) يعني استمرار سلسلة العلل والمعلولات إلى ما لا نهاية وهذا باطل عملاً لأن كل معلول يحتاج إلى علة، ولو استمررت هذه السلسلة إلى ما لا نهاية ولم ينه يواجب الوجود فإنه يعني أن مجموعة من ذوات الحاجة غير محتاجة، في حين أن ما لا نهاية من المقراء والمحتاجين محتاجون حتماً

فلو تراكمت ما لا نهاية من الطلماط لا تتحول إلى (بور)، وما لا نهاية من (الجهل) لا يكون (علماً)، وما لا نهاية من (الأصغار) لا يكون (رقماً)

لابد إذن من انتهاء سلسلة العلل والمعلولات إلى موجود يحتاج شيئاً آخر وجود مستقل وغني، وجوده من ذاته، وبعبارة أوضح أن يكون عين الوجود والوجود المطلق ومما ذكر نستنتج أن وجود الممكنات والحوادث في العالم لابد أن ينتهي بوجود واجب أزلي نسميه (الله) سبحانه وتعالى.



مرکز تحقیقات کتاب و اسناد اسلامی

## ٥ - برهان الصديقين

### تمهيد:

برهان الصديقين من أدلة إثبات وجود الله بالاستفادة من القرآن الكريم والروايات، والذي اهتم به العلماء والفلاسفة الإسلاميون، وكما يبدو من اسمه أنه ليس دليلاً عاماً بل يختص بالذين يحفظون بمعلومات وفهم أوسع في العقيدة والفلسفة، ولهم قسط وافر من الدوق ودقة الملاحظة

دليل يتصف بالتعقيد قليلاً وفي الوقت نفسه لطيف وحميل ومرتب للروح ومحور هذا الدليل اتساعه لأن دراسة المخلوق قدس من أحل معرفة الله، نتوجه للتدبر في ذاته المقدسة للوصول إلى ذاته، وكما يقتضيه الدعاء «يا من دل على ذاته بذاته» نتخذ منه تعالى طريقاً للوصول إليه، وكل ما في هذا برهان من تعقيد وظرافة ناشيء عن كيفية إمكان اتحاد الدليل والإدعاء.

القضية هي أن في هذا العالم وجوداً فبدر بتحليل أصل هذا الوجود ومن خلال تحليل دقيق يصل إلى أن أصل الوجود يجب أن يكون واحداً.

هذه إشارة سريعة ولو أنها غير كافية حيث سنتكلم عن ذلك بالتفصيل ونعود الآن إلى القرآن لنضمن خاشعين هي الآيات التالية:

١- ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت / ٥٣)

٢- ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

(آل عمران / ١٨) العزيز الحكيم﴾.

- ٣- ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (البروج / ٢٠)  
 ٥- ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد / ٣)  
 ٦- ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>١</sup> (النور / ٣٥)

### شرح المفردات:

«شهود»: مشتق من (شهود) وهو في الأصل - كما يقول الراغب في المفردات - بمعنى (الحضور المقرون بالمشاهدة) سواء كان ذلك بالعين الباصرة أو بعين القلب، وقد يعنى (الحضور) مجرداً عن مفهوم المشاهدة بيد أن استعمال (شهود) بمعنى الحضور، و(الشهادة) بمعنى الحضور المقرون بالمشاهدة أولى.

وقد وردت في (مقاييس اللغة) ثلاثة أصول في معنى (الشهادة) هي الحضور والعلم والإعلام للآخرين، وإطلاق (شهود) على من يقتل في طريقه هو لحضور ملائكة الرحمة عليه، أو بسبب حضوره في ساحة الجهاد، أو بسبب مشاهدته العم العظيمة التي أعدها الله له، أو بسبب حضوره بين يدي الله.

وقد جاء في كتاب العين أن (الشَّهَدَ) يعني (تعسل) قبل اسعراجه من الشمع وهو المعنى الذي اتخذه صاحب الكتاب الأصل لأول لهذه المادة، فهل يرى ذلك هو الأصل اللغوي؟ وفي هذه الحالة ما هو وجه العلاقة بين معنى؟ إنه لم يذكر توضيحاً لذلك<sup>٢</sup>.

(محيط) ومصدرها (الإحاطة) وتعني الضم واستعداد من بعض الكتب اللغوية بأن الإحاطة على نوعين:

١/ **إحاطة**: تكون في الأجسام ولذا يطلق على بناء المحيط بمكان (حائط).  
 ٢/ **وثنائهما**: (الإحاطة المعنوية) وتعني الحفظ والحراسة أو العلم والإطلاع على شيء ما وقد تستعمل هذه المفردة بمعنى الإمتناع من شيء، وكان الإنسان محاط من كل جهة

١. هناك آيات قرآنية أخرى تعمل نفس هذا المصنوع من جملة سورة الحج، ١٧ وسبأ، ٤٧ والمجادلة، ٦

والبروج، ٩ والنساء، ٦٢ والأحراب، ٥٥

٢. المفردات لسان العرب، مقاييس اللغة، كتاب العين.

لثلاً يصل إلى ذلك الشيء، وكلمة (الإحتياط) تستعمل في المجالات التي يحاول الإنسان فيها أن يعمل عملاً يصونه من الخطأ ولاشتباه والمعصية والمخالفة.  
وقد ورد في (مقاييس اللغة) أن لأصل في هذه المعردة هو من مادة (حوط) ويعني دوران شيء حول شيء آخر  
كما أن كلمة (محيط) يمكن أن تكون بمعنى الإحاطة الوجودية أو إحاطة القدرة والعلم<sup>١</sup>.

«نور» يعني الأشعة المنتشرة التي تعين "عين على لظفر وهو على نوعين مادي وهو النور الذي تبصره العيون المجردة، ومعوي وهو النور الذي تراه عين البصيرة كنور العقل ونور القرآن، وقد جاء إطلاق (بائرة) على الفقه وذلك لانتشارها وأساعها. والأقرب أن هذه المعردة تعني في أصلها نصياء المحسوس، ثم استعملت في الأمور المعنوية كالإيمان والعلم والعقل والعرفان حتى ذات الله المقدسة.  
«نار» هي من هذا الأصل أيضاً وهنئان في كثير من الموارد وكلمة (منارة) تعني الموضع المتخذ لإشعال الشموع، أو لأجل شربور المعنويات الذي يبيته (الأدان) إلى مختلف الجهات.  
«نور» ويطلق على براعم الأشجار وخاصة البيص منها لما فيها من نور خاص منذ ظهورها

### جمع الآيات وتفسيرها

#### القرآن وبرهان للصديقين<sup>٢</sup>

تقول الآية الأولى التي وردت في هذا بحث بعد الإشارة إلى آيات الافاق والأنفس

١. التحقيق في كلمات القرآن، المعردات، مقاييس اللغة، وسال العرب

٢ قال البعض: إن تسمية هذا البرهان بـ (برهان الصديقين) لأن صديق هو صيغة مبالغة ويعني كثير الصدق. صحيح أن الأدلة الأخرى التي أوردناها لإثبات وجود الله صادقة بيد أن هذا البرهان أشد صدقاً نظراً إلى أننا نص في البرهان من ذات الله سبحانه وتعالى إلى الله ولا نسح بغيره في هذا الطريق

الدالة على حقانية وجود الله سبحانه وتعالى ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. يمكن أن تكون كلمة (شاهد) هنا بمعنى لشاهد أو الحاضر والمراقب، أو تعني كلا المعنيين وذلك لصدقهما في الله سبحانه، والاية المذكورة أعلاه مطلقة من هذه الجهة. واستناداً إلى هذا التفسير يكفي لإثبات ذمه المقدسة أن يكون شاهداً وحاضراً في كل مكان، فكل موجود ممكن يجد إلى جانيه ذمت واجب الوجود، وحيثما نظرنا كان الوجود المطلق ظاهراً، وكل ما وقع عليه نظراً وجدنا وجهه فيه، وبحسب بعض العظماء لعظمته، وهو مصداق حديث أمير المؤمنين عليه السلام: «مَا رَأَيْتُ شَيْئاً إِلَّا وَرَأَيْتُ اللَّهَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَمَعَهُ»<sup>١</sup>. وفي تفسير الميزان أن (شاهد) تعني (مشهود) وبذلك يكون معنى الآية.

«أَوْ لَمْ يَكْفِ فِي تَبَيُّنِ الْحَقِّ كَوْنُ رَبِّكَ مُشْهُوداً عَلَى كُلِّ شَيْءٍ إِذْ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ فَهِيمٌ مِنْ حَمِيعِ جِهَانِهِ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقٌ بِهِ وَهُوَ بِعَالِي قَائِمٍ بِهِ قَاهِرٌ مَوْقِفُهُ هُوَ تَعَالَى مَعْلُومٌ لِكُلِّ شَيْءٍ وَبِهِ لَمْ يَعْرِفْهُ بَعْضُ الْأَشْيَاءِ»<sup>٢</sup>.

وسبحة هذا التفسير هو إثبات وجود الله من الآية أعلاه أيضاً، ولكن عن طريق برهان المعنى والعرف.

يقول الفخر الرازي «أولم تكفهم هذه لدلائل الكثيرة التي أوضحها الله تعالى وقررها، الدالة على التوحيد والتنزيه»<sup>٣</sup> (وعلى هذا فالاية باطنة إلى إثبات وجود الله عن طريق برهان النظم).

ويرى بعض المفسرين أن الآية باطنة إلى قضية إثبات المعاد حيث يقولون: «أولم يكف بربك أنه شاهد على كل شيء»، مما يفعله العبد وفي هذا كفاية لمحكمة يوم الجزاء»<sup>٤</sup>.

١ يعتقد الكثير من المفسرين بأن الباء في ﴿بِرَبِّكَ﴾ رائدة وتعيد التأكيد، وقد حذت (ربك) محل الفاعل، وجسمة ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هي بدل منه والجسمة تعني (أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد).

٢ تفسير الميراث، ج ١٧، ص ٤٠٥.

٣ تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ١٤٠.

٤ تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٨١٩.

ويعتقد البعض الآخر أن الآية ناظرة إلى حقانية القرآن الكريم، ونبوة الرسل، ويقولون: «أولم يكف ربك شاهداً أن القرآن من عند الله»<sup>١</sup>.

ويبدو أن التفاسير الثلاثة الأولى من بين تفسيرات خمسة هذه والتي ترى أن الآية ناظرة إلى قضية التوحيد وإثبات وجود الله هي أكثر صحة، ويبدو التفسير الأول منها أكثر انسجاماً مع معاني الألفاظ الواردة في الآية، وبذلك يكون شاهداً على (برهان الصديقي).

ونهي هذا الكلام بحديث معتبر للإمام الصادق عليه السلام

عن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني ما طرت قوماً فقلت لهم إن الله حلّ حلاله أجل وأعز وأكرم من أن يُعرف بحلقه بل العباد يُعرفون بالله، فقال: «رحمك الله»<sup>٢</sup>.

ومن الطبيعي أن هذا الكلام لا يتسامى أبداً مع استخدام برهان العظم وأدله التوحيد وعظمة الله في موحودات العالم، في الحقيقة، برهان العظم في مستوى، وهذا البرهان (برهان الصديقي) هو في مستوى أعلى وأرفع.

### بروز الشمس دليل عليها:

في الآية الثانية يدور الحديث حول شهادة لله سبحانه على وحدانيته ثم شهادة الملائكة والعلماء حيث تقول: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ». وتصيف: أن ذلك يكون مع قيام الله سبحانه بالعدل وإدرة العالم على محور العدل. «قَائِمًا بِالْقِسْطِ».

وبما أن القيام بالقسط والعدل يحتاج إلى أصلين هما القدرة والعلم لكي تتحدد موازين العدل والعلم أولاً وتطبق بالقدرة ثانياً، أصابت الآية في ذيلها: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

والمراد من شهادة الملائكة وأولو العلم و صح، ولكن ما هو المراد من شهادة الله؟ هناك خلاف بين المفسرين، حيث اعتقد البعض أن المراد هو الشهادة (الفعلية)

١ راجع تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٠.

٢ أصول الكافي، ج ١، ص ٨٦، باب الله لا يعرف إلا بدمج ٣.

و(القولية) أي أنه شهد على وحدانيته بعرض آيات عظمته في عالم الوجود وهي الافاق وفي الأنفس من جهة، وكذلك من خلال آيات التوحيد المازلة في الكتب السماوية من جهة أخرى.

في حين ذكر بعض المفسرين اشهادة القوية وحدها، وذكر بعض آخر الشهادة الفعلية، بيد أن مفهوم الآية يتصنّف - بالتأكيد - شهادة أعلى وأرفع من هذه، بل هي أهم مصداق للشهادة وهي أن ذاته شاهدة على ذاته كمصدق لما ورد: «يؤمن ذلك على ذاته بذاته» أنه سبحانه الفصل دليل على وجوده وهو الهدف الذي يقصده يرهان الصديقين.

ولا مانع من اجتماع المعاني الثلاثة (الشهادة الدانية والفعلية والقولية) في مفهوم الآية، وقد استنتج البعض من عبارة (فانما مانعاً) بأن آيات العدل والنظم والتقدير في عالم المخلوقات هي مصداق بين لشهادته سبحانه وتعالى على وحدانيته، وهو استدلال جيد (ولا صير في اتصال الملائكة عن (ولو العلم) كما يكسر تفسير الميراث إلى هذا المعنى)، كما لا يسمع من عمومية الآية وسعة مفهومها وشمول ما قلنا

وكما ذكرنا من قبل فإن القائم بالعدل يحتاج إلى العلم والقدرة، وهاتان الصفتان موجودتان في ذاته المعدسة واتصاف الباري - (العزيز الحكيم) في ديل الآية إشارة إلى هذا المعنى الدقيق



### إحاطة الوجود الإلهي:

الآية الثالثة - بعد الإشارة إلى الجيوش، الحرارة التي واحمت أنبياء الله وحاتبتهم وذكر نموذجين متميزين أحدهما في العصور القديمة وهم (قوم ثمود) وثانيهما في العصور المتأخرة وهم (قوم فرعون): ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾.

التعبير بـ (في) - ويستعمل عادة لبيان الطرف والمظروف - تعبير جميل وفيه إشارة إلى أن الكفار غارقون في تكذيب الحقائق، وانهم من الكفار هم الكفار المعاندون في عصر



النبي الأكرم ﷺ الذين كانوا يسكرون وحدث به الله سبحانه ونسوة رسول الإسلام ﷺ والمعاد كذلك، ولا يستبعد أن تشمل الآية هؤلاء جميعاً، لأن قوم فرعون وثمود الذين ذكروا من قبل كانوا كذلك، كما أن استعمال (تكذيب) على صورة بكرة والذي يدل في مثل هذه الحوادث على الأهمية والعظمة هو شاهد آخر على هذا المعنى.

ثم تقول الآية: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾

التعبير *برأيتهم* إشارة إلى أنهم محاطون من كل جهة، والله محيط من كل جهة وجانب، وقد وقع كلام بين المفسرين بشأن مراد من (الإحاطة الإلهية) حيث احتل البعض أنها إحاطة الله العلمية على أعمالهم، واعتقد البعض الآخر أنها إحاطة القدرة حيث الجميع في قبضته، وليس لهم القدرة على نكر من عقابه، وذهب البعض الآخر إلى أنها الإحاطة العلمية، وإحاطة القدرة معاً

سدا أن مفهوم الآية أوسع مما ذكر *حيث يشمل* إحاطته الوجودية أيضاً، نعم، لله تعالى إحاطة وجودية لجميع الممكنات، ولكائنات، وليس هذه الإحاطة - طبعاً - من قبيل إحاطة الظرف بالمظروف (كإحاطة الحائط بالبيت) وليست من قبيل إحاطة الكل بالجزء، بل هي (الإحاطة القيومية)، أي أنه سبحانه وجود مستقل وقائم بالذات والموجودات الأخرى قائمة به وتابعة له

وهذا المعنى يفتح الطريق أمام برهان الصديقيين في مسألة إثبات وجود الله، وسنقدم شرحاً لذلك في المستقبل.

### هو الأول والأخر:

تقول الآية الرابعة - وهي من الآيات الأولى من سورة الحديد وفيها ذكر لصفات الله سبحانه بشكل عميق وواسع - ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. إن هذه الصفات الخمس التي اجتمعت في الآية بيان حلي لداته المقدسة اللامتناهية.

هو **(الأول)** أي هو الأزلي دون أن تكون له بداية، وهو **(الآخر)** أي الأبدي الذي لا نهاية له، وهو **(الظاهر)** أي البين دون أن يكون خافياً على أحد، وهو **(الباطن)** أي أن ذاته ليست ظاهرة لأحد (لعدم قدرة الموجودات المحدودة كالإنسان على إدراك الحقيقة اللامتناهية) دون أن يكون محجوباً عن عباده.

ولذا فأنه سبحانه عالم بكل شيء لأنه موجود في لبداية، وسوف يبقى حتى النهاية وحاضر في ظاهر العالم وباطنه.

وهناك تفسيرات متعددة ذكرها المفسرون في تفسير الصفات الأربع **(الأول)** و**(الآخر)** و**(الظاهر)** و**(الباطن)** إلا أنها غير متنافية ويمكن جمعها في مفهوم الآية.

فتارة قالوا: إنه الأول قبل وجود أي شيء وهو الآخر بعد هلاك كل شيء، ودلائل وجوده ظاهرة ولا يمكن إدراك باطن ذاته.

وتارة قالوا هو الأول ببره حيث هدانا، والآخر بمعقوه حيث يقبل التوبة، والظاهر بإحسانه ونعمته عند طاعته والباطن في ستر محبوب العباد عند المعصية (الأول ببره إذا هدانا والآخر بمعقوه إذا قبل توبتنا، والظاهر بإحسانه ونعمته إذا أطعناه، والباطن بستره إذا عصيته) <sup>١</sup> وقد ورد أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: **«اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»** <sup>٢</sup>.

على أية حال، فإن الآية الكريمة أعلاه، في عين إثباتها بطلان أفكار الصوفية في استقلالية الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق فإنها تبين حقيقة وهي أن الذات الإلهية المقدسة مطلقة ولا نهاية ولا حدود لها

أي هو وجود بلا عدم، ولو أننا تدبرنا حقيقة وجوده حيثاً ونرهناء من عدم فسوف نصل إلى ذاته المقدسة، وهذا جوهر برهان الصديقين وروحه

١. راجع تفاسير مجمع البيان، الميران، الكبير، روح البيان.

٢. تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٤٠٦.

ومن البديهي أنَّ الموجود المحدود يكون موضعه إما في البداية أو النهاية، وإما في ظاهر الأشياء أو باطنها، واتَّصاف الله سبحانه بأنَّه لأوَّل والآخِر والظاهر والباطن هو لكونه وجوداً غير متناه ولا محدود.

### هو نور العالم:

في الآية الخامسة والأخيرة نقرأ في جملة قصيرة وعزيرة المعنى  
﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾.

ويعقَّب هذه العبارة تشبيه جميل وجذاب بهذا النور الإلهي يشكِّل ميداناً واسعاً لبحوث المفسرين الأعلام للقرآن، وبما أنَّ لشاهد في هذا البحث هو العبارة الأولى، هيَّأنا شرع بتبائها وشرحها.

من الطرق الهامة في تفهيم الحقائق المعقَّدة هو استعمال التشبيهات البليغة بعبارة تقريب الحقائق العلمية إلى الدهن بصرب الأمثلة الحسية، وهذا قد استعد من هذه الطريقة (وإن كانت الأمثلة بشأن الله تعالى ناقصة لعدم وجود مثيل لذاته) ولإدراك حقيقة هذا المثال لابدَّ من التدبُّر في معنى النور وصفاته وخصائصه وبركاته، ولا ريب في أنَّ النور من أجمل الموجودات المادية والطفها وأكثرها بركة، وتشر منه البركات والجمال في عالم المادة. فنور الشمس منبع الحياة والسرَّ في بقاء الموجودات الحيَّة والعنصر العاغل في نمو النباتات والزهور وجميع الأحياء.

النور هو المصدر الأساس للطاقات، خير حركة الرياح، وهطول الأمطار، والمصدر الأساس في وجود المحروقات (البنزول وانفجهم المحجري) ولو تبدَّل نور الشمس إلى ظلام فسوف تتوقَّف كلُّ حركة في العالم.

والنور واسطة لمشاهدة الموجودات المحتنفة ولمظهر لها، هذا وإنَّ حركة الأمواج والذرات الضوئية هي أسرع الحركات المتصورة في عالم المادة، حيث تبلغ سرعتها (٣٠٠ ألف كم) في الثانية، وهذا يعني أنَّ النور في طرفه عين يدور حول الأرض سبع مرَّات.

وأخيراً فإنَّ نور الشمس أفضل عامل على تطييف البيئة والقضاء على مختلف أنواع الجراثيم الضارّة وإزالة الموانع عن طريق الحياة البشرية، وبملاحظة هذه الخصائص التي يتّصف بها النور المحسوس يتّضح عمق تشبيه دات الله المقدّسة بالنور.

نعم، إنّ وجوده تعالى هو النور الذي يظهر الوجودات ويحفظها، ومنه تنبع الحياة المعنوية والمادية، ويصدر كلّ جمال في انعم، وكلّ حركة نحو الكمال تتبع من وجوده المقدّس، وكلّ هداية تتحقّق برعايته

وهو الذي يرفع الموانع عن طريق عباده، وهو الهادي للإنسان في طريق الكمال والقرب لداته، وبكلمة واحدة كلّ ما في العالم قائم بداته المقدّسة

وهناك سؤال يطرح نفسه وهو هل النور الذي يظهر الأشياء يحتاج إلى مطهر؟ وهل الموجودات التي يظهرها النور تكون أكثر ظهوراً من النور نفسه لتكون معرفة له؟  
وبتعبير أدق، ما هي الوسيلة التي يمكن مشاهدتها سور بها غير النور نفسه؟ وهذا هو الأساس في برهان الصديقين

وقد ذكر المعسّرون عدّة احتمالات في تفسير هذه الآية لا تماهي بينها، بطير الموارد الكثيرة الأخرى، ويمكن الجمع بينها، أي أن كلّ معسر منهم لاحظ - في الحقيقة - الآية من زاوية معيَّنة.

وقد قال الكثير بأنّ حملة «الله نور السماوات والأرض» تعني (المسور للسموات والأرض).

وقد فسرها البعض الآخر بـ (الهادي لمن في سموات والأرض) تبعاً للرواية التي وردت عن الإمام الرضا عليه السلام في هذا الشأن حيث قال

«هادٍ لأهل الأرض» أو «هادٍ لأهل السماوات وهادٍ لأهل الأرض».

وفسرها البعض الآخر بمعنى الظاهر المرء من كلّ عيب في جميع السماوات والأرض. وفسرها آخرون بمعنى المدير لشؤون السموات والأرض.

وُفُسِّرَت بمعنى الإضاءة بواسطة شمس وقمر وسحوم، وبواسطة الأنبياء والملائكة والعلماء والمفكرين.

وُفُسِّرَها بمعنى المعنى السطّام للعالم العلوي والسفلي

وُفُسِّرَت بمعنى المفيض بالجمال على الكونين.

وُفُسِّرَت بمعنى خالق السماوات والأرض.

وكما أسلفنا فإن هذه المعاني موجودة في الآية الكريمة: «الله نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

بل إن الآية تنطق بما هو أعلى وأوسع، حيث إن النور نير ذاتاً وهو الدليل على وجوده ولا

يحتاج إلى مظهر آخر، لأن الآخرين ظاهرون بأجمعهم ببركته وكما قال العرفاء:

«كفى بك جهلاً بأن تهجر الشمس الساطعة وتبحث في الوديان بؤر النجم، واعلم بأن

الكون طراً من شعاع الحق».



### توضيحات

#### ١ - برهان الصديقين في الروايات الإسلامية والأدعية

هناك طريق آخر لمعرفة ذات الله المقدسة فصر وُتَقِّم من البحث في موجودات العالم.

وهو معرفة الذات المقدسة بداتها، أي الوصول منه إليه، وقد ورد هذا المضمون بشكل واسع

في الروايات الإسلامية وأدعية المعصومين ويشكل هذا المضمون جوهر برهان الصديقين.

ولا نقول أن لا يمكن التعرف على ذاته عن طريق الموجودات في العالم، كما لا نقول

بأن آيات (الآفاق والأنفس) ليست علائم على علمه وقدرته وعظمته فإن هذا المعنى جلي

في القرآن كله، ولكن نقول إن ثمة طريق أرقى وأعلى وألطف وهو البحث في أصل الوجود

والوصول إليه عن طريق ذاته المقدسة، وهذا طريق هو طريق الخواص والعرفاء الحقيقيين

غالباً، فمثلاً

١ - نقرأ في دعاء الصباح الشهير «يا من دلّ على ذاته بذاته وتشرّعه من مجانسة

مخلوقاته».

- ٢- ونقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي المعروف: «بك عرفتك وأنت دلتني عليك».
- ٣- وقد ورد في دعاء عرفة أيضاً «كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده معتبر إليك،  
أليكون تغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو الشّهر لك؟»<sup>١</sup>
- ٤- وورد في الدعاء نفسه «متى غبت - حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك، ومتى بعدت -  
حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً».
- ٥- وقد ورد في حديث أن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام وإسمه منصور بن حارم  
قال له إني دخلت في مناظرة - مع جماعة وقت لهم: «إن الله أجل وأكرم من أن يُعرف  
بخلقه بل العباد يعرفون بالله»، فقال له الإمام الصادق عليه السلام مصداقاً لآية: «رحمك الله»<sup>٢</sup>
- ٦- وقد ورد في حديث عن الإمام أمير المؤمنين قوله: «اعرفوا الله بالله، والرسول  
بالرسالة، وأولي الأمر بالأمر بالمعروف والعادل والإحسان»<sup>٣</sup>
- ٧- وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام حينما سأله أحدهم: بم عرفت ربك؟  
فأجاب: «بما عرفتني نفسه»<sup>٤</sup>
- أجل، إنه معرّف ذاته (شروق الشمس دليل على الشمس) وذاته المقدسة دليل ذاته دون  
الحاجة إلى معرف، وخفاؤه على البعض بسبب شدة ظهوره، كالنور الذي لا يقدر الإنسان  
على النظر إليه لو تجاوز حدّه، وكما قيل:
- نور وجهك الحاحب عن ظهورك

❦❦❦

## ٢- إيضاح برهان الصديقين

من المناسب أن نفصل هذا البرهان كما يراه فلاسفة الإسلاميون، وبسبب تعقيد البحث

١ أصول الكافي، ج ١، ص ٨٦ باب أنه لا يعرف إلا به، ح ٣

٢ المصدر السابق، ص ٨٥ باب أنه لا يعرف إلا به، ح ١.

٣ المصدر السابق، ح ٢.

فإنما سوف نبينه قدر الإمكان بتعابير واضحة دون استعمال الإصطلاحات الفلسفية. ويجب الانتباه قبل كل شيء إلى أن مزب برهان الصديقيين تتمثل في عدم التطرق إلى الدور والتسلسل أو معرفة المؤثر من خلال لأثر، ومن المخلوق إلى الخالق، ومن الممكن إلى الواجب في إثبات وجود الله، بل هو تحيين للوجود نفسه وحقيقة الوجود، وبذلك نصل إليه من خلال ذاته، وهذا هو المهم (وإن لوحظ وجود خلط في عبارات البعض بمن هذا الاستدلال واستدلال الوجوب والإمكان وبرهان العلّة والمعلول - كما بيناه في السابق - ووضعوا بعضها موضع البعض الآخر).<sup>١</sup>

وقد ذكرت تعاريف مختلفة لبرهان الصديقيين منها: (تقدير صدر المتألهين في الأسفار، ثم المحقق السيروري في حاشية الأسفار، ثم المرحوم العلامة الطباطبائي في نهاية الحكمة وغيرهم في كتب أخرى)، والبيان لأوضح والأنسب دون الرجوع إلى استعمال برهان الوجوب والإمكان، والعلّة والمعلول وبدون الاستناد إلى مسألة الدور والتسلسل أن يقال

إن حقيقة الوجود هي (الحيية) في الخارج، وتعبير آخر هي (الواقعية) وعدم قبول عدم، لأن كل شيء لا يتقبل ضده، وبما أن (عدم) ضد (الوجود) فحقيقة الوجود - إذن - ترفض عدم.

ومن هنا نستنتج أن (الوجود) دأنا هو (واجب الوجود) أي أزلي أبدي، وتعبير آخر إن التدبر في حقيقة (الوجود) يرشدنا إلى أن (عدم) لا ينفذ إليه أبداً، وكل ما لا يطاله عدم فإنه واجب الوجود (فتأمل جيداً).

وأما صدر المتألهين - وهو من السابقين إلى هذا الاستدلال - فيقول: «واعلم أن الطرق إلى الله كثيرة لأنه ذو فضائل وجهات كثيرة، ولكل وجهة هو موجهها» لكن بعضها أوثق وأشرف وأنور من بعض، وأشد البراهين وأشرفها إليه هو الذي لا يكون في الوسط في البرهان غيره بالحقيقة، فيكون الطريق إلى المقصود هو عين المقصود وهو سبيل

١ راجع نهاية الحكمة، ص ٢٦٨، وشرح مختصر المنظومة ص ٨ و ٩ للشهيد المظهر.

(الصدقين) الذين يستشهدون به (تعالى) عليه، ثم يستشهدون بداته على صفاته وبصفاته على أفعاله، واحداً بعد واحد، وغير هؤلاء (كالمستكلمين، والطبيين وغيرهم) يتوسلون إلى معرفته (تعالى) وصفاته بواسطة اعتبار أمر آخر غيره (كالإمكان للمهية، والحدوث للمخلق، والحركة للجسم، أو غير ذلك) وهي أيضاً دلائل على ذاته، وشواهد على صفاته، لكن هذا المذهب أحكم وأشرف.

وقد أشير في الكتاب الإلهي إلى تلك الطرق بقوله (تعالى): ﴿سَخَّرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ وإلى هذه الطريقة بقوله (تعالى) ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ثم يصيب وذلك لأن الربانيين يطرون إلى الوجود، ويحققونه ويعلمون أنه أصل كل شيء، ثم يصلون بالطرق إليه إلى أنه بحسب أصل حقيقته واجب الوجود، وأما الإمكان والحاجة والمعلولية وغير ذلك فإنما تلحقه لا لأجل حقيقة بها هي حقيقته، بل لأجل نقائص وأعدام خارجة عن أصل حقيقته.

وباختصار عند ملاحظة الوجود الحقيقي نجد أنه لا يجمع مع العدم أبداً، ولا يسمع للعدم أن يتطرق إليه وذلك لأن الوجود والعدم متقابلان، وهكذا إذا لاحظنا العدم فإنما نجده يطرده الوجود عن ذاته، وعليه فإن حقيقة الوجود واجبة الوجود، والعدم ممنوع الوجود.

والإشكال المهم الذي يتبادر إلى اندهى وندي بادر صدر المتألهين للإجابة عنه في الأسفار هو أن كل موجود - وفق هذا الاستدلال - يجب أن يكون واجب الوجود، لأن هذا الاستدلال يجري في كل مورد في حين يرى أن للممكنات حادثة وليست أزلية ولا أبدية ولا واجبة الوجود.

الإجابة: لا بد من الإلتفات إلى هذه النقطة وهي أن الوجودات الممكنة ليست وجودات أصيلة، بل هي وجودات محدودة ومصحوبة بعدم وهذا العدم ناشيء من محدوديتها، وما

١. راجع الأسفار، ج ١، ص ١٥ (تلخيص يسير)، كما ورد نظير هذا اللفظ في حاشية الأسفار للمحقق

السيرواري، ج ٨، ص ١٤



يقال. إنَّ الوجودات الممكنة تتركَّب من شيئين فأنَّه يعني أنَّ الوجودات الممكنة فيها نوع من العدم بسبب محدوديتها، وعليه فإنَّ الوجود الممكن ليس وجوداً أصيلاً وحقيقياً، لأنَّ حقيقة الوجود هي عين الواقعية ولا سبيل لأي قيد أو شرط وتقصا إليها، ولهذا يكون الوجود الأصيل واجب الوجود حتماً

ونؤكد - بأنَّ الوصول إلى حقيقة هذا الاستدلال - بالرغم من هذه الإيضاحات - يحتاج إلى رياضة فكرية ودقَّة وتعمُّق كبير (فتأمل جيِّداً)

❦❦❦



مرکز تحقیقات کتاب و اسناد اسلامی

## ٦- الطريق الباطني لمعرفة الله (الفطرة)

### تمهيد:

(الإدراكات العقلية) - كما نعلم - تشكل جزءاً من المصنوع الروحي لدى الإنسان، أي أن الإنسان لا يصل إلى كل شيء عن طريق اسئيل العقي، بل إن المتطلبات والمكتسبات الفطرية العريضة تشكل جزءاً مهماً من المحتوى الروحي فيه، حتى أن الأساس في الكثير من الأدلة العقلية قائم على هذه المكتسبات الفطرية، هي حين تنشأ المتطلبات والمكتسبات في الحيوانات عن طريق الفطرة فقط.

وهي الحقيقة فإن الدين قاموا بتعديده لاسان يابعد العقلي لم يعرفوا سمام الأبعاد الوجودية للإنسان.

ومن المتفق عليه أن طريق الباطن من لطرق المهمة في مسألة (معرفة الله) التي لها طرق لا تحصى، والإنسان هنا يسلك أقصر الطرق، فبدلاً من (المعرفة) يصل إلى (الوجدان)، ومن (التفكير) إلى (الرؤية)، وبدلاً من إعدد (المقدمات) يصل إلى ذي المقدمات.

إنه طريق عظيم، مثير للنشاط والحيوية ومريح

وقد اعتمدت آيات قرآنية عديدة على هذا المعنى وجاءت بتعابير جميلة

بعد هذا التمهيد نتأمل خاشعين في الآيات الآتية

١- ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ

(الروم / ٣٠)

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيُّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

٢- ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ

(الروم / ٣٣)

مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾.

٢- ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُنْفِرُونَ﴾.  
(العنكبوت / ٦٥)

٤- ﴿هُوَ الَّذِي يُسَبِّحُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَقًّا إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ غَاصِبَةٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُنْجِيتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ • فَلَمَّا أَفْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْتَفُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.  
(يونس / ٢٢-٢٣)

٥- ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

(الزخرف / ٩)

٦- ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾  
(الزخرف / ٨٧)

٧- ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.  
(العنكبوت / ٦١)

٨- ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَقْنِ يَمِيتُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

(يونس / ٣١)

٩- ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ • سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ • قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السُّنْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ • سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ • قُلْ مَنْ يَدِيرُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ • سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾.  
(المؤمنون / ٨٤-٨٩)

١٠- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾. (الأعراف / ١٧٢)

### شرح المفردات:

«النفرة»: من مادة (فطر) وتعني - كما أسلفنا - شق شيء طويلاً، ثم أطلق على كل شق.

والشئ ربما يكون للتخريب وربما للإصلاح ولذا يستعمل للمعنيين.  
وبما أن (الخلق) بمثابة كشف حجاب ظلمات العدم، فيكون أحد المعاني المهمة لهذه المعرفة هو الإيجاد والخلق، ولأنفس السبب يعطي معنى الإبداع والإخترع أيضاً.  
ويطلق لفظ (الإفطار) على تناول لعداء بعد ذان المغرب أو إبطال الصوم، فالصوم يعد حالة متصله ومستمرة وعند تناول المعطر فإن هذه الحالة تُقطع أو تُهدم، ولهذا سميت حالة إبطال أو قطع الصوم بالإفطار.

كما يستعمل هذا اللفظ في إثبات النباتات أيضاً وذلك لانفطار الأرض أثناء خروج النباتات منها، كما يطلق على عملية مسحراج الدين من الصرع باصبعين، فكأنه ينشق ويخرج منه الدين.

نقل عن ابن عباس قوله، لم أعرف معنى افطر السماوات والأرض) حيناً حتى جاء إلى رحلان أعرابيان يتنازعان على شئ، فقال أحدهما لانيات ملكيه:  
أنا فطرتها بمعنى (أنا حمرتها)، <sup>هنا أدركت أن الفطر</sup> يعني الإبعاد والإبداء في الشيء.  
ويطلق على الثور الذي تطهر في وجوه الشهاب من البهيم والبهات اسم (سقاطر) أو (تعاطير)<sup>١</sup>.

وإذا ما لاحظنا اعتبار بعض اللغويين مفردة (فطرة) بمعنى الدين والشرع إنما هو لوجودها في خلق الإنسان منذ البداية كما سيأتي

XXXX

## جمع الآيات وتفسيرها

### الخلق الثابت واللامتخ:

الآية الأولى التي تصرح بأن (الدين) هو أمر فطري وتعاطى النبي ﷺ: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً»<sup>٢</sup>.

١ لسان العرب: مفردات الراسب، نهاية ابن الأثير: ومجمع البحرين.

٢. «حنيف» من «حنف» ويصلي كل ميل أو انحراف، وجاء بمعنى الميل من الضلال إلى الهدى، ومن الباطل إلى

ومن أجل التعليل أو التشجيع على هذا لأمر تقول الآية بعد ذلك ﴿فَطَرَتْ أَفْئِدَةً لِّلنَّاسِ عَلَيْهَا ۚ﴾<sup>١</sup>.

وبما أن الإنسجام والتسويق بين (لتشريع) و(التكوين) يصير من المسلمات حيث لا يمكن وجود أمر متأصل في خلق الإنسان غير منسجم مع سلوكه، فيمكن أن يكون هذا التعبير دليلاً على وجوب العمل بأصل التوحيد ونفي كل شرك.

وللمزيد من التأكيد تقول الآية بعد ذلك: ﴿لَّا تُبْدِلْ يَخْلُقِ اللَّهُ ۚ﴾.

وهذا يعني أن ما يتجدد في أعماق الوجود الإنساني يستمر كأصل ثابت وراسخ - وسوف يتصح لنا بأن لهذه الجملة معنى غريب واعجاري، حيث تشير الدراسات الحديثة التي يجربها المفكرون إلى أن العلاقات الدينية هي من أشد العلاقات الإنسانية تحذراً ورسوخاً وبقاءً على مر التاريخ.

بيد أن فئة جاهلة وغافلة تقوم بإفساد هذه القطرة الطاهرة بالشرك، ولذا فإن القرآن يؤكد على المحافظة عليها بذكر كلمة (حسباً)<sup>٢</sup>.

وللمزيد من التأكيد تضيف الآية: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ﴾.

كلمة «قيّم» من مادة (ق ي م) واستقامة بمعنى لثابت وراسخ والمستقيم كما جاءت بمعنى القائم بشؤون المعاد والمعاش في الإنسان<sup>٣</sup>.

وبما أن الكثير من الناس يفعلون عن هذه لحقيقه ويستلون بأنواع من عبادة الأصنام، لذا فقد ورد في آخر الآية قوله سبحانه وتعالى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، والجدير بالذكر أن القطرة التي جاءت في الآية لا تشمل لتوحيد فقط بل تشمل الدين بجميع أصوله ومروعه وسنتطرق إلى هذا البحث الطريف إن شاء الله تعالى.

﴿الحق والتعبر به﴾ (وجه) هنا كناية عن الداء. لأن توجه أهم عضو في الجسم وتقع فيه الحواس الهامة كحاسة البصر والسمع والذوق والشم.

١. توجد أقوال كثيرة حول تعليل النصب في (قطرة الله) ومنها أنها تقدير (أشبع) و(الزم).

٢. يقول بعض المعسرين بأن «لا» في ﴿لَّا تُبْدِلْ يَخْلُقِ اللَّهُ ۚ﴾ صيغة وتطعي معنى النهي (راجع تفاسير مجمع البيان والميزان وروح الباري) ولكن كما قلنا فإن المعنى أنسب وأجمل (عنا مثل جيداً).

٣. مفردات الراغب وكتب نفوية أخرى.

### عند مواجهة الأزمات:

في الآيات الثانية والثالثة والرابعة التي يدور البحث حولها (وبمعايير مختلفة) هناك إشارة إلى قصيدة عامة وهي أن الإنسان حين يواجه لصعوبات والبلاء الشديد ويعجز عن استخدام الوسائل الطبيعية يلجأ إلى مفرته الأصبنة فيشرق في أعماق قلبه نور المعرفة الإلهية بعد اختصائه، ويتذكر مبدأ العلم والقدرة الذي لا نظير له والذي يسهل عليه حل المشكلات كلها.

ورد في قسم من الآية قوله: ﴿وَإِذَا هَشِلَ لِأَنَّى ضَعُفُوا بِهِمْ مُشِيرِينَ إِلَيْهِ﴾.

ولكن بعد انتهاء الأزمة وهبوب رياح الرحمة، فإن مجموعة منهم يعودون إلى شركهم ﴿ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِثْلُ رَحْمَةٍ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

وفي موضع آخر يذكر هذا المعنى مقروناً بذكر مصدق واضح من الصعاب والمشكلات حيث تقول الآية ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ ﴾ «وأحاطت بهم الأمواج العظيمة والأعاصير المحيطة وامتلات قلوبهم رعباً واهلماً» ﴿ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾

وقد أشارت آية أخرى إلى اخطار البحر هذه، بصورة حملة أخرى حيث تقول بأن الله هو الذي يمسركم في الصحارى والبحار وعندما تركبون السفينة وتحرككم الرياح الطيبة المهادنة إلى أهدافكم والجميع يضرهم القرح والسرور، وفجأة تهب الأعاصير ويهيج البحر وتأتي الأمواج من كل جهة عتهد الراكبين في السفينة حتى يروا الموت بأعينهم وينتابهم اليأس من الحياة يتذكرون الله فيدعونه مخلصين ويعاهدونه على أن يكونوا شاكرين له إذا بجاهم من الهلاك (شكراً مصحوباً بالمعرفة).

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَّهْتُمْ بِهَيْمٍ يَرِيحُ طَائِفَةً  
وَقَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا  
اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَفْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝﴾

ولكن هؤلاء عندما يحبهم الله من الأخطار الموحشة ويوصلهم إلى ساحل الأمان

يسون عهدهم مع الله فيشرعون مرة أخرى بظلم بدون حق فيسلكون طريق الشرك وهو من أعظم الظلم ويظلمون الذين تحت أيديهم معرورين بالنعمة التي هم فيها: ﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾.

كما يلاحظ هذا المعنى في آيتين أخريين. ففي موضع تقول الآية:

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةٌ مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوْتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾

(الزمر / ٤٩)

وهي موضع آخر تقول الآية: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ﴾.

(يونس / ١٢)

هذه الآيات الخمس مع أنها تقصد حقبة واحدة، بيد أن كل آية تسمع بخصوصية ولطافة ولحن خاص، فهي بعضها ذكر لأنواع الأضرر والمشكلات والأذى والتي تشمل أنواع الأمراض والبلاء والقحط والآفات والمشكلات. وفي البعض الآخر إشاره إلى أخطار البحر فقط أم قبيح الأعاصير والأمواج ودوران المياه والحيوانات الخطرة الموجودة في أعماقه والضلال عن الطريق وأمثالها.

وفي الأخرى تركيز على أخطار الأعاصير والأمواج

وهي آية أخرى حديث عن عودة لإسان يسير في طريق الشرك.

وفي آية أخرى ذكر لطريق البغي والظلم ندي له مفهوم أوسع من الشرك.

وفي آية أخرى إشارة إلى أنهم يعتبرون المشاكل ناشئة من الله أما النعم فأنها منهم، ونقرأ في آية، أنهم يشركون بأجمعهم، وتذكر آية أخرى فئة منهم، وذلك لاختلاف المجتمعات البشرية قسم من الفئة الأولى وبعضها قسم من فئة الثانية

وتقول آية أخرى: إنهم يعاهدون الله عند بلاء عهدهم يسونه عند استقرار الأوضاع

وروال البلاء، وفي آية أخرى يكون الحديث عن الدعاء والطلب من الله تعالى.

وتقول آية أخرى: إنهم إذا أصابهم شيء من الضرر (التعبير بـ «مَسَّ» فيه إشارة إلى هذا

المعنى)، ولكن في آية أخرى أنهم عندما يتألمون اليأس من الحياة يعبدون على الله، ولعل هذا



الاختلاف إشارة إلى مختلف أفراد البشر حيث يكون لبعض من القسم الأول والبعض الآخر من القسم الثاني.

وقد ذكرت كلمة ((الإخلاص)) في كثير من آيات، حيث يشير إلى رفض كل معبود سوى الله الواحد، وتدلّ على أنهم حين الدعوة وراحة يعبدون الله أيضاً، ولكنهم يجعلون الله أنداداً سرعان ما ينسويهم عند ارتفاع الأمواج لعاتية أو الأعاصير الموحشة، ويغمر مور التوحيد والوحدانية قلوبهم ويضيء وجودهم.

ورد في تفسير «روح البيان» بأن عبدة الأوثان وفي أثناء رحلاتهم البحرية (حيث كانت رحلاتهم محفوفة بالمخاطر، باعتبار أن السمر عن طريق البحر مملوء بالحوادث وفي ذلك الزمان أكثر خطراً بالنسبة لعصرنا الحاضر وذلك لافتقارهم للسفن البحرية المتطورة). فكانوا يحصلون معهم الأصنام، وعند هبوب الأعاصير المصيبة فانهم كانوا يلقون أصنامهم في البحر ويستغيثون بأصوات عالية، يلزمهم، يارب!

ولأعجب أنهم كانوا يسمعون من النبي ﷺ الأدلة المبطنة الناصحة، لكنهم لم يؤمنوا، في حين كانوا يقولون على الله يكل وجودهم عندما يتعرضون للبلاء الشديد، وهذا مما يشير إلى أن طريق القطرة أسمع وأيسر بكثير من لئس من الطرق الأخرى والجدير بالذكر أن القرآن الكريم يحذر ندين يستجيبون لنداء القطرة عند الشدة ويسونه عند الرخاء، ويلفت أنظارهم ببيان جميل بقوله: «أَفَأَمِثُّمُ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً»<sup>١</sup>

هل هناك إلهان أحدهما للبحر والآخر سبر؟ أم أن الله قادر في البحر ولا قدرة له في البر؟ إن الله قادر على أن يأمر الأرض بأن تبتلع كل ما موجود عليها في لحظة واحدة وبواسطة زلزال واحد<sup>٢</sup>.

١- روح البيان، ج ٦، ص ٤٩٣.

٢- الإسراء، ٦٨.

٣ قبل عدة سنوات وقع زلزال في شمال أفريقيا وفيه هبب الأرض قرية كاملة ولم يثرها حتى على حرائبها!

وقد حدث مراراً أن تهب الأعاصير وتحمل الحصى والرمال إلى السماء وتلقيها في نقاط أخرى، وقد تظلم تحتها قافلة بأكملها  
الله الذي يأمر الأمواج في البحار - إذن - قادر على أن يتحد من الأعاصير والزلازل في الصحارى جنوداً يهلك بهم الفاسدين  
ويتبع هذه الآية جواب آخر حيث يقول  
﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعَذِّبَكُمُ فِيهِ ثَارَةٌ أُخْرَىٰ قِيلَ بَلْ عَلَيْكُمُ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾  
(الإسراء / ٦٩)  
أي أنكم تظنون أن هذه هي رحلتكم البحرية الأخيرة؟ إنه خطأ كبير.

### القرار للمشركون:

وتتضمن الآية الخامسة حتى التاسعة من آيات البحث حديثاً حول هذا الموضوع.  
﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾  
وأيضاً ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾  
وأيضاً. ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾  
ولو سألت عبدة الأوثان - عن خلق كل فرد من المخلوقات وكيفية تدبير أمورها فأنهم  
يقرون بأن الله وحده هو الخالق والمدير!!

إن هذه الآيات القرآنية وأمثالها<sup>١</sup> من الشواهد الحجة على التوحيد الفطري، ومن الممكن أن تكون هذه الإجابة المتباعدة نتيجته للاستدلال العقلي أيضاً وذلك عن طريق برهان النظم، ولكن بملاحظة أن المشركين العرب ساء أميون وبعيدون عن العلم والفكر والاستدلال، فإن هذا التناقض في الإجابة يدل على أنها كانت تتبع من فطرتهم وهم في ذلك سواء وبدون استثناء، وإلا فإن الاستدلالات عقلية مهما كانت واضحة فإنها لا يمكن أن

تكون شاملة وعامة إلى هذه الدرجة وخاصة بين جماعة بعيدة عن العلم والفكر.  
من هنا فإننا نعتقد أن الآيات الخمس أو أمثالها تشكل أدلة على التوحيد القطري.  
ولذا يقول صاحب تفسير «روح البيان» في ذيل الآية ٩ من سورة الزخرف:  
«وفي الآية إشارة إلى أن في جبلته الإنسان معرفة لله مركوزة»<sup>١</sup>.

وفي تفسير «المعبر الرازي» في ذيل الآية ٨٧ من سورة الزخرف عرض لهذا المصموم  
على صورة سؤال وجواب فيقول «ظن قوم أن هذه الآية وأمثالها في القرآن تدل على أن  
القوم مضطرون إلى الاعتراف بوجود إله لهم، وقوم إبراهيم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنِي شَكُّ مِمَّا  
تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾» (إبراهيم / ٩).

فيقال لهم: لا سلم أن قوم فرعون كانوا مسكرين لوجود الإله، والدليل على قولنا، قوله  
تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فُلْماً وَهَلْوَ﴾» (الملك / ١٤).

وحاء في قوله تعالى حيث قال موسى عليه السلام ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رُبُّ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾» (الاسراء / ١٠٢).

فالفرامة بفتح التاء هي علمت تدل على أن فرعون كان عارفاً بالله، وأما قوم إبراهيم عليه السلام  
حيث قالوا ﴿وَإِنَّا لَنِي شَكُّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ فهو مصروف إلى إثبات القيامة وإثبات  
التكاليف وإثبات النبوة<sup>٢</sup>.

وفي التعبير بـ (لقد علمت ...) إشارة واضحة إلى هذا المعنى.  
والطريف أن آيتين من هذه الآيات تذكر في الهايه بعد أخذ الإقرار من الكفار  
والمشركين بأن الله هو الخالق للإنسان ولأرض والسموات: ﴿فَأَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾<sup>٣</sup>.  
وبناء الجملة للمجهول إشارة إلى أن دو نهم تسير في طريق الفطرة، غير أن أسباباً  
خارجية وهي (شياطين الجن والانس)، وأسباباً داخلية وهي (أهواء النفس والعصبية

١ تفسير روح «بيان»، ج ٨، ص ٣٥٣، ذيل الآية ٨٧ من سورة الزخرف إشارة إلى هذا المعنى أيضاً.

٢ التفسير الكبير، ج ٨، ص ٣٩٩، ج ٢٧، ص ٢٣٣.

٣ «يؤفكون» مشتق من «الافك» وهي الإرجاع والعرف ولذا يطلق «الافك» على الكذب أيضاً كما تطلق  
«المؤفكات» على الرياح المعارضة.

الجاهلية) تحرفهم عن الحق رغم تحذره في أعماق فطرتهم  
في حين جاء التعبير في موضع آخر بـ «فَأَنى تُسْحَرُونَ» بصيغة المبني للمجهول، وهي  
عبارة تطلق على من يتبع أمراً دون إرادة

ويوجد احتمال آخر في تفسير هذه الآيات وهو أنهم كانوا يقولون بأن رسول  
الإسلام ﷺ يريد أن يحرفها عن طريق الحق وأنه ساحر قد سحرنا، مردّ عليهم القرآن: مع  
أنكم تُقرّون بأن الله هو خالق السماء والأرض والشمس والقمر والبشر، وهو المدير لهذا  
الكون فكيف يحرفكم أو يسحركم من يدعوكم إلى عبادته وتبذ عبادته غيره؟ أي عقل يحكم  
بهذا؟!

إن الكثير من المعترضين ومنهم (الطبرسي في مجمع البيان والعلامة الطباطبائي في  
الميزان والفهر الرازي في التفسير الكبير ولاوسي في روح المعاني والقرطبي في تفسيره)  
احتاروا التفسير الأول ولو أن التفسير الثاني غير بعيد عن مفهوم الآية

80X93

### شهد عالم الخلق:

الآية العاشرة والأخيرة في هذا البحث تذكر تعبيراً آخر بصياغة جديدة حول التوحيد  
القطري ولا نظير لها في الآيات القرآنية الأخرى، وبسبب المحتوى المعقد لهذه الآية دارت  
حولها أحاديث مطوّلة بين العلماء والمفسرين ولما تكتمل وأرباب الحديث، ورد - بصورة  
إجمالية - آراءهم المختلفة ثم رأينا المختار بعد الجراح من تفسيرها

نقول الآية الكريمة: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى  
أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» فقالوا جميعاً «بلى شهدنا» وتُصيف الآية بأن الله تعالى فعل ذلك  
لئلا يقولوا يوم القيامة إنا غفلنا عن هذا الأمر (وهو التوحيد ومعرفة الله): «أَن تَقُولُوا يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» أو تشبّهوا بحجة (التقليد) بدلاً عن حجة (العقل) وتقولوا:  
«إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْنِكُمَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ».

(الأعراف / ١٧٣)

هذه الآيات تكشف عن حقائق بصورة إحصائية، منها:

١- أن الله تعالى أظهر جميع ذرية آدم إلى يوم القيامة في مرحلة واحدة من الخلق.

٢- أن الله سبحانه أشهدهم على أنفسهم وأخذ الإقرار منهم بربوبيته

٣- الهدف من أخذ الإقرار والإعتراف وشهادة لأمرين

أولاً: عدم السماح للمشركين لادعاء العفة ولجهل عن حقيقة التوحيد ووحداية الله

يوم القيامة.

وثانياً: معهم من اتخاذ التقليد لأبائهم ذريعة لارتكاب المعاصي.

وأهم سؤال يطرح هنا هو: متى وقع هذا (الظهور)؟ وبأيّة صورة تم ذلك؟ وما المراد من

(عالم الدر)؟ وكيف تحقق هذا الأمر؟ للأجابة عن هذا السؤال هناك ستة آراء على الأقل،

وقد أخذ كل واحد منها جماعة من المفكرين الإسلاميين.

١- طريق المحدثين وأهل الظاهر: حيث يقولون: إن المراد هو ما ورد في بعض

الأحاديث من أن ذرية آدم بأجمعهم قد خرجوا من طهره على شكل دُرّات دسقة وملاّت

العصاة وكانت تتمتع بالعقل والإحساس والتقدير صلى المطلق، فحاطبهم الله عز وجل

وسألهم: (ألمست بربكم؟) فقالوا جميعاً: (نعم)، وبذلك أخذ العهد الأول على التوحيد، وكان

بنو الإنسان بأنفسهم شاهدين على ذلك.

٢- المراد من عالم الدر وتفسير الآية أعلاه هو لذرات الأولى لوجود الإنسان، أي

النطفة التي انتقلت من ظهور الآباء إلى أرحام الأمهات وتبدلت في المراحل الجنينية إلى

صورة إنسان كامل تدريجياً، وقد أعطاها الله عز وجل في ذلك الحال القوى والقابليات

المختلفة كي تدرك حقيقة التوحيد ومنهاج الحق، وقد جعل هذه الفطرة التوحيدية ملتزمة

بوجوده.

١ يقول العلامة المجلسي رحمه الله في شرح أصول كافي مرآة العقول: ج ٧، ص ٢٨ عن هذه الحقيقة: (طريقة

المحدثين والمتوزعين فإنهم يقولون نؤمن بظهورها ولا نحوس فيها، ولا نطرق فيها التوجيه والتأويل)، والفسخ

الرازي ينسب ذلك إلى المعتزليين والمحدثين تفسير الكبير، ج ١٥ ص ٤٦

يذهب إلى هذا التفسير جمع من المفسرين كصاحب تفسير (المبار) و(في ظلال القرآن) ونقلوا ذلك عن الكثير من المفسرين<sup>١</sup>.

وبهذا يكون (عالم النثر) هو عالم الجنين ويكون السؤال والجواب بلسان الحال لا القول؛ ولهذا الأمر شواهد وظواهر كثيرة وردت في كلمات العرب وغيرهم؛ كما نقل السيد المرتضى في كلامه عن بعض الحكماء حيث يقول «سأل الأرض من شئ أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً أحابك اعتباراً».

هذا القول يشابه ما ذكره جمع من المفسرين حول الحمد والتسبيح اللذين يعبران موجودات العالم حتى الجمادات أيضاً.

٣- المراد من (عالم النثر) هو (عالم الأرواح) ويعني ذلك أن الله عز وجل خلق في البداية أرواح البشر قبل أحسادهم، وخاطبها وأحد الإقرار بها على وحدانيته وقد استخلص هذا التفسير من بعض الروايات كم سشير إليه.

والحدير ذكره أن كلمة (نثرية) هي آية البحث مشتقة من (نثر) وهي تعني ذرات الصبار الدقيقة، أو النمل الدقيق أو أحرأ المطعة أو من (نثروا) وتعني التفرق أو من (نثره) ويعني الخلق.

بناءً على ذلك لا نسلم بأن الأصل في (نثرية) هو (نثر) بمعنى الأجزاء الدقيقة (هنا مثل جيداً).

٤- إن هذا السؤال والجواب وقع بين جمع من البشر وبين الله عز وجل بواسطة الأنبياء ولسان الحال حيث استمع جمع من البشر إلى دنة التوحيد - بعد ولادتهم وإكمال عقولهم - من الأنبياء واستجابوا لها وقالوا (بلى).

فإن قيل إن (نثرية) مشتقة من (نثر) وتعني لأجسام لصغيرة جداً فلا تتجسم مع هذا المعنى، فيرد أصحاب هذا القول؛ بأن أحد المعاني المعروفة لـ (نثرية) هو الأبناء - صغاراً وكباراً - وأن إطلاق (نثرية) على العقلاء والبالغين في القرآن الكريم ليس بالقليل

١ تفسير المنار، ج ٩، ص ٢٨٧ (تعبيره يسجسم مع القول خامس)؛ تصغير في ظلال القرآن، ج ٣، ص ٦٦١.

وقد ذكر السيد المرتضى رحمته هذا التفسير - في بعض كلماته - على شكل احتمال في إيضاح الآية المذكورة، كما أن أبا الفتوح الرري قد أورد هذا التفسير كاحتمال في تفسيره إضافة إلى وجود إشارة إلى ذلك في تفسير المحرر الرري في ذيل الآية <sup>١</sup>.

٥ - أن هذا السؤال والجواب هو مع البشر بأجمعهم بلسان الحال وذلك بعد البلوغ والكمال والعقل، فكل إنسان يقر بعد كتمال عقده ومشاهدته لآيات الله في الآفاق والأنفس بوحداية الله بلسان حاله، وكأن الله عز وجل يسألهم ببراءة هذه الآيات «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟» فيجيبون بلسان الحال: «بلى»، وأما الحديث بلسان لقال فإن له شواهد ونظائر كثيرة. وهذا التفسير ينقله الشيخ الطوسي رحمته في التبيان عن البلخي والرمثاني <sup>٢</sup>.

٦ - وهو التفسير الذي اختاره العلامة لطيفي رحمته في «الميران» بعد أن ذهب إلى استحالة أن يكون للبشر وجود مستقل سابغاً مقروناً بالحياة والعقل والشعور وقد أخذ الله منهم العهد على وحدانيته ثم أعادهم إلى حالهم السابقة كي يحاذاوا مسيرتهم الطبيعية، وبذلك يأتون إلى الدنيا مرتين فقال

وَأَنْتَ بِقَوْلِهِ «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» • فَسُبْحَانَ الَّذِي يَسْتَبْدُو  
مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ.

وقوله: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ».

إن هذا الوجود التدريجي للأشياء ومنها لإنسان هو أمر من الله يفيضه على الشيء ويلقيه إليه بكلمة (كن) إفاضة دفعية وانفاء غير تدريجي، فوجود هذه الأشياء وجهان، وجه إلى الدنيا وحكمه أن يحصل بالحروح من القوة إلى الفعل تدريجاً، ومن العدم إلى الوجود شيئاً فشيئاً ويظهر ناقصاً ثم لا يزال يتكامل حتى ينفى ويرجع إلى ربه، ووجه إلى الله سبحانه وهو بحسب هذا الوجه أمور تدريجية وكل ما لها فهو لها في أول وجودها من غير أن تحتل قوة تسوقها إلى الفعل. وبعبارة أخرى: أن الموجودات لها نوعان من

١. تفسير روح البیان، ج ٥، ص ٣٢٦.

٢. تفسير التبيان، ج ٥، ص ٢٧ (وفي تفسير المدرج ٩، ص ٣٨٦ تعبير يقرب من هذا المعنى).

الوجود، الأول الوجود الجمعي عند الله تعالى والذي يعبر عنه القرآن الكريم بالملكوت، والآخر: الوجودات المتناثرة التي تظهر تدريجياً بمرور الزمان

وبهذا تكون حياة الإنسان في الدنيا مسبوقة بحياة إيسائية أخرى لا يكون فيها أحد محبواً عن الله تعالى، وقد شاهدته هناك كل موجود باشهود الباطني وأقرّ بربوبيته.

ثم يضيف ﷺ: لو دققنا في الآيات الآتفة تذكر لرأينا أنها تشير إلى هذا المعنى

بعد اتصال التماسير الستة بصورة إجمالية شرع بدراستها ونقدها:

القول الأول هو أضعف الأقوال لدى الكثير من المحققين، ووجهوا إليه أغلب الإشكالات، حيث أشكل عليه الطبرسي في «معجم البيان» والسيد المرتضى - كما نقله العلامة المجلسي ﷺ في مرآة العقول - كما أن نصر الرازي أورد ١٢ إشكالاً على هذا القول! غير أن بعضها ليس حديراً بالاهتمام وبعضها مكرر أو قابل للاندماج مع غيره، وبصورة عامة تتوجه خمسة إشكالات إلى هذا القول:

أ/ إن هذا التفسير لا يسجّم مع كلمة (بي آدم) أيّ بدءاً. وكذلك مع صماتر الجمع في الآية، وكلّها تتحدّث عن بي آدم لا آدم نفسه، كما لا يتطابق مع لفظة «ظهور» جمع «ظهور»، والخلاصة هي أن الآية تقول: «إنّ النّثريّة» ظهرت من ظهور «بني آدم» لا من ظهور «آدم»، في حين أنّ الروايات تدور حول نفس آدم.

ب/ لو صحّ أخذ مثل هذا العهد الصريح في عالم سابق لهذا العالم فكيف يعقل نسيان ذلك من قبل البشر بأجمعهم؟! وهذا لسيان عام دليل على استبعاد هذا التفسير، لأنّ الاستفادة من الآيات القرآنية هو أنّ البشر لا يسوّون حوادث الدنيا حين تقوم الساعة ولهم حوار بشأنها غالباً، فهل الفاصل الزمني بين عدم الدّرّ والدنيا هو أكثر من الفترة بين الدنيا والآخرة؟

ج/ لو سلّمنا - فرضاً - بأنّ هذا النسيان اعمّ يمكن تبريره بالنسبة لعالم الدّرّ، ولكن النتيجة هي على هذا العهد، لآته يكون مؤثراً حينما يتذكّره الناس، أمّا ما ينسأه كافّة البشر



فأنه يفقد تأثيره التربوي ولا ينفع في إلقاء الحجة وسد باب الاعتذار.

(د) يستفاد من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَمَتَنَا اثْنَيْنِ وَأَخْيَسْنَا اثْنَتَيْنِ﴾. (المؤمنون / ١١)

إن للبشر موتين وحياتين (حيث كانوا موجودات ميتة فأحييت ثم يموتون ثم يحيون يوم القيامة) في حين يكون لهم - وفق هذا التفسير - أكثر من موتين وحياتين: (موت وحياة في عالم الدرّ وموتان وحياتان آخران).

هـ يستلزم هذا التفسير (التناسخ)، لأننا نعلم بأن التناسخ ليس إلا حلول روح واحدة في جسمين أو أكثر، وطبقاً لهذا التفسير فإن الروح الأولى تعلقت أولاً بالذرات الدقيقة جداً والتي خرجت من ظهر آدم ثم خرجت لتتعلق بالأجسام الحاضرة، وهذا هو عين التناسخ. وبطلان التناسخ هو من المسلّمات في الدين، ولذا فإن الشيخ المفيد رحمته الله في كتابه «جواب المسائل السروية» عندما يذكر التفسير أعلاه مقروناً ببعض الروايات يصيغ: «هذه أخبار القائلين بالتناسخ وفيه جمعوا بين الحق والباطل»<sup>١</sup>.

وقد ورد هذا الكلام بنفسه في كلام شيخ المفسرين الطبرسي رحمته الله<sup>٢</sup>.

وسنلاحظ بإذن الله لدى مطالعة أخبار عالم الدرّ أن الأخبار الدالة على هذا التفسير معارضة بأخبار أخرى.



وأما القول الثاني الذي يتحدّث عن خلق فطرة التوحيد والقابلية الخاصة لمعرفة الله في عالم الرحم فإنه أقلّ الأقوال إشكالاً، والإشكال الوحيد الذي أورده عليه هو أن ظاهر الآية المبحوث عنها هو أن السؤال والجواب جاء بلسان القال لا الحال، وهو ضرب من التشبيه والمجاز، مضافاً إلى أن جملة (أخذ) دليل على أن هذا الأمر قد أخذ في الماضي، في حين

١. مرآة العقول، ج ٧، ص ٤١.

٢. تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٩٧.

أن فطرة التوحيد للأجنة هي أمر مستمر ويتحقق في كل زمان، والإشكالات يمكن الإجابة عليهما وذلك لعدم ماعية حمل هذا نكلام على لسان الحال مع القرينة، وقد كثر ذلك في اللغة العربية تترأ وشعراً و... والإشكالات المهمة التي ترد على التفسير الأول قرينة واضحة على هذا التفسير، والفعل الماضي قد يستعمل في الاستمرار أيضاً، وهذا - طبعاً - يحتاج إلى قرينة أيضاً، وهذه القرينة موجودة في موضوع البحث<sup>١</sup>

أما التفسير الثالث القائل بأن المراد هو: سؤال الأرواح فإنه لا يسجّم مع آية البحث أبداً، لأن الآية تتحدث عن أخذ الدرية من صهور بني آدم ولا يرتبط هذا بقضية الأرواح وأما التفسير الرابع القائل بأن السؤال والحواب كان بهذا اللسان الطبيعي ويرتبط بمجموعة من البشر قد سئلوا بعد إبلاغهم بواسطة الأنبياء عن مسألة التوحيد وأجابوا بالإيجاب عليه، فإنّ عليه إشكالات رئيسية منها

إن الآية تتحدث عن جمع الشر <sup>مجموعة صغيرة منهم آمنوا بالأنبياء أولاً ثم كفروا،</sup> مصافاً إلى أن ظاهر الآية هو كون السؤال من قبل الله لا من قبل الأنبياء. ولا يصح ما يظنه البعض من أن جملة: «لَقَدْ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ» دليل على أن الآية تقصد المجموعة التي أشرك آباؤهم، لأن الآية تذكر عذرين غير موحيين للكفار، الأول هو الغفلة والثاني التقليد للآباء المشركين.

ويمكن أن يكون كل عذر لمجموعة خاصة وأنها معطوفان بكلمة (أو). وأما التفسير الخامس فإنه يشابه التفسير الثاني من جهات مع وجود فارق وهو: أن التفسير الثاني يتحدث عن الفطرة القلبية، بينما يتحدث التفسير الخامس عن فطرة العقل وكما أسلفنا فإنّ هذا التفسير قد مال إليه كثير من المفسرين الأعلام. وأما التفسير السادس الذي ورد في «تفسير الميزان» فإنه يواجه إشكالتين كبيرتين. **الأول:** هو إثبات عالمين (عالم جمعي وعدم تفصيلي) ولا دليل واضح لهما حسب ما ورد من البيان.

١ شوهدت هذه العبارة كثيراً في الآيات القرآنية فاطر، ١٤ الشورى، ٥١ المص، ١١١ المص، ١٩

**والثاني:** أن تطبيق الآية على هذا العالم (بافتراض ثبوته) يبدو بعيداً جداً ولا يسلم أصل القضية وفرعها من الإيراد.

### حصيلة للبحث من عالم النور:

يصل متأ ذكر إلى هذه النتيجة وهي: أن التفسير الثاني والحامس - بعد الدراسة الدقيقة - هما أقل التعاسير إشكالاً، وأما الإشكال الوارد في أنه يخالف الظاهر في بعض الجهات فإنه يمكن التفاوض عنه مع توفر القرينة والنظائر الكثيرة لذلك في اللغة العربية وغيرها، ولذا فإن الكثير من المفسرين المشهورين وعلماء العقائد والكلام قد اختاروهما، كما تتضمن الروايات إشارات واضحة إلى هذا المضمون وسيأتي ذلك في البحث المقبل بإذن الله.

**وباختصار:** إن أغلب المحققين يعتقدون بأن هذا السؤال والجواب الإلهي قد تم مع جميع البشر ولسان الحال لا القول، أو عن طريق الاستعداد الفطري المودع في الجنين أو عن طريق الاستعداد العقلي الذي أوجده فيهم بعد البلوغ والكمال العقلي، أحدهما يتحدث عن الفطرة القلبية (دون الحاجة إلى استدلال) والثاني يتحدث عن الفطرة العقلية التي تعتبر معرفة الله من البديهيات العقلية، حيث إن دلائله من الموضح ما يجعل كافة البشر يدركون ذلك، صحيح أن مجموعة من البشر يسكرون ذلك بلسان الحال ويؤيدون المادية، ولكننا حينما نحلل كلامهم نراهم يجعلون للمادة والطبيعة نوعاً من العقل والإحساس، وبعبارة أخرى أنهم أطلقوا كلمة (الطبيعة) على (الله)، ونعتقد أن الإشارة إلى الفطرة القلبية هي الأنسب (فتأمل جيداً).



### توضيحات

#### ١ - (عالم النور) في الروايات الإسلامية

إن المصادر الإسلامية (السنية والشيعة) تتضمن روايات جمة عن (عالم النور) تبدو

وكأنها روايات متواترة، فمثلاً يتصنّف تفسير نور الثقلين ٣٠ رواية، وتفسير البرهان ٣٧ رواية ولعلها تتجاوز الأربعين في مجموعها (مع حذف المكررات)، كما يتضمّن تفسير (الدرّ المستور) روايات عديدة، ممّا يشير إلى أنّ مصممي الروايات لا تنحصر في مذهب إسلامي خاص.

غير أنّ كثيراً منها مقوله عن راوٍ واحد ولد يشملها حكم الخبر الواحد (يلاحظ أنّ كثيراً منها مروي عن زرارة، وعدداً منها عن أبي بصير، وبعضاً منها عن جابر، كما تلاحظ روايات عن عبدالله بن سنان وصالح بن سهل) ويهدّون العدد الحقيقي للروايات بخفص بشكل ملحوظ.

هذا وإنّ مضامين هذه الروايات متباينة تماماً فبعضها يتفق مع التفسير الثاني الفائل بأنّ هذا العهد عهد فطري ويرجع إلى إبداع المعرفة، عطرية في الإنسان نظير الرواية التي ينقلها عبدالله بن سنان عن الإمام الصادق عليه السلام: «قال: سألته عن قول الله عز وجل ﴿فطرنا الله على فطر الناس عليها﴾ ما تلك الفطرة؟ قال: هي للإسلام، فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد، قال ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وفيه المؤمن والكافر» (١).

وكما تلاحظ فإنّ الحديث يتضمّن بياناً عن الارتباط الوثيق بين آية (الفطرة) وآية (عالم الدرّ)، وقد روى زرارة هذا المعنى بعبارة أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام، فإنه عندما سأل الإمام عليه السلام عن تفسير الآية «وإذا أخذ ربك...» أجابه عليه السلام: «ثبتت المعرفة في قلوبهم ونسوا الموقف، ويذكرونه يوماً، ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه ومن رزقه» (٢).

في حين أنّ بعضاً آخر من الروايات يتفق مع التفسير الأول حيث تذكر أنّ ذرية آدم خرجوا من ظهره على صورة ذرّات. وقد أخذت هذه العهد منهم بلسان القائل، كالروايات التي وردت في تفسير البرهان المرقمة ٢، ٤، ٨، ١١، ٢٩ (وقد روى زرارة هذه الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام وهي - في الحقيقة - رواية واحدة)

١. تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٧، ح ١٧ وتفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٩٥، ح ٢٤٥

٢. تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٨، ح ١٥

وقد ورد هذا المعنى في تفسير الدر المنثور عن ابن عباس بطرق متعددة ولكن يطول ذكرها وهي ذات مصمون واحد في الحقيقة وتتلخص في حديث واحد عن ابن عباس وليس عن الرسول الأكرم ﷺ. وفي كتب أخرى نقل هذا المعنى بطرق أخرى. والإشكال المهم الذي يرد على هذه الأحاديث هو أنها مخالفة لطاهر وصرح كتاب الله لأنها تقول بأجمعها: أَنَّ ذَرِيَّةَ آدَمَ خَرَجَتْ مِنْ طَهْرٍ آدَمَ عَلَى صُورَةِ ذَرَّاتٍ، فِي حَيْثُ يَقُولُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بَأَنَّ الذَّرَّاتِ هَذِهِ خَرَجَتْ مِنْ ضُحُورِ بَنِي آدَمَ: «مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ».

وإضافة إلى ذلك فإن ثمة إشكالات عديدة أخرى ترد على مضامين هذه الأحاديث تمت الإشارة إليها وت جعلها في المجموع في عداد الأحاديث الضعيفة. والمجموعه الثالثه من الأحاديث مبهمه وتلائم التفسير المختلفه، مثل الحديث الذي يرويه أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام حيث سألهم: «كَيْفَ أَجَابُوا وَهُمْ دُرٌّ؟» فقال عليه السلام: «جَعَلَ اللَّهُ فِيهِمْ مَا إِذَا سَأَلَهُمْ أَجَابُوهُ، يَعْنِي فِي الْمِيقَاتِ»<sup>١</sup>. وهناك مجموعة رابعة من الأحاديث تقول بأن هذا السؤال والحواب قد جرى مع أرواح البشر، وهذا يوافق التفسير الثالث فقط، كروية المفصل بن عمر عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «قَالَ اللَّهُ حَزَّوَجَلَّ لَجَمْعِ أَرْوَاحِ (بَنِي آدَمَ) أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى»<sup>٢</sup>. كما يستفاد من مجموعة روائية خامسة أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَوْقَفَ الْأَرْوَاحَ الْبَشَرِيَّةَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى نَفْسِ الْهَيْئَةِ الَّتِي تَحْلُقُ عَلَيْهَا وَأَحَدُ مِنْهَا الْمَهْدُ<sup>٣</sup>.

بناءً على ما ذكر وبملاحظة التعارض بين هذه الروايات وضعف السند في كثير منها، لا يمكن الإعتماد عليها كمستمسك معتبر أبداً، ولأفضل كما يقول العلماء العظام هو أن نترك

١. تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٩، ح ٢٢

٢. المصدر السابق، ح ٢٠

٣. تفسير الدر المنثور، ج ٣، ص ١٤٢

في مثل هذه الموارد الحكم بشأنها ويدع العزم بها إلى أهلها<sup>١</sup>  
 تبقى الآية أعلاه وما يستفاد منها بمعونة لقرائن المختلفة، وكما أشرنا فإن التفسير  
 الثاني - كما يبدو - هو الأنسب من بين التفسير الستة المذكورة للآية، وهو التفسير الذي  
 يعتبر عالم الدر مسجماً مع فطرة المعرفة الإلهية والإسلام، وعليه فإن ذرات الطفرة منذ  
 خروجها من ظهور الآباء واستقرارها في أرحام الأنثى تكون قد استقرت فيها نور المعرفة  
 والتوحيد والقانون الإلهي على صورة قابلية ذنية

## ٢- فطرة العقل أم للقلب؟

الحصيلة من كلمات العلماء في بحث فطرة المعرفة الإلهية هي أنهم سلكوا طريقتين،  
 فبعض اعتبر الفطرة هنا بمعنى الاستدلال العقلي الوصح، وهو أن كل إنسان بعد اكتمال  
 عقله وملاحظته لنظام عالم الوجود وبعض الأسرار في الحلق ينتقل إلى هذه الحقيقة فوراً  
 وهي استحالة نشوء هذا النظام البدعي الذي الأسرار العجيبة من مبدأ فاعد للعقل والإحساس،  
 وعليه فإن الفطرة بمعنى (العقل الفطري) الذي يكفيه استدلال واضح للوصول إلى الحقيقة  
 ولا يحتاج إلى أستاذ أو معلم، كما يحكم الإنسان بأن (الكل أكبر من الجزء) حيث أدركه  
 باستدلال عقلي واضح وهكذا عندما يقول بأن (المساويين لشيء متساويان).  
 من هنا نلاحظ أن علماء المطلق يقسمون بديهيات المطلق إلى ستة أقسام:

الأوليات، المشاهدات، التجريبيات، المثنويات، الحدسيات، الفطريات، وقالوا في  
 تعريف (الفطريات): بأنها القضايا التي لا يصدق بها العقل بمجرد تصوّرهابل يحتاج إلى حدّ  
 أوسط وهو حاصر لدى الذهن دائماً، وللفطرة معنى آخر وهو أصح وأفضل في البحوث  
 المعية وهو: إدراك الحقائق من دون الحاجة إلى أي استدلال (معقد أو بسيط) ويفهمها

١ للمريد من المعلومات عن الروايات المرتبطة بعالم الدر يمكن مراجعة الكتب الخمسة الآتية: بحار الأنوار،  
 ج ٣، ص ١٧٧؛ مرآة العقول، ج ٧، ص ٣٦؛ تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٦؛ تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٩٣؛ وتفسير  
 الدر المنثور، ج ٣، ص ١٤٦، وما بعدها

بوضوح ويتقبلها، فهو حينما يشاهد - مثلاً - باقة من لورد الحميل ذات عطر زكي يقرّ بجمالها، دونما حاجة إلى إقامة الدليل أبداً، ويقول بأنها جميلة حقاً ولا تحتاج إلى دليل. والفهم الفطري في مجال المعرفة الإلهية من هذا القبيل، فالإنسان حينما يستدير من أعماق روحه يبصر نور الحق ويسمع نداه بقية، يدعوّه إلى مبدأ العلم والقدرة التي لا مثيل لها في عالم الوجود، مبدأ الكمال المطلق ومطلق الكمال، وهو في الفهم الوجداني - كما في جمال الورد - لا يشعر بحاجة إلى إقامة الدليل

8008

### ٣- شواهد حية على فطرية الإيمان بالله

ربما يقال بأن هذه كلها ادعاءات ولا سبيل لإثبات مثل هذه الفطرة في المعرفة الإلهية، فمن الممكن أن ادّعي بأنني أشعر بهذا الإحساس في قلبي أي من أعماق روحي، ولكن كيف أقنع شخصاً يرفض هذا الكلام (لدينا شواهد كثيرة بإمكانها إثبات فطرية المعرفة الإلهية بشكل واضح جداً، وهو يفهم العكس، ويمكن تلخيصها في أقسام خمسة:

#### أ) للحقائق التاريخية

إن الحقائق التاريخية التي تمت دراستها من قبل أقدم المؤرخين في العالم تدلّ على عدم وجود دين لدى الأقوام السابقة، بل كل قوم يؤمنون بمبدأ العلم والقدرة في عالم الوجود ويعبدونه، ولو سلمنا بوجود حالات نادرة في هذا الأمر، فإنّ هذه القضية لا تنضّر بالأصل العام الذي يحكم بأنّ المحسمات بشرية كنها كانت دائماً على طريق عبادة الله (كل قاعدة كلية لها استثناءات نادرة)

المؤرخ الغربي الشهير (ويل دبوراست) في كتابه (قصة الحضارة) يقرّ بهذه الحقيقة بعد الإشارة إلى بعض الموارد في الإلحاد الديني ويقول «إلى جانب هذه القضايا التي ذكرناها فإنّ الإلحاد الديني من الحالات النادرة، وهذا لإعتقاد القديم بأنّ التدنّس حالة بشرية عامة يتطابق مع الحقيقة...».

«تعتبر هذه القضية من القضايا التاريخية والنسبية الأساسية لدى الفيلسوف، فهو لا يقول بأن الأديان مملوءة باللفظ والباطل بل يستعت إلى هذه الحقيقة وهي أن الدين كان مع التاريخ منذ أقدم العصور»<sup>١</sup>.

ويقول في تعبير آخر بهذا الشأن: «أين تكمن التقوى التي لا تفارق قلب الإنسان أبداً؟»<sup>٢</sup>.

كما يقول في كتابه (دروس التاريخ) وبتعبير ساحط ومألّف: «للدّين مائة روح، كلّما تقتله فبأنه يسترجع الحياة مرّة أخرى!»<sup>٣</sup>.

ولو كان الإيمان بالله والدين ناشئاً عن تفهيد أو تفهيد أو دعاية من قبل الآخرين لما كان عاماً وشاملاً بهذا الحجم ولما استمرّ طيلة التاريخ، وهذا أفضل دليل على أنّه أمر فطري

#### (ب) الآثار التاريخية

إنّ الآثار المبقية من عصور ما قبل التاريخ (أي ما قبل احتراع الحطّ وكسابة أحوال الإنسان) تدلّ على أنّ البشر ما قبل التاريخ كانوا يعتقدون بالدين ويؤمنون بالله والمعاد والحياة بعد الموت، بدليل أنّهم كانوا يدفنون الأشياء التي يحبونها معهم كي يستفيدوا منها بعد الموت! كما أنّ تحميط أجساد الأموات حطاً لها من الإبدان، وبناء المقابر نظير (أهرام مصر) لتبقى أزماً متعادلة دليل على إيمان الأسلاف بالمبدأ والمعاد صحيح أنّ هذه الأعمال تدلّ على اقتران إيمانهم الديني بحرفات كثيرة إلّا أنّها دليل على أنّ الإيمان الديني في مراحل ما قبل التاريخ لا يمكن إنكاره.

#### (ج) الدراسات النفسية واكتشافات علماء النفس

إنّ الأبعاد الروحية للإنسان وميوله الأساسية هي أيضاً دليل واضح على فطرية العقائد

١ قصة الحصار، ويل ديورانت، ج ١، ص ٨٧

٢ المصدر السابق، ص ٨٩

٣ الفطرة للشهيد المطهري، ص ١٥٣



الدينية، وهي أربعة مهولات سامية وأصيلة عثر عنها بعض علماء النفس بأنها الأبعاد الأربعة لروح الإنسان وتشمل (١- حب العلم، ٢- حب الجمال، ٣- حب الخير، ٤- حب الدين) وتمثل شاهداً حياً على هذا الأمر<sup>١</sup>

وقد اعتبرها بعض العلماء خمسة أبعاد هي (١- مقونه البحث عن الحقيقة، ٢- مقولة الخير الأخلاقية، ٣- مقولة الجمال، ٤- مقولة الإبداع، ٥- مقولة العشق والعبادة)<sup>٢</sup>.

ويبدو أن مقولة الإبداع لا تنفك عن مقونه البحث عن الحقيقة على أية حال فإن حب العلم يوجد في إنسان ميلاً شديداً نحو العلم وفهم أسرار عالم الوجود، وهذا الإحساس يشمل الأمور لمؤثرة وغيرها في حياته.

وتريد أن تعلم كيف كانت الدنيا قبل ملبس عام وكيف ستكون بعد ملبس عام؟ دون أن تكون لهذه الأمور في فهمها على انحياء الفردية والاجتماعية تأثيرات عملية، فهذا الحس

هو السبب في ظهور العلوم والمعارف  
إن الجمال الذي يشعر به كل إنسان في أحماقه هو الذي يدفعه إلى الإبداع وهو المصدر الأساس لكل العنون.

وإن حب الخير هو السبب في ظهور الأخلاق والإلتزام في الإنسان تجاه المبادئ من قبيل العدل، الحرية، الصدق، وأمانتها، ومن الممكن أن لا يلزم كثير بهذه المبادئ عملياً غير أنه لا ريب في ارتياح قلوبهم لها.

البعد الرابع لروح الإنسان والمعتبر عنه أحياناً باسميل نحو الكمال المطلق أو البعد المقدس والإلهي هو الذي يدفع الإنسان نحو دين، وهو يؤمن بوجود ذلك المبدى العظيم بدون حاجة إلى دليل حاس، ويمكن أن يقرن هذا لإيمان الديني بألوان من الخرافات وينتهي بعبارة الأصنام والشمس و القمر، غير أن بحثنا يدور حول الأساس فيه.

١. راجع مقالة (كرونتايم) في كتاب (الحس الديني أو البعد الرابع لروح الإنسان).

٢ الفطرة، للشهيد المطهري، ص ٦٤

## (د) فشل الدعاية ضدّ الدين

نحن نعلم بأنّ دعايات شديدة لا مثيل لها من حيث السعة شتت صدّ الدين في القرون الأخيرة وخاصّة في الغرب بالاستفادة من الأساليب والوسائل المختلفة.

وكانت بداياتها في مرحلة النهضة العلمية في أوروبا (رئسانس) وفيها تحرّرت المحافل العلمية والسياسية من ضغوط الكنيسة وطمح تيار المعارض للدين (كان الدين المسيحي هو السائد وقتئذٍ في أوروبا) إلى درجة تُطرح فيها الأفكار الملحدة في كلّ مكان واستعلوا مكانة الفلاسفة وعلماء العلوم الطبيعية بشكل حاضٍ لرفض الأسس الدينية كلّها حتّى فقدت الكنيسة مكانتها المرموقة، وانعزل رجال الدين في أوروبا وأصبح الإيمان بوجود الله والمعجزات والمعاد والكتب السماوية هي عدد العرائف.

وعدا من المسلّمات لدى كثير منهم أنّ إشريّة مرّت بمراحل أربع هي (مرحلة الأساطير، مرحلة الدين، مرحلة الفلسفة، ومرحلة العلم، وحسب هذا التقسيم يكون الدين قد انقضى في مرحلة سابقة!

والعجيب أنّ كتب علم الاجتماع الحديثة التي تمثّل الصورة المكاملة لعلم الاجتماع السائد انداك تفرص هذه القصيّة من المسلّمات، وهي أنّ الدين يمثل عاملاً طبيعيّاً يتردّد بين الجهل والخوف والمتطلّبات الاجتماعية ولأمر الاقتصاديّة، فهناك اختلاف بصدها! صحيح أنّ السلطة الدينية الحاكمة (أي الكنيسة) في القرون الوسطى هي التي يجب أن تدفع الثمن بسبب استبدادها وظلمها وتعاملها سيّئ مع الناس بصورة عامّة وعلماء الطبيعة بصورة خاصّة، إضافةً إلى اهتمام الكنيسة بشكليات والمظاهر وبالأمر التي لا تستحقّ الاهتمام وسيان المحرومين من طبقات المجتمع، لكنّ لميب في هذا الأمر هو أنّ الكلام لم يكن عن البابا والكنيسة فحسب بل عن المذهب في العالم كلّها.

وقد دخل (الشيوعيون) كثيرهم انبيد ان يفتصوا على الدين بكلّ ما يمتلكون من قوّة، وسخّروا جميع الأجهزة الإعلامية وأفكار فلاسفتهم من أجل ذلك وسعّوا سعيهم لإظهار الدين وكأنّه أفيون الشعوب!

بيد أننا نشهد أن هذه التيارات العاتية صدف تدبير لم توقع لاجتثاث الجذور الدينية المعروسة في القلوب والقضاء على نشاط لديني، وها نحن اليوم نرى بأن أعيننا انتشار الوعي الديني بشكل واسع من جديد حتى في البلدان الشيوعية، والأخبار التي تتناقلها وسائل الإعلام تعكس عن الرعب المترديد الذي يعيشه الحكام في هذه المناطق إزاء الميول الدينية وخاصة الإسلامية، كما نلاحظ في لأقطار الشيوعية - التي تبذل محاولات يائسة وفاشلة للقضاء على الدين - ظهور حركات تطالب بانتشار الدين.

هذه الحقائق تدل بصورة واضحة على تحدر الدين في أعماق (المطهرة) البشرية، وبذلك استطاع أن يواجه التيارات الإعلامية المعارضة العاتية ولولاها لانقرض تماماً.

#### هـ) التجارب الشخصية في الأزمان

إن أغلب الناس حزّبوا هذه الحقيقة في حياتهم وهي: أن الإنسان حينما يواجه مشكلات قاتله، وشدائد الحياة الصعبة، ويتلقى بدوامات البلاء وحينما توحد بهوجه الأبواب ويبلغ السيل الزين، هي هذه اللحظات المفترقة يورق أمل في أعماق روحه، فينتجه إلى الله سبحانه القادر على حل المشكلات كلها فيتعلق به ويستمد العون منه.

ولا يستثنى من ذلك حتى الأشخاص الذين ليس لديهم ميول دينية حيث تصدر منهم ردود فعل روحية عند تعرضهم للأمراض الخطيرة والهزائم الماحقة وهذه شواهد على الحقيقة التي تتحدث عنها الآيات القرآنية السابقة حول فطرية المعرفة الإلهية.

نعم، في زوايا قلب الإنسان وأعماق روحه نداء لطيف مليء بالرحمة وقوي وبيّن يدعو إلى الحقيقة الكبرى، وهي (الله) القادر والمتملي والعالم، وبحسب الدور حول الإيمان بتلك الحقيقة لا عن تسميتها

#### و) شهادة العلماء على فطرية الدين

ليست قضية فطرة (معرفة الله) قضية مطروحة في القرآن الكريم والروايات الإسلامية

فحسب، بل إن كلمات العلماء والفلاسفة من غير المسلمين والشعراء عامرة بها:  
فمثلاً، يقول اينشتاين في حديث طويل، «درّ انعقيدة والدين موجودان في الجميع دون  
استثناء... إني أَسْئِله (الشعور الديني للخلق)... في هدّ الدين يشعر الإنسان الصغير بآمال  
وأهداف البشرية العظيمة والحلال الكامن حجب هذه القصايا والظواهر، إنه يرى وجوده  
كسجن، وكأنه يريد التحرّر من سجن الجسم ليدرك الوجود كلّهُ كحقيقة واحدة»<sup>١</sup>.

ويقول العالم الشهير ياسكال:

«القلب أدلّة لا يدركها العقل»<sup>٢</sup>

ويقول ويليم جيمر

«إني أقرّ تماماً بأن القلب هو المصدر للحبة لَدُنِيّة، كما أقرّ بأن القواعد الفلسفية تشابه  
موضوعاً مترجماً كُتِبَ نصّه بلغة أخرى»<sup>٣</sup>.

ويقول ماكس مولر:

«لقد حصع أسلافنا لله في عصور لم يكونوا قادرين فيها حتّى على إطلاق اسم على  
الله»<sup>٤</sup>.

وهو الفائل في موضع آخر: «خلاًفاً لما نقوله النظرية الشهيرة بأنّ الدين ظهر أولاً بعبادة  
الطبيعة والأشياء والأصنام ثمّ وصل إلى عبادة لله الواحد، فلقد أثبت علم الآثار بأنّ عبادة  
الله الواحد كانت سائدة منذ أقدم الأيّام»<sup>٥</sup>.

ويقول المؤرّخ الشهير (بلوتارك)

«لو لاحظتمّ العالم فإنكم ستجدون أماكن كثيرة لا عمران فيها ولا علم وصناعة وسياسة  
ودولة، ولكنكم لا تجدون موضعاً ليس فيه الله»<sup>٦</sup>.

١. العالم الذي أراه، ص ٥٣ (بتلخيص).

٢. مسير الحكمة في أوربا، ج ٢، ص ١٤.

٣. المصدر السابق، ص ٣٢١.

٤. مقدّمة الدعاء، ص ٣١.

٥. الفطرة للشهيد المظهري، ص ١٤٨.

٦. مقدّمة الدعاء، ص ٣١.

ويقول صموئيل كينج في كتاب (علم الاجتماع): «كان لجميع المجتمعات البشرية لون من الدين وإن قام علماء الأنساب وأرحانه و مبشرون (المسيحيون) الأوائل بذكر أسماء مجموعات لا تدين بدين أو مذهب، ولكن أقول لهم - كما علم فيما بعد - لم يكن لها أساس من الصحة فأحكامهم ناشئة فقط من طنهم بأن "ديان أولئك يجب أن تشابه ديننا" <sup>١</sup>. ونحتم هذا البحث بكلام لـ (ويل ديورانت) المؤرخ المعاصر الشهير حيث قال: «إن لم نتصور للأديان جدوراً في عصر ما قبل التاريخ، فإننا لا يمكن أن نتعرف على حقيقتها في التاريخ» <sup>٢</sup>.



#### ٤ - الفطرة في الروايات الإسلامية

إن قضية فطرة التوحيد في العبادة بشكل خاص أو الدين والمذهب بصورة عامة، أمر فطري ذو انعكاس كبير في الروايات الإسلامية بالرغم من اختلاف التعبير فيها، فهي بعضها عرّص لقضية التوحيد وتوحيد العبادة كأمر فطري كما هي الحديث الاتي، حيث سأل أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام - وهو علاء بن فضيل - عن الآية الكريمة: «فطرت الله التي فطر الناس عليها»، فأجاب عليه السلام: «التوحيد» <sup>٣</sup>

كما ورد هذا المصمون في أحاديث عديدة أخرى <sup>٤</sup> وفي القسم الآخر من هذه الأحاديث اعتبرت (معرفة الله) أمراً فطرياً، كالحديث الذي يرويه زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام حينما سأله عن تفسير الآية: «حَتَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ»: «هي الفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله؟ قال عليه السلام: فطرهم الله على المعرفة».

١ علم الاجتماع لصموئيل كينج، ص ١٩١

٢ قصة الحضارة، ج ١، ص ٨٨

٣ بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٧٧، ح ٤

٤ المصدر السابق، ج ٥، ٦، ٨، ١٠

وقال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بأن الله عز وجل خالقه»<sup>١</sup>.

وقد ورد هذا المضمون أيضاً في أحاديث أخرى<sup>٢</sup> وبعض الروايات تعرف (الأصول الإسلامية) كلها أمراً فطرياً، كما نقرأ في الحديث النبوي الشريف: «كُلُّ مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه»<sup>٣</sup>.

وقد نقلت النصوص الشيعية والسنية هذه لحديث بكثرة وهو من الأحاديث الشهيرة جداً.

وبلاحظ نظير هذا المضمون في روايات أخرى وفيها تأكيد على قضية التوحيد ونبوة الرسول الأكرم ﷺ وولاية علي ﷺ<sup>٤</sup>.

وختاماً فإن بعض الروايات تؤكد على قضية الولاية، كما نقرأ الحديث الذي يرويه أبو بصير عن الإمام الباقر ﷺ في آية البحث حيث عثر عن المصنوع في الآية بأنه: «الولاية»<sup>٥</sup>. وواضح أن هذه التعاسير لا تنافي فيما بينها أبداً. فالأصول الدينية - في الحقيقة - توجد في الفطرة البشرية بصورة مركزة، غير أن بعض الروايات تشير إليها كلها وبعضها الآخر يشير إلى قسم منها.

وفي الحقيقة فإن طهر التوحيد لا يمكن أن تتفصل عن أصول العقيدة لأن الله الحكيم لم يخلق العباد عبثاً، ومن البديهي أنه وضع تكليف ومناهج لتكامل العباد يجب إطلاعها عن طريق الرسل، ويحفظها أوصياؤهم وتنقذ عن طريق الولاية وتشكيل الحكومة الإسلامية وتظهر نتائجها في عالم الآخرة.

١. بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٧٩، ح ١١

٢. المصدر السابق، ج ١٢، ١٣.

٣. غوالي للآل، طبقاً لبحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٨١، ح ٢٢

٤. بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ح ٣، ٩، ١٨

٥. المصدر السابق، ح ٢

وباختصار فإن في متناول أيدينا روايات كثيرة حول فطرة التوحيد والإسلام والمزيد يمكن مراجعة مصادر أخرى مثل:

تفسير البرهان الجزء ٢، صفحة ٤٦ وما بعدها

مرآة العقول الجزء ٧، صفحة ٥٤ وما بعدها.

تفسير نور الثقلين الجزء ٤، صفحة ١٨١ وما بعدها.

تفسير الدرّ المشور الجزء ٣، صفحة ١٤٢ وما بعدها

بحار الأنوار الجزء ٣، صفحة ٢٧٦ وما بعدها.

❦❦❦



تجربہ نامہ



# وحدانية الذات المقدسة

«أهم أصل في معرفة الله»



مکتبہ اسلامیہ

## تمهيد:

توصلنا فيما سبق من أبحاث إلى إثبات وجود الله سبحانه بطرق مختلفة (خمسة أدلة عقلية رئيسة) إضافة إلى طريق الفطرة الذاتية.

الآن وبعد الإيمان بأصل وجوده سبحانه فإن البحث يدور حول معرفته، والموضوع المهم فيه هو بحث التوحيد والوحدانية، لأنه من جهة يعتبر أصلاً لبقية الصفات، ومن جهة أخرى يشكل الأساس في كل الأديان السماوية خصوصاً القرآن حتى أن أغلب ما تتضمنه هذه الكتب السماوية بصدد وجود الله تدور حول محور هذا البحث، إلى الحد الذي ظن فيه البعض بأن القرآن لا يتحدث عن (أصل وجود الله) بل إنه يتحدث عن توحيده والاستدلال على ذلك، وهذا الكلام مبالغ فيه.

ومن جهة ثالثة تستمد جميع العقائد الإسلامية والأحكام والفوانين والأمر الاجتماعية والأخلاقية والعبادية من هذا الأصل، لذلك ولي القرآن الكريم اهتمامه الخاص لقضية (التوحيد والشرك) وعكس القرآن برمته النظرية الإسلامية بهذا الصدد، بل يمكن القول بعدم وجود موضوع حظي بهذه الدرجة من الاهتمام في القرآن الكريم مثلما حظي بها ذلك الموضوع

كما أن قضية التوحيد ومحاربة الشرك لم تكن محوراً أساسياً في حركة الرسول الأكرم ﷺ فحسب، بل وفي حركة سائر الأنبياء ﷺ.

بهذا التمهيد نطلع أولاً على عظم معصية شرك في القرآن المجيد، ثم نذكر الأدلة القرآنية المختلفة على إثبات حقيقة التوحيد وبطلان الشرك في البديهة تأمل حاشمين في الآيات الآتية:

١- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.  
(النساء / ٤٨)

٢- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.  
(النساء / ١١٦)

٣- ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَهْبَطُنَّ عَنْكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾  
(الزمر / ٦٥)

٤- ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.  
(لقمان / ١٣)

٥- ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ تَهْتَطُّهُ الطُّيَرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.  
(الحج / ٣١)

٦- ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِ أَنْ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.  
(الأنعام / ١٥١)

٧- ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.  
*مررت به في طريق مكة*  
(المائدة / ٧٢)

٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الشِّرْكُ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بِغَدَاةٍ عَلَيْهِمْ هَذَا...﴾.  
(التوبة / ٢٨)

٩- ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ بِوَيْحٍ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ...﴾.  
(التوبة / ٣)

١٠- ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهُ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ...﴾.  
(النور / ٣)

١١- ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبٍ﴾.  
(الرعد / ٣٦)

١٢- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ \* أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي

- أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ١. (هود / ٢٥-٢٦)
- ١٣- «قُلْ إِنَّمَا يُرِيتُكُمْ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ قَهْلُ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» (الأنبياء / ١٠٨)
- ١٤- «مَذْكُورٌ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ خَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ». (الممتحنة / ٤)

### شرح للمفردات:

«شريك»: ذكر لها في مقاييس اللغة مصبان:

الأول: هو التعاون والمقارنة والشركة ويقصد الإفراد.

والثاني: هو الشيء المستقيم والمستد.

والمعروف من مشتقات هذه المفردة هو المعنى الأول، وللمعنى الثاني مصطلحات خاصة بها (شريك) للحذاء، و(شركة) الطرق الضيقة المستقيمة التي تتفرع من الطريق العام أو بمعنى القسم الأوسط من الطريق المستقيم، كما يعني الفخ الذي يصيبه الصياد ويصير بعض اللغويين على إرجاع المعنيين إلى المعنى الأول، إلا أنه لا يخلو من تكلف، كما لا دليل يدعو للإصرار على ذلك<sup>١</sup>.

وقد استعمل (الشريك) في القرآن الكريم عادة بمعنى الاعتقاد بوجود نداء الله سبحانه والتوافق على وجود المثل والشريك في أئمة أو الصفات أو الخلق والتدبير أو المماثل له في العبودية.

١ جاء هذا المضمون في آيات قرآنية أخرى مثل هود، ٢: الإسراء، ٢٢: يس، ٦٠: فصلت، ١٤: إضافة إلى آيات عديدة أخرى عبارات مختلفة تتعلق بأهمية التوحيد ونبذ الشرك بجميع صور وأشكاله، لو جمعت وفسرت لتألف منها كتاب كبير، وما ورد أعلاه هي النماذج المهمة منها

٢ راجع كتاب (التحقيق في كلمات القرآن الكريم)، صحيح أن أغلب الكلمات المشتركة ترجع إلى مصدر واحد ولكن لا يمكن القول أن ذلك يصدق في جميع الموارد، فقد تضع طائفتان كلمة واحدة لمعنيين متباينين دون أن تعلم إحداهما بالأخرى.

يقول الراغب في المفردات: الشرك في اثنين ضربان:

أحدهما: الشرك العظيم وهو إثبات شريك لله تعالى وذلك أعظم كفر.

والثاني: الشرك الصغير وهو مراعاة غير الله في بعض الأمور وهو الرياء والنفاق<sup>١</sup>.

«واحد»: مشتق من (وحدة) ويعني في الأصل - كما يقول الراغب في المفردات - الشيء الذي لا جزء له، ثم اتسع استعماله حتى أخذ يطلق على كل شيء يتصف بالوحدانية، ويصيف:

فألواحد لفظ مشترك يستعمل على ستة<sup>٢</sup> وجه ١- ما كان واحد في الجنس أو في النوع كقولنا الإنسان والفرس واحد في الجنس وريد وعمرو واحد في النوع.  
٢- ما كان واحداً بالاتصال إما من حيث حلقة كقولك شخص واحد وإما من حيث الصاعمة كقولك حرفة واحدة.

٣- ما كان واحداً لعدم نظيره.

٤- ما كان واحداً لامتناع التجزئ

٥- لبداً العدد كقولك واحد إله<sup>٣</sup>

٦- لبداً الحط كقولك النقطة الواحدة وذ وصف الله تعالى بالواحد فمعناه هو الذي لا يصح عليه التجزئ ولا التكثّر<sup>٤</sup>.

«وأحد وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد، غير أن لأحد إنما يطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجاً ولا دهنأً ولذلك لا يقبل العدد، ولا يدخل في العدد بخلاف الواحد فإن كل واحد له ثاني وثالث إما خارجاً أو دهنأً [ك] قولك: ما جاءني من القوم أحد، فإنك تنفي به مجيء اثنين منهم وأكثر كما تنفي مجيء واحد منهم بخلاف ما لو قلت: ما جاءني واحد منهم فإنك إنما تنفي به مجيء واحد منهم بالعدد ولا ينأيه مجيء اثنين منهم أو أكثر...»<sup>٥</sup>.

١. مفردات الراغب، ص ٢٦١ مادة (شرك)، لسان العرب - تحقيق: معاني اللغة، جبهة اللغة وكتب أخرى.

٢. مفردات الراغب، ص ٥٥١ مادة (واحد)، لسان العرب - التحقيق: معاني اللغة، جبهة اللغة وكتب أخرى.

٣. تفسير الميراث، ج ٢٠، ص ٣٨٧.

واحتمل بعض أن (أحد) يقابل المركب (واحد) يقابل المتعدد، غير أن الاستفادة من موارد الاستعمال في القرآن أنهما بمعنى واحد، وسفصل ذلك في المستقبل بإذن الله

### جمع الآيات وتفسيرها

#### للخشب الذي لا يختفر:

تصرح آية البحث الأولى بأن الشرك هو بسبب الوحيد الذي لا يعترف حيث تقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ».

ومعهوم هذه العبارة هو أن جميع الذنوب تكبيرة والمظالم والجرائم والفبائح لو وصفت في كفة ميزان ووصف الشرك في الكفة الأخرى لرحمت كفة الشرك. ولذا يقول ذيل الآية من أجل التأكيد أو إقامة الدليل: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا».

ويعتمد بعض المفسرين أن الآية برئت من اليهود (معرفة الآيات التي بعدها) حيث اتحد بعضهم مع المشركين العرب وكانوا يقدسون أصنامهم ويعتقدون - في الوقت ذاته - أنهم من أهل النجاة!

ولو سلمنا بسبب الرسول هدايته لا يضيق دائرة معومها

وقال بعض: إن الآية نزلت في جمع من مشركين (كوحشي قاتل حمرة عم النبي، وأمثاله) وقد ندموا على ما فعلوا بعد مدة وكتبوا إلى رسول الله ﷺ: «إِنَّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَىٰ الَّذِي صَنَعْنَاهُ وَلَيْسَ يَمْنَعُنَا عَنِ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِأَسْمَعُ تَقُولُ وَأَنْتَ بِمَكَّةَ «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ...» (الفرقان / ٦٨) وقد دعونا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس التي حرم الله ورنينا فلولا هذه لاتبعتك فنزلت هذه الآية: «إِلَّا مَنْ تَابَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا...» (الفرقان / ٦٩)

فبعث بهم رسول الله ﷺ إلى وحشي وأصحابه، فلما قرؤوها كتبوا إليه: إن هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل عملاً صالحاً فلا نكون من أهل هذه الآية فنزلت: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ...» فبعث بها إليهم فقرأوها فبعثوا إليه: يا محاف أن لا نكون من أهل مشيئته فنزلت:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.  
(الزمر/٥٣)

فبحث بها إليهم فلما قرأوها دخل هو وأصحابه في الإسلام ورجعوا إلى رسول الله ﷺ فقبل منهم...<sup>١</sup>

على أية حال فإن الآية كما يقول كثير من المفسرين - هي إحدى الآيات القرآنية التي تبعث روح الأمل حيث تقول: إن الإنسان إذا خرج من الدنيا بإيمانه فإنه سوف لا يأس من رحمة الله، ولكن إذا خرج بلا إيمان أي في حالة شرك فإنه لا سبيل له إلى النجاة.



الآية الثانية تتحدث عن مصور الآية السابقة داته مع فارق هو أنها تقول في ذيلها ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾<sup>٢</sup> والكلام في الآية السابقة دار حول الإثم العظيم وأما هنا فهو يدور حول الضلال البعيد، وهذان أمران متلازمان إذ أن الذنب كلما كان أعظم فإنه يبعد الإنسان أكثر ويزيده ضلالاً.

والآية السابقة لاحظت الجانب العلمي وبعائدي من الشرك وهنا لاحظت الآثار العملية له، ومن الأكيد أن هذه الآثار تتشأ من تلك الحدود.



الآية الثالثة تحمل أوضاع التعابير وأفساد عن عاقبه الشرك والانحراف عن التوحيد حيث تخاطب النبي الأكرم ﷺ: ﴿لَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

ومن الثابت أن رسول الإسلام ﷺ وكل نبي من الأنبياء، لم يسلكوا - لمصمتهم - طريق الشرك أبداً، إلا أن الآية ومن أجل بيان أهميته لمسألة ولكي يحسب الآخرون حسابهم



قامت ببيان أخطار الشرك بهذه الدرجة من الحرم.

واستناداً إلى هذه الآية علو أغنى الإنسان حياته في العبادة وعبودية الله ومارس الأعمال الصالحة ولكنه أشرك في آخر عمره لحظة واحدة ومات بتلك الحالة فإن أعماله سوف تُحبط، فالشرك بمنزلة صاعقة محرقة تُلتهم حصلة عمره وتصيره رماداً، وكما أشار القرآن الكريم في الآية ١٨ من سورة إبراهيم إلى أنه رمداً اشتدت به الريح في يوم عاصف.

«لِيَحْبِطَنَّ»: من (حبط) وأصله (حَبَطَ) ويطلق على الحيوان حينما يأكل الكلأ حتى ينتفخ فيمرض ثم يموت، ثم استعمل في الأعمال لكثرة ذات المظهر الحميل ولكن باطنها فاسد وتؤول إلى الفناء<sup>١</sup>.

وقد جاء مظهر ذلك في (لسان العرب) و(مصباح اللغة)، غير أن لسان العرب ذكر أن أحد معاني (إحباط) هو جفاف ماء البئر وعدم توقعه.

وفي (مقاييس اللغة) أن الأصل في (شعناء) هو (البطلان) أو (الآلَم) كما أن (حبط) يطلق كذلك على الجرح بعد شمانه.

على أية حال فإن هذه المردة في آية البعث والكثير من الآيات والروايات تعني محق ثواب الأعمال الصالحة وزوال آثارها الإيجابية

وهناك أبحاث حول حقيقة حبط الأعمال وكيفيته ولكن لا مجال لبيانها.

❦❦❦

### أعظم الظلم:

نقرأ في الآية الرابعة تعبيراً مهولاً حول الشرك على لسان لقمان حينما كان يحفظ إيسه بقوله: «يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِإِلَهِهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»

ولقمان وإن لم يكن نبياً - كما هو المشهور - إلا أنه كان رجلاً حكيماً ومفكراً الله وقد أيد القرآن علمه وحكمته وجعل كلامه في عرص كلام الله عز وجل، وبالتالي كيد أن مثل هذا

١ مفردات الراغب، مادة (حبط).

الرجل بعلمه وحكمته وإحساسه بمنتهى المسؤولية تجاه ابنه فإنه يقدم له أحسن النصائح والمواعظ.

النصيحة الأولى من النصائح العشر التي يفلها القرآن الكريم عن هذا الرجل الحكيم لابنه هي النصيحة بالاحتراز المطلق من الشرك، مما يدل على أن الأساس في بناء الفرد والإصلاحات الفردية والاجتماعية والأخلاقية كلها، هو مقارعة الشرك بكل أشكاله وصوره، وسيكون لنا كلام - بإذن الله - في بيان العلاقة بين الشرك وبين هذه القضايا، وقد احتمل البعض أن ابن لقمان كان مشركاً فهاء أبوه ولكن - كما يقول بعض المفسرين -؛ يمكن أن يكون الكلام على شكل تحذير وذلك لأهمية القضية نظير ما ورد في الآية السابقة من تحذير إلهي للأنبياء.

والتعبير بـ (ظلم عظيم) ذو مصمون كبير، فالظلم في الأصل يعني كل انحراف عن الحق ووضع الشيء في غير محله، وأسوأ أنواع الظلم هو الظلم الذي يكون بحق الله، عباده ونفسه، وهكذا الشرك

فأي ظلم وانحراف أشد من جعلهم موجودات لا قيمة لها بمستوى خالق السماوات والأرض وجميع الموجودات؟ وأي ظلم أشد على عباده الله من انحرافهم عن جادة التوحيد النورانية إلى ظلمات الشرك؟ وأي ظلم أشد على النفس من أن يوجع الإنسان بارأ يهرق فيها حصيلة أعماله الصالحة ويحولها إلى رماد؟

﴿٢٢﴾

### السقوط الموحش:

تصرح الآية الخامسة بعد أن أمرت المسممين بأن يكونوا موحدين مخلصين وأن يتركوا طريق الضلالة والشرك ومن حلال تشبيه ذي معنى كبير: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾<sup>١</sup>.

١. «تخطف» من «خطف» وهو الاستلاب بسرعة و(سحيق) من (سحق) وهو طمس الشيء وقد تعطي هذه المعردة معنى (الملايس نبالية) أو (المكان البعيد والأخير هو الأسب في مورد الآية من غيره).

وقد شبهت الآية (الإيمان) بـ (السماء العالية) و(الشرك) بـ (السقوط من هذه السماء) [لاحظوا أن (عز) كما يقول اللغويون: يعني انسقوط المقرون بضجة وليس المجزء منها].  
وليس هذا السقوط سقوطاً بسيطاً بل مكسف بخطرٍ عظيمين هما  
أن الساقط إما أن يكون فريسة للطيور الكسرة أو يتلاشى بسبب هبوب الرياح العاصفة  
التي تقذفه في مكان بعيد عن الماء والمناطق المسكونة.  
وهذه العبارات المخيفة توضح الأبعاد الحاضرة والكبيرة للشرك  
وهذه الطيور في الحقيقة هي الصدف القبيحة الباطنية أو الفئات المعروفة في الخارج  
والتي تنصب الكمين لتجذب من ينحرف عن جادة التوحيد، و(الريح) هي تلك الشياطين  
الذين عبرت عنهم تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزَّاءٌ﴾.

(مريم / ٨٣)

حيث تنحى نحو المشركين وتضع الأسلاسل في رقابهم وتسحبهم إلى كل جاسب، أو أنها  
العواصف الاجتماعية العامية والفقر الميأسية والعجز والأخلاق التي لا يصمد أمامها إلا  
من ثبتت قدماء في طريق التوحيد.

❦❦❦

في الآية السادسة يؤمر النبي ﷺ بتهيار محرمات للناس وفي مقدمتها الشرك حيث  
تقول ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ...﴾<sup>١</sup>  
ثم تذكر أوامر إلهية عشرة عرفت بـ (أوامر نبي العشرة)؛ وأولها هو الدعوة إلى التوحيد  
حيث تقول: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ راجع تفسير الأمثل للإطلاع على الشروح والأوامر  
التسعة المتبقية في ذيل هذه الآيات.

❦❦❦

١. «تعالوا» من «علوه» ويعني أن يقف شخص على مرتفع ثم يدعو الآخرين إليه (أي أصدوا) ثم توسع استقصاه  
وشمل كل دعوة (تفسير المصباح، ج ٨، ص ١٨٢) ومن الممكن أن يكون المراد في هذه الدعوات الإلهية هو المعنى  
الأصلي حيث يريد النبي أن يصعد بالناس إلى مستوى أرفع وأسمى.

### الجنة محرمة على المشركين:

الآية السابعة تشير بتعبير حديد إلى خطر الشرك، حيث تنقل عن السيد المسيح عليه السلام خطابه إلى بني اسرائيل: «إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِإِلَهِهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ». وفي الجملة الأولى يلاحظ ذكر لفظ الجلالة كما يلاحظ تكرارها في الجملة الثانية: «فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»، وهي تقتضي استعمال الصمير، وذلك للتأكيد على أهمية المسألة.

وتصيف الآية في ذيلها: «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ». وهذا دليل آخر على ظلم المشركين وليس لأحد الجراءة في الدفاع عنهم يوم القيامة.

❦❦❦

### الله يرى من المشركين:

نواجه في الآية الثامنة قصة حديثه يهدد الصدور بحيث نهاطب المؤمنين «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» ثم يقول: «فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا» وتقتضن الآية التأكيد على عدة جهات.

الأول: أنها استعملت (نَجَسًا) والتي تدل على العسر، ومفهومها أن المشركين ليسوا إلا موجودات فاسدة ونجسة وفي ذلك كبر تأكيد ومبالغة.

والثاني: أن (نَجَسًا) يتضمن معنى المصدر، أي أن المشركين هم عين النجاسة كما يقال فلان عين العدل، وهذا غاية في المبالغة.

والثالث: أنها لم تقل: «فَلَا يُدْخِلُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» بل «فَلَا يَقْرَبُوا» بمعنى أن المشركين من القذارة ما يحسنى على هذا المكان المقدس أن يتعرض لها عند اقترابهم منها.

❦❦❦

١ «نَجَسًا» مصدر و«نَجَسَ» صفة وهذه الكلمة كما يقول الراغب في المفردات:

النجاسة: القذارة وذلك ضربان: ضرب يدرك بالعمامة وضرب يدرك بالبصيرة (المفردات مادة (نَجَسَ)، ص ٥٠٣) وفي التفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٠ كل مستفرد نجس، يقال: رجل نجس وامرأة نجس، المجمع

في الآية التاسعة التي نزلت - مع مجموعة من الآيات في السنة التاسعة للهجرة - بصفتها إعلاناً عاماً، ملاحظ إشارة إلى نقطة أخرى مُر أمير المؤمنين عليه السلام بتلاوتها على الناس في مواسم الحج ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾<sup>١</sup>.

والتعبير بالبراءة من قبل الله ورسوله من المشركين بوصفه إعلاناً عاماً في أكثر أيام الحج حساسية دليل على الفور من المشركين ويسأل لصحامة معصية الشرك بأجل صورته

﴿٥٥﴾

وملاحظ في الآية العاشرة تعبيراً حديداً، حيث اعتبرت المشرك والمشركة في عرص الراسي وقال: «الرَّاسِي لَا يَنْكَحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ...»<sup>٢</sup>.

وهذا التعبير سواء كان لبيان حكم شرعي وإلهي وهو حرمة الزواح من أهل الربا والشرك أو كان إشارة إلى واقع خارجي وهو أن الفلن يتبع القدر، فائماً، والطيور على أمثالها تقع فهو شاهد بليغ على قبح معصية الشرك، لأنها اعتبرت المشركين كالموثنين بالربا والعاقدين للقيم الخلقية والسجايا الإنسانية.

والحديث الوارد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله «لَا يَزْنِي الرَّاسِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ خُلِعَ عَنْهُ الْإِيمَانُ كَخُلْعِ الْقَمِيصِ»<sup>٣</sup>، وهناك شاهد آخر على العلاقة بين هذين، وسيأتي شرحه بإذن الله.

١ سُر الكثير من المنسوين (يوم الحج الأكبر، بعيد الأضحي وهو أيام الحج، والروايات الواردة عن أنتم أهل البيت عليهم السلام وأبناء السنة تؤيد هذا المعنى، في حين سُر بعضهم يوم عرفة وبعضهم الآخر بمجموع أيام الحج التي يطلق عليها (الحج الأكبر) وتقابل العمرة وهي الحج لأصغر، وقد حصصها آخرون بسنة برول الآية حيث شاركه المستسلمون والمشركون في مرسوم الحج في تلك السنة، وروى أن التفسير الأول هو الأرجح من هذه الاحتمالات الأربعة.

٢، تفسير نورالتقديس، ج ٢، ص ٥٧١، ح ٢٠.

ومن الواضح أن زواج المؤمنين من المشركين باطل وحرام، وأمّا الزواج بأهل الزنا فإن بعضاً يرى بأنهم إن اشتهروا به ولم يتوبوا كان الزواج بهم باطلاً أيضاً.

والأحاديث العديدة التي نقلت عن النبي ﷺ والإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام شاهد آخر على هذا المعنى.

وقد كتب بعض المفسرين في شأن مروي هذه الآية ما يلي أن رجلاً من المسلمين استأذن النبي ﷺ في أن يتردّد (أم مهزول، وهي امرأة كانت تسافح ولها راية على بابها تعرف بها، فنزلت الآية<sup>١</sup>).



الآية الحادية عشرة بيّنت أهمية التوحيد وفتح الشرك ولكن بتعبير آخر، حيث وجهت أمراً إلى النبي الأكرم ﷺ «قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ» والتعبير بـ (إنما) الدالة على الحصر عادة دليل على أن دعوته النبي ﷺ تتلخص في قصته التوحيد ورفض الشرك<sup>٢</sup>، وهو الحق، لأن التوحيد قوام التعليمات السماوية كلها، كما أن الشرك هو أساس الوسواس الشيطانية كلها.

وتؤكد الآية في ذيلها تأكيداً مصاعفاً: «إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ».



الآية الثانية عشرة تتحدث عن النبي نوح عليه السلام وهو أول الأنبياء من أولي العزم حيث جعل الأساس في دعوته هو الدعوة إلى التوحيد ورفض الشرك، والملاحظ أن هذا التعبير ورد أيضاً عن الكثير من الأنبياء، قال تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ

١. تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ١٢٥

٢. ولو افترضنا هذا الحصر حصراً إضامياً فإنه يدل أيضاً على أن المبودية كلها تتلخص في المبودية لله (مشتاغل جيداً).

مُبينٌ» وتضيف: «وَأَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ»

وتكرار هذا الكلام من قبل الأنبياء من لدن نوح وحتى رسول الإسلام الأكرم ﷺ دليل على أَنَّ السام الأعلى في دعوة الأنبياء، هو قضية التوحيد ومقارعة الشرك وهو القاسم المشترك بين الديانات السماوية، ولذا نقرأ في قوله تعالى «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ».

وهذا أصل ثابت لم يتغير بمرور الزمان ولم يكن أمراً وقتياً، بل هو الأساس الثابت في الديانات السماوية كلها، وكل ما يتعرض له أهل الديانات المختلفة من مآسي، ناشيء من الانحراف عن هذا الأصل.

❦❦❦

وفي الآية الثالثة عشرة نعيم جديد عن هذا المعنى وتلخص دعوه الأنبياء ﷺ باستخدام الأداة (لَمَّا) الدالة على العصر في قصيدة التوحيد حيث تقول: «قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّ إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ قَهْلَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

❦❦❦

**إبراهيم عليه السلام الأسوة الحسنة في مقارعة لشركه:**

الآية الرابعة عشرة تذكر هذا المصمون في قالب جميل آخر حيث تعرف النبي إبراهيم عليه السلام المقدام والمكسر للأصنام بالقدوة في الدفاع عن قضية التوحيد ومحاربة الشرك محاربة لا هوادة فيها حيث قالت: «قَدْ كُنْتُ لَكُمْ أُسْوَةً حَسَنَةً فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ»، ثم تقدم توضيحاً عن الأسوة الحسنة هذه بقوله تعالى: «إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ...»، وأصابت - للتأكيد المكرر - «كَفَرْنَا بِكُمْ...».

إنَّ الكُفر بالأشخاص يعني إعلان لبراءة منهم، لأنَّ هذه المفردة (الكُفر) ذات معانٍ خمسة حسب الروايات الإسلامية، أحدها كفر البراءة، ولم تكتفِ بذلك بل أضافت: ﴿وَيَدَّأِ يَبْتَنَّا وَيَتَّكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِسُوا يَافَا وَحَدَّهُ﴾

وإنَّ هذه التعابير (البراءة أولاً ثمَّ إعلانها ثمَّ الإعلان عن العدواة الدائمة) لشاهد صريح على صلابة الموحدين تجاه القدرين الملوئين بالشرك وعبادة الأوثان، وحيثما نلاحظ أنَّ القرآن يذكر كلام النبي إبراهيم عليه السلام ونُصاعه كقدوة للمسلمين فإنَّ ذلك يعني أنَّ الإسلام لا يعرف أية مهادنة بين التوحيد والشرك في أية مرحلة

ومن التعمق في تعبير الآية تتكشف الأهمية البالغة لهذه القصيدة، فالتعبير بـ (قومهم) دليل على أنَّ غالبية القوم هم من عبدة الأصنام وأنَّ الموحدين قليلون، ويبدو أنَّ هذا الحوار جرى في (بابل)، التي هي مركز عبدة الأصنام في ظلَّ سلطة الطاغية (النمرود)، ولم تعتمد هذه المجموعة الصغيرة المؤمنة إلى مساهرة الوضع السائد، ولم تعمل بالتقية بحاه المشركين في مسألة التوحيد.

وفي جانب تقول: ﴿إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِنْ

و في جانب آخر: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ...﴾

و في ثالث: ﴿تَتَّبِعُوا مِنْ أَصْنَانِكُمْ﴾

ومن جهة (أنا نعتبركم أعداء لنا)

و من أخرى: ﴿إِنَّا نَكِينُ لَكُمْ الْعَدَاءِ﴾

وفي كلِّ جملة من الآية تعبير جديد عن عدم المداينة والمسالمة.

والفرق بين (العدواة) و(البغضاء) - كما هو مستمد من كلمات اللغويين - هو أنَّ

(العدواة) لها جانب عملي في الغالب، أمَّا (البغضاء) فلها جانب قلبي، وإنَّ استعمال كلِّ منهما مكان الآخر.

وبهذا أعلنوا أنَّهم بُرَّاء من الشرك بكلِّ وجودهم وصامدون أمامه مهما كانت الظروف،

وينبغي أن يكون ذلك أسوة حسنة لكلِّ المؤمنين في العصور كلّها



و «أسوة» تعني في الأصل - كما ورد في (مقاييس اللغة): العلاج والإصلاح، ولذا يطلق على الطبيب (أسي).

و «أسي»: تعني الغم والحزن، ومن المحتمل أن يكون بسبب اقتران علاج المريض والجريح - عادةً - بالغم والوجع. ومن ثم استعملت بمعنى الإتيان والمتابعة نظراً لاستدعاء العلاج وإصلاح المتتابعين.

إلا أن الراغب في مفرداته يعبر عن المعنى الأصلي لـ (أسوة) قائلاً بالاتباع في الصالحات أو السيئات<sup>١</sup>.



يتضح من الآيات الأربع عشرة لستقدمة والتي كثرت نظائرها في القرآن الكريم أن قصة التوحيد والشرك هي القضية المركزية والمهمّة في نظر القرآن بشكل لا تحوز معه أية مداهمة أو مهادنة أو معاناة مع الشرك (والمشركين)، ولأنّ من اجنثا جذور الشرك بجميع صورته، فإنّ تحقيق ذلك عن طريق التعليم الثقافي والمصطقي والاستدلال فهو وإلا فإن الواجب هو الحزم العملي تجاهه.

إنّ التوحيد رأس مال المؤمن ولبضاعة لمرموقة في سوق القيامة، والشرك ذنب لا يعتفر، والمشرك موجود فذر يجب لثبته، منه كذباً حتى يعدل عن انحرافه ويعود إلى الإيمان.



### توضيح

لماذا هذا الإهتمام الكبير بقضية التوحيد ولشركه؟

نحن نعلم بصورة إجمالية إنّ للإسلام بل والديانات السماوية كلّها حساسية غير

١. يعتقد البعض أنّ (أسي) يستعمل كفعل ناقص واوي رياضي، من كان ناقصاً يأتيه بأنه يحني الحزن والغم، ولذا تطلق المساء على الفجعة العظيمة، ولو كان ناقصاً واوياً فهو يحني المعالجة والإصلاح

اعتيادية تجاه الشرك، غير أن الدليل على ذلك ليس واضحاً للكثير، ويمكن تقديم أربعة أدلة أساسية على هذه الحساسية والإهتمام بقضية التوحيد والشرك المصيرية:

١- التوحيد هو الأساس لمعرفة صفات الله ولا يمكن إدراك الصفات دون ملاحظة أصل التوحيد، لأن وحدانيته - كما سيأتي توضيحها - تنشأ من لا محدوديته، والوجود جامع لكل الكمالات وخالي من كل عيب ونقص، والحقيقة أننا لو عرفناه بتوحيده الحقيقي فسوف نعرف صفاته كلها، بيد أن الاعتقاد بالشرك هو الذي يصدنا عن ذلك.

٢- فروع التوحيد تملأ عالم الوجود ذات الله المقدسة، حيث أن عالم الوجود واحد وهو متصل بالأجزاء وتحتاج معرفته الصحيحة إلى دراسة أجزائه مجتمعة، ولو تصورنا موجودات العالم كوجودات متفرقة فإننا سوف نحظى كثيراً في معرفة العالم وإذا سألنا أنفسنا: من أين تلقينا هذا الدرس، وهو أن عالم الوجود كتلة واحدة؟

**الجواب:** من وحدانية الله، لأن وحدة الله دليل على وحدة العالم، ووحدة العالم دليل على وحدته تعالى. ﴿عَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاطُوتٍ فَأَرِجْ إِلَيْهِ فَهُلْ تُرَى مِنْ قُلُوبٍ﴾ (الملك / ٣)

٣- إن أهم العناصر التي تبعث على تطور عالم الإنساني وتكامله هو وحدة المجتمع البشري، فالاختلاف والتفرق - كار وسعى - هو العامل على الدمار والضعف والتخلف، في حين يشكل الاتحاد والوحدة الحجر الأساس للقوة والإقتدار والعمران والبناء

إن الإيمان بالله بمثابة حلقة الوصل التي تؤلف بين الملايين من البشر وتزيل الفوارق العنصرية والجغرافية والقومية واللغوية.

إن سبب الانحراف عن أصل التوحيد والإيمان جعل كل قبيلة عربية في زمن الجاهلية تعبد صنماً يختلف عن أصنام القبائل الأخرى وهم في غاية الضعف والانحطاط، فجاء الإسلام وحطم الأصنام وربط القلوب بحبل توحيد في فترة قصيرة وصنع منها مجتمعاً قوياً ومتطوراً ذا حكومة امتدت لتشمل العالم فضلاً عن الجزيرة العربية.

٤- التربية على الأخلاق والقيم الإنسانية تتوفر في ظل التوحيد أيضاً لأن الأساس في

الأخلاق الفاضلة هو الإخلاص وتزويه القلب من الشرك، والأساس هو جعل الدوافع العملية دوافع إلهية فقط، أي التحرك من أجله فقط والجهاد في سبيله والسهر نحوه والإحتراز من أي دافع آخر

فالتوحيد هو الذي يعلم الإنسان درس الإخلاص في النية، درس مقارعة كل رياء وشرك، ومحاربة هوى النفس والجهل والدنيا والشیطان ويهدا ترى كلاً من التوحيد والشرك يترك تأثيره لميق على العفائد والأعمال والنیات والأخلاق في الفرد والمجتمع.

ولذا وجه الإسلام اهتماماته تجاه هذه القضية، وهنا نختم البحث بحديثين،  
في حديث عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال لعبدلقة بن مسعود: «يا ابن مسعود، إياك أن تشرك بالله طرفه عين، وإن نشرت بالمنشار أو قطعت، أو سلبت أو أحرقت بالنار»<sup>١</sup>  
وفي هذا الحديث الشريف يبرر الأهمية القصوى للتوحيد.  
وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «يُنْذَرُ نبي أمية أطلقوا للناس تعلم الإيمان ولم يطلقوا تعليم الشرك لكي إذا حملوهم عليه لم يعرفوه»<sup>٢</sup>.  
وهذا الحديث شاهد واضح على أن الشرك يمكن أن يكون وسيلة هدامة سياسياً واجتماعياً بيد فئة ظالمة، وفي المقابل يمكن أن يقوم الإيمان بالتوحيد وفروعه باجتثاث حذور هؤلاء الظالمين.



نتطرق في بحث التوحيد لمهتين:  
الأولى: أن ذات الله لا تتركب من أجزاء (خارجية أو عقلية).  
والثانية: هي أن ذاته لا شبيه لها ولا مثيل، لذا فهو واحد من كل جهة.  
ونجد في القرآن أدلة في هذا المجال منها:

١. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٠٧.

٢. أصول الكافي، ج ٢، ص ٤١٥، ح ١.



# دلائل التوحيد

١ - شهادة الفطرة على وحدانية الله (عز وجل)

٢ - تناسق العالم *تتفق شهوده على وحدانيته*

٣ - دليل صرف الوجود

٤ - دليل الفيض والهداية



تجربہ نامہ

## ١ - شهادة الفطرة على وحدانية الله (عز وجل)

تمهيد:

ذكرنا في مستهل هذا الجزء وفي بحث « استخدام برهان الفطرة في مسألة معرفة الله » أن هذا البرهان يمكن أن يكون ماعياً ومرشداً في البحث عن صفات الله، بل وفي مسألة البوّة والمعاد، ولهذا لنا عهد عملي مع هذا البرهان حيث نرجعه في أغلب المباحث

وفي بحث وحدانية ذات الله وصفاته يمكن أن يكون هذا البرهان مفيداً، أي أننا وفي أعماق الروح والقلب لا نسمع بداء وجوده فحسب بل لا يوجد في أعماق الروح بداء آخر فعندما يبلغ المشكلات والابتلاات ذروتها وحينئذ توصل أبواب عالم الأسباب أمامنا يقرع أسماعنا هدير التوحيد في أعماق وجودنا ويدعونا إلى (المبدأ الواحد) ذي القدرة التي تفوق المشكلات وتتجاوز عالم لأسباب كله

وهناك آيات قرآنية عديدة تشير إلى هد مصمون، وبما أننا ذكرنا بعض هذه الآيات بصورة مفصلة في بحث (إثبات وجود الله) فشير إليها هنا باختصار وبمن حاشعين في عدد من الآيات:

١- ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (الأنبياء / ٦٥)

٢- ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِينِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (الروم / ٣)

٣- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ \* بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَتَسَوَّنَ مَا تَشْرِكُونَ.

(الأنعام / ٤٠ - ٤١)

٤- ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ \* ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

(النحل / ٥٣ - ٥٤)

٥- ﴿قُلْ مَنْ يُّنْجِيكُمْ مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ \* قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُم مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُّشْرِكُونَ﴾.

(الأنعام / ٦٣ - ٦٤)

### جمع الآيات وتفسيرها

حينما يشرق نور للتوحيد:

بما أن تفسير الآية الأولى والثانية قد مر في مقدمه الكتاب خلال بحث الاسدلال على معرفة الله عن طريق العطرة فإننا نذكرها هنا بإيجاز.

الآية الأولى تتحدث عن أشخاص يدعون الله سبحانه بإخلاص عند ركوب السفينة، والآية الثانية تطرح القضية بصورة عامة وتتحدث عن أشخاص يدعون الله عند مواعده صلك الحياة وحيط بهم أمواج المشكلات فيتركون لأصنام التي نحوها ويملجأون إلى ظلال لطفه، ولكن بعد إداقتهم حلاوة رحمته تسلك جماعة منهم طريق الشرك مرة أخرى، ومن الملاحظ أن في الآيتين تركيزاً على الإخلاص والإبابة حيث يتمسك بهما أغلب الناس عند هبوب عواصف الأحداث إضافة إلى التركيز على حالة الرجوع إلى الشرك لدى جماعة كبيرة بعد سكون هذه العواصف.

وبهذا يشير القرآن الكريم إلى أن معرفة الله من مكسوبات انعطارة الإنسانية وهكذا التوحيد في العبادة، ويعبر الشرك ظاهرة نشأ من الحياة المترفة، ومن خلال دراسة سطحية وعابرة لعالم الأسباب، وعند تغير الظروف الإعتيادية للحياة وظهور عدم فاعلية عالم الأسباب يقوم الإنسان بقطع أمهه منها وتبرر فطرة عبادة الواحد من وراء سحب العادات المعاشة والغفلة



إن هذه الآيات تبليغ بدء الفطرة إلى الفاعل من بني الإنسان عن طريق واضح وتوصل الإنسان إلى حيث لا يوجد صخب عام الأسباب ولا العرق في لذات الحياة نعم في مثل هذه البيئة الطبيعية، وهادئة يسمع نداء الوجدان الذي يلقيه درس معرفة الله وعبادة الواحد ولكن هذا النداء يصعب ويعجز عن بدوع الأسماك حينما يمتليء الجو بصخب اللذات المادية وعالم الأسباب.

هذه الآيات الشريفة تمسك بيد الإنسان، رة وتلقي به في وسط الأمواج العاتية وتمسك بيده تارة أخرى لتودعه خلف قضبان السجن وميدان الأمراض المستعصية وطرق مسدودة تبعث اليأس في الحياة، مكان محمد فيه أصوات الشياطين من الجن والإنس ويسمع فيه نداء الوجدان والفطرة فقط، ما أجمل وأروع هذا النداء وهذا الصوت!



الاية الثالثة تحاطب المشركين وتدعوهم إلى فطره عبادة الواحد، ويتصير آخر تقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَصَبْرًا اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ والمراد من عذاب الله هو عذاب الدنيا والمراد من (أتكم الساعة) هو ظهور أشرار الساعة (وهي علامات نهاية العالم الموحشة جداً وبتداء يوم القيامة) التي أحبر عنها القرآن الكريم في آيات عديدة واعتبرتها مقرونة بالخوف والوحشة الشديدين إن الكثير من المشركين - طبعاً - لم يؤمنوا بالقيامة وأشرار الساعة غير أنهم كان يوسمهم تصديق نزول العذاب الإلهي وذلك بملاحظة الآثار التي خلفتها الأمم السابقة في أطراف الحجاز والجزيرة العربية، وهذا هو أحد أساليب القصص حيث يبين القائل قضية صادقة لا يتقبلها المخاطب مقرونة بما يقبله في عبارة واحدة كي يثبتاً معاً.

ولا ينتظر القرآن ليستمع إجابتهم عن هذا السؤال بل يجيب عنه بما ينبغي عليهم بيانه ويقول: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَسْتَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وقد أسلفنا أن الكثير من المفسرين فسّر جملة (أرأيكم) بمعنى (أخبروني)، ولكن

الظاهر هو الاحتفاظ بالمعنى الرئيس للجملة وتفسيرهم هذا يلزمه (المعنى الرئيس للجملة هو: هل شاهدتم؟ هل فكرتم؟)¹.

على أية حال فإن القرآن في هذه الآيات يُرمي المشركين بأعمالهم ويحاججهم بها.

✽✽✽

**للهم، إلى الله في الشدائد:**

الآية الرابعة تطرح هذه القضية في قالب جميل آخر فتقول: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَبِمَنْ أَتَاهَا﴾. فعادا صمت لكم الأصنام ومعبوداتكم لمريقة؟ وأي رزق ينسطنه لكم وأية هدية وهبتها لكم؟

هذه الأصنام التي تحتاج إليكم في صحتها وبقائها (حيث يجب أن تحتوها وتحافظوا عليها) أية بركة وموهبة وهبتها لكم؟

ويضيف الآية: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ قَالَ بِهِمْ سُبُّونَ﴾

«تجارروا»: من مادة (جَار) وتعني في الأصل أصوات الوحوش والحيوانات في الصحارى دون اختيار منها عندما تعس بالأنهم، ثم استعملت كناية عن الأسى والإستعانة والصرخة التي تصدر من الإنسان حينما يواجه لمشكلات.

يقول الراغب في مفرداته.

ومن الواضح أن الإنسان يرجع إلى فطرته في هذه الحالة وتتكرر القيود والسلاسل المعقدة وتنهار الأبنية الوهمية ويبقى الإنسان مع فطرته. الإنسان ووجدانه الصريح ويتجه صوب نقطة واحدة، نعم نقطة واحدة سميها (له) عز وجل.

انتهوا إلى جملة (إليه تعجلون) فهي تتضمن معنى لحصر والدلالة على الوحدةانية، أي أنكم تتوسلون إليه فقط وتطلبون منه حل مشاكلكم.

وتضيف: ﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾. وفي التعبير

¹. الأولى تسمى الرؤية بالعين المجردة والثانية تسمى الرؤية لتبينة

بـ(فريقي) إشارة إلى أن فريقاً آخر سيمرّ مسيرته بعد هذا الحادث حقاً، وتبدأ صفحة جديدة في حياته ويستبدل الشرك بالتوحيد في العبادة، وهذا هو أحد الحكم في وجود الآفات والإبلاءات والأوجاع والآلام التي يكرهاها بشر وفيها إيقاظ لفريق وتربيتهم<sup>١</sup>

«فَصَرَّ»: و(فَصَرَّ) لهما معنى واحد كما يعتقد بعض النحويين، ومفهومهما هو كلّ ما ينال في النفع، وقد فُسر بعض الأوّل بمعنى سوء الحال، والثاني بمعنى الضرر.

ويقول الراغب في المفردات.

«الْفَصَرُ»: سوء الحال إمّا في نفسه بقية العدم والفصل والمفنة، وإمّا في بدنه لمرض أو نقص وإمّا في حالة ظاهرة من قلّة مال وجاء<sup>٢</sup>

على كلّ حال فهذا اللفظ مضمون واسع حيث يشمل المصائب والأسراض والسقائص والآلام.

ويسبغ ملاحظة هذه النقطة وهي أن (الكشف) كما جاء في لسان العرب - تعني رفع الحجاب عن الشيء المستور، ويلزمه ظهور ذلك الشيء ثمّ اسمعيل في رفع العمّ والحرّ والإبلاءات وكأنّ هذه الأمور تحتلّ حجباً على روح الإنسان وجسمه وتُرفع من قبل الإنسان وغيره.

### النور للوفاة في الظلمات:

في الآية الخامسة والأخيرة التي بيّناها نلاحظ أنّ محتوى الآيات السابقة نفسه ولكن في إطار جديد وحميل حيث تقول: ﴿قُلْ مَنْ يُجِيبُكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾. في هذه الحالة تنأى عنكم المعبودات المريّة وتلجأون إلى لطف الله وحده وتقولون: ﴿لَيْنَ أَفْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

١ احتمال البعض من أن «من» هي «فريقك منكم» بـ «ب» لا تبعية بعيد جداً ويحالف ما ورد في الآية ٣٢ من

سورة لقمان (فلما يجاهم إلى البرّ منهم مقتصد) راجع تفسير روح المعاني دليل هذه الآية

٢ لسان العرب: مجمع البحرين: مفردات الراغب

والتعبير بـ «ظلمات البَرِّ والبحر» تعبير جميل يمكن أن يكون إشارة إلى الظلام الظاهري الذي يحدث في الليل أو عند هبوب الأعاصير والرياح المحملة بالعبار وعند ظهور السحب السوداء في السماء، وهذا الظلام مرعب ومحيف وخاصة إذا كان في البحر والصحراء، أو حصول الخوف من هجوم الحيوانات الوحشية في الصحراء. ويمكن أن يكون له - كما ذكر ذلك بعض المفترين - معنى كناني يشمل المشكلات والشدائد والآلام<sup>١</sup>.

كما يحتمل تصمّن الآية اظلامين اظلام ظاهري الذي يعرض الوحشة على الإنسان والظلام المعنوي الموحش المؤلم أيضاً، وعلى كل حال فإن هذه الآلام تحصل في السر عالياً، والآية تقصد هذا المعنى أيضاً

والتعبير بـ «تضرعاً وخفية» تعبير جميل أيضاً لأن (التضرع) يعنى الدعاء والطلب الصريح وإظهار التذلل<sup>٢</sup>، في حين تشير (خفية) إلى الدعاء الكامن في أعماق القلب، ويحتمل أن يقصد التعبير ان العائس في الابتسان، حيث يدعو الله في قلبه حينما تبدو ظلمات المشكلات، وعندما تسلى بمشكلات عويصة وكثيرة يقوم بإظهار ما في قلبه ويتضرع إلى الله ويلتمسه.

ومن المحتمل أن يقصد هذا التعبير حالات عنات مختلفة، فبعضها يدعو الله جهاراً في مثل هذه الأحوال وبعضها ندعوه حمياً وكأنا نشتري بالحجل أمام الأصنام أو من الناس الذين عرفوا أنها تعبد الأصنام فلمداد لا تلجأ إلى الأصنام في المشكلات؟ على كل حال فإنها ترجع إلى فطرتها في مثل هذه الأحوال وتستضيء قلوبها بسور التوحيد وعبادة الواحد، وترفض كل ما سواه وتنسى كل ما يذكرها به وتسيقن بأن الأصنام ليست أهلاً، وعبرة الأصنام لا فائدة فيها ولا سبيل إلا التوحيد

في مثل هذه الأحوال تعاهد الله وتندر وتعهّد بأنّه إذا نجاها من هذه الشدائد والآلام

١ تفسير الميزان، ج ٧، ص ١٣٦ وتفسير في ظلال القرآن، ج ٣، ص ٢٦٩

٢ مفردات الراغب: تضرع، أظهر الصراعة

وأذاقها حلاوة اللطف والرحمة فبأنها ستمى شاكرة ومدينة ورهينة للطفه، ولكنها بعد  
الخلاص من المضائق تنسى - في الغالب - كل عهودها وتعهداتها، كما يشير إلى ذلك ذيل  
الآية: ﴿ قُلِ اللَّهُ يَجْعِلُكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ١ 〉.

وكما ذكرنا فإن هذه الحالة هي حالة أعسب المشركين، وأما الفئة التي لها قابلية أكبر  
فإنها تتيقظ بصورة دائمة وتبصر طريقها وتهجر الشرك

من مجموع الآيات التي ذكرت تظهر هذه حقيقة وهي: أن القرآن الكريم لا يعد غريزة  
المعرفة الإلهية في الإنسان أمراً فطرياً وحسب بل يعتبر الإيمان بوحديته من الأمور  
الطورية أيضاً، وبما أن الفطرة الأصيلة في الإنسان تتعرض في الغالب إلى حجاب الرسوم  
والعادات والأفكار المسخرة والعالم المعنوي فيسبغ انتطار تلك الساعة التي تزول فيها  
هذه الحجب، من هنا فإن القرآن يشير إلى محطات حساسة في حياة الإنسان وذلك عندما  
تزول الحجب بواسطة عواصف الأحداث ويبقى الإنسان وفطرته وصرخه وجدانه فيدعو  
حسيناً ربه لوحدته ويروى عنه ما سواه، ويدل هذا حتماً على أن عبادة الواحد والتوحيد  
مستودعه في أعماق روحه، وفي هذا المجال مررت بحوث تكميلية أخرى في أول الكتاب  
في بحث الفطرة والمعرفة الإلهية.





تجربہ نامہ

## ٢- تناسق العالم

### تمهيد:

من السبل التي سلكها علماء العقيدة والفسفة في سيرهم وسلوكهم من أجل القرب من ذات الله المقدسة هي دراسة عالم الوجود ندي هو عبارة عن مجموعته متناسقة وكتلة مترابطة، هذا الاتحاد والتناسق ينبثق عن بوحدة الخالق، ولذا أطلق على هذا الدليل (برهان الوحدة والتناسق) وقد طرح هذا البرهان بصورة أخرى حيث يقال: إذا كانت هناك إرادتان تحكمان عالم الوجود، ولو كان في عالم الخلق بديران لظهر الفساد والانظام حتماً، وبما أن هذا الأمر عدم النظم والفساد غير موجود يمثل دليلاً على وحدة الخالق والمدير والمدير لعالم الخلق، ولذا أطلق على الاستدلال عنوان (برهان التمانع).

من هنا فإن برهان (الوحدة والتناسق) و(برهان التمانع) متحدان جوهراً ومحتوى ولكن لهما تعبيران، وبعبارة أدق أنهما يطران إلى قضية واحدة ولكن من زاويتين، فنحن نصل تارة عن طريق وحدة العالم إلى وحدة المبدأ، وأخرى من طريق عدم الفساد الناشئ من الإرادتين، وفي الحقيقة إنما ننظر من الأعلى إلى الأسفل تارة وأخرى من الأسفل إلى الأعلى.

وعلى كل حال فإنه من أفضل دلائل التوحيد التي استندت إليها الآيات القرآنية.

بهذا التمهيد نرجع إلى القرآن الكريم لتأمل حاشمين في الآيات التالية:

١- ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ \* ثُمَّ لَرْجِعِ

(الملك / ٣-٤)

الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾

- ٢- ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرِكُونَ \* لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾  
(الأنبياء / ٢١-٢٢)
- ٣- ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾  
(المؤمنون / ٩١)

### شرح المفردات:

«مُطَوَّر»: من (مَطَر) على وزن سَطَر وهي في الأصل الفتق، وقد فسره البعض كالراغب هي المفردات بالشق طويلاً ومن ثم أطلق على كل إبداع وإيجاد وحلق، لما فيه من انشقاق حجاب العدم وإبداع الشيء وإيجاد، أو احمرعه كما يطلق هذا اللفظ على عملية استخراج الحليب من العنم باصبعين، وكذلك على هدم عيما (وقد وردت إيضاحات أكثر حول ذلك في بداية هذا الجزء في بحث برهان النظرة في موضوع معرفة الله).

«إِلَه» يعني: كما تقول اللعويون - المعبود، وقالوا بالاشتقاق من (الإله) بمعنى العبادة وقد ذكرنا آراء الكثير منهم في الهامش.

وقد استعمل هذا المعنى في مواضع كثيرة من (القرآن الكريم)، كما نقرأ في قصته بسي إسرائيل عندما شاهدوا جماعة يعبدون الأصنام فقالوا لموسى ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ (الأعراف / ١٣٨)

وقد جاء في قصة السامري ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنْ تَحْرِقَ نَفْسَهُ﴾

(طه / ٩٧)

١ مصباح اللغة، «آله، آلهة» على وزن «عبد» يعني عبيد عبادة، تائه (تعبد) والإله، (المعبود)، وقد ورد في (صاحح اللغة) هذا المعنى مع غارق بسيط، ويقول الرديع في سمردات (الله)، جعلوه إسماعاً لكن معبود لهم و(الله) هلال يأله، (عبد)، ويقول صاحب لسان العرب: (الآله، كل ما اتعبد من دونه معبوداً وهي التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ورد بعد ذكر كلمات جمع من اللغويين (تظهر من هذه الكلمات أن الإله بمعنى العبادة)، وقد ورد في مجمع البحرين، «الآلهة»: الأصنام سُموا بذلك لاعتقادهم بأن العبادة تحقق لهم، وجاء في كتاب العين لتحليل بن أحمد أيضاً (التأله)، التعبد، وقد جاء هذا المعنى صريحاً في قوس اللغة: «وعلى ذلك فإن عقيدة أهل اللغة قاطبة هي أن الإله تعبد المعبود».



وباختصار فإن أرباب اللغة قاطبة وجمع كبير من المفسرين اعتبروا (الله) بمعنى المعبود وهو القالب في موارد استعماله، وحيثما نلاحظ أن (الله) قد استعمل في بعض الحالات بمعنى الخالق أو المدبر لعالم الوجود فهو لوجود ملازمة - في بعض الحالات - بين هذه المعاني وبين المعبود، ولا يكون الاستعمال في بعض الموارد دليلاً على الحقيقة أبداً، وخاصة مع تصريح اللغويين على خلاف ذلك، وموارد الاستعمال شاهدة على ذلك أيضاً. ويمكن القول: أن جملة (لا إله إلا الله) لا تسجّم مع هذا المعنى وذلك لوجود معبودات غير الله الواحد بين العرب والأقوام الأخرى، ولكن لإجابة على هذا السؤال واضحة لأن المراد هو المعبود الحق لا المعبودات الباطل أي لا معبود حقاً غير (الله)، والأصنام ليست أهلاً للعبادة، وقرائن هذا المعنى موحودة في هذه الجملة، كقولنا لا علم إلا بما سمع هناك ملاحظة جديدة بالتدقيق وهي أن بعض اعتبر (الله) من (وله) ونمي (تحيي) وفيها إشارة إلى الداء التي تحيّر فيها القول: يهدن المشهود بين اللغويين هو المعنى الأول أي أنه من مادة (آله) بمعنى العبادة. وقد توضح ما ذكرنا أن إصرار البعض على أن (الله) لا يعني (معبود) غير مقبول أبداً

### جمع الآيات وتفسيرها

#### مظاهر التنسيق:

تقول الآية الأولى بعد الإشارة إلى خلق سماوات: ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ﴾.

إن هذا العالم الواسع بكل ما يتصوّته من عظمة فهو متناسق ومنسجم ومترابط ومتحد ومنظّم، وإن وجود الاختلاف في اللون وشكل والوزن وسائر الكميات الظاهرية والباطنية أو الكمية أمر طبيعي جداً، ولكن شيء لا وجود له هو عدم التناسق واللاظم والاختلال.

ولذا تقول الآية في ذيلها: ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ ﴾ والمراد من ﴿فَارْجِعِ

البَصَرُ هو النظر الدقيق والعميق، والمحاطب في هذه الآية وإن كان هو النبي الأكرم ﷺ ولكن من الواضح أن المراد هم البشر جميعاً، وتصيف الآية ﴿ثُمَّ أَرْجِعَ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾<sup>١</sup>.

بهذا الأسلوب يقوم القرآن الكريم ويتعابير مختلفة بدعوة البشر إلى النظر في عالم الوجود ولا يكتفي بالدعوة بل يرغبهم ويحثهم ويحثهم على هذا العمل، كي يعلموا أنهم لا يحدون خللاً أو نقصاً فيه، وعندما لا يرون ذلك وسوف يتعرفون على حقيقة توحيد الربوبية والوحدانية ويردون حملة (لا إله إلا الله) قلباً ولساناً

هناك نقطة جديده بالاهتمام وهي أن (في الاختلاف) من بين الموجودات في العالم والذي ورد في الآية أعلاه يعني حسب اعتقاد البعض هي العيب والنقص، وقد فسر البعض بمعنى عدم الإنسجام، وفسره آخرون بمعنى الاضطراب والترعزع، وبعضهم يعني الإعوجاج، وبعضهم يعني النقص، في حين أن الآية لها مفهوم واسع يشمل كل هذه المعاني (هذه المعرمة مشتقة من (موت) لأن المتعاقبتين يفقد كل منهما الصفات المحتصة بالآخر)



### تعدد الآلهة:

الآية الثانية تعرض هذا المضمون في إطار آخر وصورة أخرى حيث تقول ﴿وَأْمِ أُنْخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾<sup>٢</sup>.

وفي التعبير بـ «من الأرض» إشارة لطيفة وهي أنهم (أي المشركون) كانوا يصنعون

١. «أرجع البصر» كناية عن النظر المتكرر والمقرون بالندقة والاهتمام، و«حاسي» من (حسناً) ويعني الانقباض والانغلاق المقرون بالندقة ويمكن أن يكون هنا كناية عن تحريم والفشل، و«حسري» من (حسري) ويعني الضعف والافتقار القدرة وتعني في الأصل الاحتواء، وما أن الشيء من ضعف فإنه يتجرده عن قدرته وطاقته وقد استعمل هذا اللفظ بمعنى الضعف.

٢ لفظ (أم) في الآية - كما يقول جمع من المفسرين - مقطعة وتسمى (هل)، في حين اعتقد البعض بأنها بمعنى هل الاستهزامية، وما أن المشركين لم يدعوا أن الأصنام حاققة كان بمعنى الاستهزام الإنكاري أكثر مناسبة

ألتهتم من الحجر والخشب والمعادن وهي موحودات رصية، فهل بإمكان هذه لموجودات أن تكون مخالفة للسموات الواسعة وأن تكون الحاكمة والمدبرة والعديره لها؟ ثم تضيف الآية في مقام الاستدلال على بطلان عقيدتهم: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

«فساد»: يعني في الأصل - كما يقول الرعب في المفردات، خروج الشيء عن حد الاعتدال كثيراً أم قليلاً، في الروح أو جسم أو لشيء لأخرى في العالم، ومقابلته (الصلاح). و(الفساد) هنا يعني الدمار والغرب واللا نظام والهرج والمرج .

وتضيف الآية في آخرها - كاستنتاج ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾. وخلاصة الاستدلال هي: لو تعدد لمدير والمدبر والخالق والحاكم والمنصرف في هذا العالم فإن العالم لا يمكن أن يتسم بالنظام وينتسق، وذلك لانتهاء التعدد في الآلهة إلى تعدد التدبير والمنصرف، وبذلك يحتل عالم الوجود ويتعرض للفساد والدمار حيث يريد كل واحد منهما تطبيق نظام العالم على مشيئته وإرادته. وما يرد هذا الإشكال المعروف وهو بعبارة الحاج من تعاصد الآلهة الحكيمة فيما بينها لإيجاد نظام واحد منسجم؟ والإجابة على ذلك ستأتي في الإيضاحات بإذن الله.



الآية الثالثة والأخيرة التي نبحثها تقدم هذا البرهان في إطار جديد حيث تقول: ﴿مَا اخْتَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾.

ولو كان كذلك فإن كل إله ينمرد بمخلوقته الخاصة ويفرض عليها تدبيره وتصرفه الخاص، وسوف تكون الأنظمة المختلفة وقوانين الامتسجمة هي الحاكمة على العالم، وسيكون هو السبب في انهيار الوحدة والتعادل في العالم: ﴿إِذَا لَذَخَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾. ويكفي هذا الدليل على إثبات وحدانيته تعالى حيث يتألف من المقدمتين المشار إليهما سالفاً وهما إن عالم الوجود منظم ومتربط بالأجزاء وتحكمه قوانين معينة (هذا من جهة)

ولو كان في العالم خالقان ومدبران ومتصرفون لحصل الحلل وعمت الفوضى نتيجة لتعدد مراكز القرار والتدبير والتصرف (من جهة ثانية).

والآية تشير في ذيلها إلى أمر آخر بقولها ﴿وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

وبعد هذا سبباً في اختلال النظام في العالم وتصافه بالعوضى وعدم الانسجام.

وهنا - أيضاً - يثار هذا الإشكال في الأذهان وهو: أن هذه الآلهة الحكيمة بإمكانها أن

تسّوق برامجها فيما بينها بشكل لا يعرض وحدة العالم إلى الإخلال وفقد النظام، وسيأتي - كما أسلفنا - الجواب على هذا الإشكال في البحوث القادمة.

وتستنتج الآية الكريمة أخيراً من هذين الدليلين حيث تقول في ذيلها: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

❦❦❦

(توضيحات)

### ١ - للنظرة العلمية لوحدة عالم الخلق

عندما نلاحظ هذا العالم الواسع نراه على شكل موجودات متفرقة: الشمس، القمر، السماء، النجوم الثابتة والمتحركة، الإنسان، الحيوانات، أنواع النباتات والعناصر المختلفة، ولكن بعد قليل من الدقة والدراسة نجد أن درّت هذا لعالم مترابطة ومتصلة الأجزاء حتى تبدو وكأنها شيء واحد، وكلّما تعمّقت دراستنا وتركرّت إزدادنا إيماناً بهذا التسبيق والإتحاد للأسباب التالية.

١ - إن أجرام المجموعة الشمسية مترابطة فيما بينها إلى حدّ تكون فيه كأسرة واحدة كما هي عليه نظريات العلماء التي تعتقد أنّها كانت في البداية شيئاً واحداً متّصل الأجزاء ثم انفصلت تدريجياً وبقيت مترابطة حتى بعد افتراقها.

وتقول الأبحاث الفلكية في هذا المجال - إن مجموعتنا الشمسية غير مستقلة أيضاً، حيث إنّها جزء من مجرة كبيرة تشكّل مع المجرات الأخرى مجموعة واحدة يمثّل فيها

قانون الجاذبية حيث يجعلها كسلسلة مترابطة بحقائق كما يعتقد العلماء بأن هذه المجرات كانت بأجمعها شيئاً واحداً متصلًا فافصلت أجراؤها تدريجاً

٢ - الأجسام المختلفة والسيابة تماماً تتركب - كما يبدو بالتحليل النهائي لها - من عدد من العناصر المعينة وهي تلك - الموجودات البسيطة التي اكتشف منها أكثر من ١٠٠ عنصر لحد الآن، وهذه العناصر رغم اختلافها الشديد في الظاهر براها عند تحليلها إلى أجزاء صغيرة - أي الذرة - أنها متشابهة والعارق فيها هو عدد الإلكترونات والبروتونات.

٣ - من العجيب أن يكون النظام الحاكم على هذه الدرة هو الحاكم على العالم الواسع أي المجموعات والمجرات أيضاً حيث تجمع قوة لجذب والطرْد هذه السيارات في مجموعة واحدة أو الإلكترونات في ذرة واحدة وفي مدرجات خاصته تدور حول النواة الأصلية دون أن تنفصل عن بعضها أو تتجاذب فيما بينها.

٤ - الكائنات في الأرض وإن بدت لنا مسوَّعة، كما في الألوان التي شاهدها شديدة الاختلاف فما بينها إلا أننا وبالتحليل النهائي يصل إلى أن كل الألوان يرجع إلى أمواج تختلف في شدة ذبذبتها وطول أمواجها وتكررها.

٥ - إننا نسمع أصواتاً مختلفة تماماً، ولكن علم لخصيائ الحديث يقول: بأن هذه الأصوات كلها، الحميلة منها والفيحة، لحقيقه و لصاحبه ترجع إلى مبدىء واحد هو عبارة عن أمواج خاصّة تنشأ هذه الأنواع من اختلاف الذبذبة فيها.

٦ - للأحياء أنواع كثيرة جداً، فالحشرات وحدها لها مئات الآلاف من الأنواع، والنباتات لها أنواع تفوق ذلك، غير أن علماء نبات وحيوان يقولون: إنَّها مركبة من مادة واحدة، ومؤلفة من الخلايا التي يحكمها نظام واحد، ولذا تجرَّب الأدوية التي يراد معرفة درجة تأثيرها في الإنسان على الحيوانات أولاً في الغالب.

٧ - توصّل العلماء من خلال تحليل النور لمبعث من الكواكب البعيدة والقريبة إلى هذه النتيجة وهي: أن العناصر التي تتركب منها نكواكب السماوية تشابه الأجزاء التي تتركب منها كرتنا الأرضية، وهذا يعني وجود تناسق عجيب حاكم على مجموعة الأجرام والنجوم في الكون.

٨ - القوانين المختلفة التي تحكم الكون مثل، قانون الجاذبية، وسرعة السور، وقانون الحركة وأمثالها توجد بنفسها في كل مكان وتتبع منهجاً واحداً، ولذا فإن العلماء وبإجراء تجارب على نموذج واحد أو عدة معادج في الأرض اكتشفوا قانوناً شاملاً يحكم عالم الوجود كله، كما نجد أن «نيوتن» اكتشف قانون الجاذبية الساري في كل المجموعات والمجرات من رؤية تفاحة تسقط من شجرة!

وباختصار، كما مرأنا في الآية الأولى من يات هذا البحث، أننا لا نرى أي اختلاف في خلق الرحمن ولا تطور أو حلل، وكلما تقدم لعلم والفكر البشري كلما تحلت عظمة هذه الآية وصفها أكثر فأكثر، وهذا التناسق والوحدة دليل واضح على وحدة الخالق للعالم.

§§§§

## ٢ - إيهام برهان التماثل

إن برهان التماثل الذي يعبر عنه بـ (برهان التماثل) أو (برهان الوحدة والتناسق) يتألف من مقدمتين:

الأولى: الإنسجام والوحدة والتناسق في عالم الحق الذي تقدم بحثه

الثانية: لو كانت القوى الحاكمة على هذا تكون قوتين أو أكثر فإن ذلك سيؤدي إلى حدوث الاختلاف والإحتلال، وبما أننا لا نلاحظ أي اختلال أو عدم تعادل في هذا الكون والقوانين الحاكمة فيه، ندرك أنها تنشأ من مبدى واحد وأنها مخلوقة ومدبرة ومنظمة من خالق واحد.

الآية الأولى من بين الآيات السابقة تشير في الحقيقة إلى المقدمة الأولى، والآية الثانية والثالثة تشير إلى المقدمة الثانية، ولذا قد يطبق على هذا البرهان: (برهان الوحدة والتناسق) بالنظر إلى المقدمة الأولى.

وقد يعبر عنه بـ (برهان التماثل) بالنظر إلى المقدمة الثانية، وبناءً على ذلك فإنهما يرجعان إلى دليل واحد، غير أن النظر إليه يتم من زاويتين مختلفتين.

## الإجابة عن سؤالين:

**السؤال الأول:** إنَّ هذا السؤال يُطرح من قبل الكثير وهو أنَّ تعدّد المبدأ لا يكون سبباً لاحتلال النظام دائماً فإنَّنا نشاهد مجموعات تطبّق برامحاً صحيحاً ومتناسقاً بنجاح وذلك بالتشاور فيما بينها، فلو افترضنا أنَّ للعالم آلهة فإنَّ التعدّد هذا يكون مشأً للفساد في العالم حين وقوع النزاع فيما بينها، ولكن إذا أقررنا أنَّها حكيمة وداعية فإنَّها تدبّر أمور الكون بنظام خاصّ ويتعاون فيما بينها حتّى

**الجواب:** هذا السؤال والإشكال وإن كان مفتأً للطرح ابتداءً ولكنّه يتّضح بعد التدقيق أنّه ناشيء من عدم ملاحظة مفهوم (التعدّد).

وللتوضيح نقول إنّنا عندما نقول آلهة متعدّدة فإنَّها تعني أنّها ليست واحدة من كلّ جهة، فلو كانت واحدة من جميع الجهات فإنَّها تكون ذات وجود واحد، وبمارة أخرى: أيّما وحد التعدّد والإتسبه وحسب أن نعرّف بوجود اختلافه في الأمر، وإلاّ فإنَّه من المستحيل أن يكون الموجودان واحداً من جميع الجهات

ومن جهة أخرى يوجد (تناسق) و(مشتقّة) بين (المعلول) و(الفاعل) دائماً، فكلّ فعل يكون من آثار فاعله ويتّصف بلونه - نشأته أيّما - وبهذا يستحيل أن يصدر فعّال من فاعلين ثمّ يكونان واحداً من جميع الجهات، كما يستحيل أن يكون الفاعلان متساويين من حيث الإرادة والعمل، واختلافهما في الوجود يترك أثره على إرادتهما وعملهما حتّى

النتيجة هي أنّه لا يمكن أن يصدر نظام واحد وحده من الإثنية من مبدأ متعدّد وأنّما ما يقال عن الأعمال الجماعية فلا بدّ أن يلتصق إلى أنّ هذه الأعمال وإن اتّصفت بنظام نسبيّ إلاّ أنّها لا تتّصف بنظام حقيقي ومطلق حيث يشارل المتشاورون عن بعض آرائهم ورعاتهم للتعاون فيما بينهم لا أنّ رعاتهم وآراءهم واحدة دئماً، إضافة إلى أنّ الأنظمة القائمة على الشورى قليلاً ما تعمل بصورة متّفة، بل إنّها تتّبع النسبة الغالبة عادةً وهذا دليل على صحّة ما ندّعيه.

إضافة إلى أنّ هذه العالسة لا تكون أشخاصاً ثابتين دئماً بل متغيّرين، فتارةً تكون

الغالبية أربعة أشخاص من سبعة أشخاص، وبارة أحد هؤلاء مع ثلاثة آخرين، وبما أن العالمية معيّنة فلا يمكن إذن أن تكون أعدها واحدة

بهذه الأدلة الثلاثة تنصف هذه الأنظمة مبنية على الشورى شيء من عدم الاستحسان ولكنها بسبب القناعة بالنظام النسبي يقال أنها مطمئنة لكننا لا نرى في عالم الوجود نظاماً نسبياً بل نظاماً واحداً وانسجاماً كاملاً وثباتاً

وبعبارة أخرى لو افترضنا وجود مبادئ تكون فإنها إما متساويات من جميع الجهات (لها إذن واحد) أو مختلفان ومتساويان من جميع الجهات (حيث يكون تقابل في خلقهما وتديرهما) ولو كانا متشابهين من بعض الجهات ومختلفين في البعض الآخر فإن هذا الاختلاف والتمايز سوف يترك أثره على فعلهما لأن الفعل انعكاس لوجود الفاعل وطل وجوده.



**السؤال الثاني.** وطرح هنا سؤال ثانٍ ملاحظة جملة (ولملا بعضهم على بعض) التي جاءت في الآيات المذكورة وهو كيف يمكن وقوع النزاع بين الهة بقرض أنها حكمه؟ ويصل بعضها لتعلّب على البعض الآخر؟ ونمدد بفرضهما المفسرون كسلطانين أنانيين في زمن واحد يشارعان بصورة دائمة لتصارب المصالح؟

**الجواب.** يشأ هذا السؤال من أنهم تصوّروا أن الاختلاف بين المبدأين يجب أن يشأ من هوى النفس والأنانية دائماً، في حين يمكن أن يشأ الاختلاف من الاختلاف في التشخيص والقرار والإرادة بين شخصين مهما كانا

ويلزم أن نكرر هذه الحقيقة ونؤكد عليها وهي أننا حينما نفترض وجود مبادئ للكون فإن الإثنية تعني أنهما وجودان مختلفان من بعض الجهات حتماً وإلا فإن وجودهما واحد، وبهذا لا يمكن أن يكون فعلهما واحداً وعندها فإن هذا الإله يجعل تكامل الكون ونظامه وتديره الصحيح في شيء من حين يجعل نشأ النظام والتكامل في شيء آخر، ومن الخطأ الكبير أن يتصور أنهما كاملاً من جميع الجهات، فإن افتراض الإثنية بصي



«فنقاد كل واحد منهما كمالات الآخر لمحتصة به، فلا يتصور بهما حينئذ الكمال المطلق، بل إن نقصانهما النسبي حسي، فلا عجب في أن يحتكما في العمل والإرادة والقدرة، ورغبة كل واحد في إدارة الكون وفق ما يراه ميسراً كمالاً»

### ٣- برهان للوحدة والتجانس في الروايات الإسلامية

لقد ورد الدليل أعلاه بشكل واضح ومحصّر في لروايات الإسلامية، حيث جاء في حديث أن هشام بن الحكم سأل الإمام الصادق عليه السلام ما الدليل على أن الله واحد؟ فأجاب الإمام عليه السلام: «اتصال التدبير وتعام الصنع كما قال الله عز وجل: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا»<sup>١</sup>

وفي حديث آخر نقله الكندي رحمه الله عن هشام أن الإمام الصادق عليه السلام قال في مسألة التوحيد جواباً للرحل الرديق: «لما رأينا الخلق مستظماً والفلك جارياً والتدبير واحداً والليل والنهار والشمس والقمر كل حقيقة الأمر والتدبير واتسلاف الأمر على أن المدبر واحد»<sup>٢</sup>.

﴿﴾

١ تفسير البرهان، ج ٢، ص ٥٥، ح ٢

٢ المصدر السابق، ح ١



### ٣ - دليل صرف الوجود

تمهيد:

إن الله سبحانه وتعالى يمثل وجوداً لا نهاية له من كل جهة - كما سيأتي شرحه لاحقاً - ومن المؤكد أن مثل هذا الوجود لا سبيل للإتسبيه إليه، فمن غير الممكن وجود موجودين لا نهائيين، لأن الحديث إذا كان عن الإتسبية فإن كل واحد يكون فافداً للوجود الثاني ويتميز آخرنا نصل إلى حدّ ينتهي فيه الوجود الأول ويبدأ وجود الثاني، وعليه فإن الوجود الأول محدود وهكذا الوجود الثاني لأن كل واحد يكون ذا بداية ونهاية، ولوضح هذه الفصيلة بمثال:

شخصان يملك كل واحد منهما بستاناً، ومن الطبيعي والحتمي أن لكل بستان حدوداً معينة، ولو فرضنا أن مساحة البستان الأول تشمل كل الأرض فماين تكون مساحة البستان الثاني؟ إذن، سيكون أمامنا بستان واحد في الأرض وعليه فإن الحديث عن انلا محدود يعني يحدث عن الوحدة. والمراد من برهان (صرف الوجود) هو أن الله سبحانه وجود مطلق ومجرد عن القيد والشرط وغير محدود، ولا يفرض الثاني له أبداً.

بهذا التمهيد نتوجه إلى القرآن الكريم وستسمع خاشعين إلى الآيات التالية:

١- ﴿قَدْ أَفْهَمَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

(آل عمران / ١٨)

العزيز الحكيم﴾.

٢- ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* هُوَ الْأَوَّلُ

وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (الحديد / ٢ - ٣)

٢- ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَأَنْتَ بَابُ مُتَعَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. (يوسف / ٣٩)

## جمع الآيات وتفسيرها

### الله شاهد على وحدانية ذاته:

تم تفسير آية البحث الأولى في مباحث (برهان الصدقيين) السالفة وسمّر عليها هذا باختصار

إِنَّ مَصْمُونِ هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِشَهْدِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ وَالْعُلَمَاءُ (كُلٌّ وَاحِدٌ بِشَكْلِ) «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ»

ومن علامات وحدانية ذاته المقدسة هي حاكمية لظلم والعدل على الكون، ولعل الآية تشير إلى هذا الحاسب في ذاتها «قَدْ عَلِمَ بِالْمُتَعَرِّقِينَ نَكَمٌ تَسْتَدُّ إِلَى وَحْدَانِيَّةِ ذَاةِ الْمُقَدَّسَةِ مَرَّةً أُخْرَى وَنَقُولُ «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَرِيرُ الْحَكِيمُ»

ومن البديهي أن لو كانت ثمة آلهة تحكم الكون، فإنَّ مطقة كلِّ إله لا تكون في اختيار الثاني، وبعبارة أخرى يكون كلُّ واحد قدراً لغيره الثاني، وهذا لا يسجّم اتصافه بـ (الغريز) كما أنَّ حكمته التي بحكم العالم بـه أخرى على وحدانيته، فلو تعددت الأكوان كانت نهايتها الفساد والدمار.

أما كيفية شهادة الملائكة بوحدة نية الله عز وجل فإنها واضحة، ولكن هناك كلام بين المفسرين حول كيفية شهادة الله على وحدانية ذاته، بعض يقول: المراد هو الشهادة اللفظية التي وردت في آيات قرآنية محله، وبعض يقول: إنَّ إناز وحدانيته طاهرة في عالم الوجود في الأفاق والأنفس لأنَّ الطام الواحد هو الحاكم على الجميع وهذا هو معنى شهادة الله على وحدانيته.

إنَّ كلَّ ذلك صحيح، ولكن تصاف إليها شهادة أخرى وتستحق التفصيل فيها وهي أنَّ ذاته المقدسة يتحو بأبى العدد، وجود لا نهاية له، و لوجود لانهاى واحد فقط، فذاته إذن دليل

على وحدانية ذاته (فتأمل جيداً)

ولا منافاة - طبعاً - بين التفسيرات الثلاثة ويمكن أن تكمن في مفهوم الآية، وعليه فإن إصرار بعض المفسرين مثل صاحب (الميراث) في أن تفسير الآية ينحصر في المعنى الأول (الشهادة اللفظية) مع ملاحظة إطلاق نطق الآية مما لا يوحد دليل واضح عليه.

أما السبب في تكرار جملة (لا إله إلا الله) في الآية، فالظاهر هو أن الأولى بمثابة المقدمة، والثانية استيعاب، ولعل في رواية شني وردت في تفسير القرطبي (المفسر السني المعروف) عن الإمام الصادق عليه السلام إشارة إلى هذا المعنى حيث يقول فيها الأولى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم يعني ﴿قولوا لا إله إلا الله العزيز الحكيم﴾<sup>١</sup>.

❦❦❦

### هو الأول والآخِر والظاهر والباطن:

الآية انشائه وهي من الآيات الأولى من سورة الحديد - وعلم أن هذه الآيات تنص على بياناً دقيقاً وطريقاً عن صفات الله الجمالية والجلالية من الأفكار الثاقبة، كما يستفاد من الحديث انوار عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام - يقول عز وجل: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>٢</sup> ولذلك فإن الحياة والموت في قصته أبصاً ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

وعليه فإن المدير والمدير لهذا يكون هو ذاته المقدسة فقط

وفي دليل الآية توجد قصيدة يمكن أن تكون دليلاً على التوحيد في مالكيتها وحاكميتها وتديره حيث تقول: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

في هذه الآية بيان لخص صفات من صفاته المقدسة وتدل مجموعها على أن ذاته المقدسة لا نهاية لها، فهو أول كل شيء، وآخر كل شيء، وهو الموجود في الظاهر والباطن.

١. تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٢٨٥

٢. لاحظ أن في تقديم (له) إشارة إلى الحصر وعلى أن ملك السموات والأرض منحصرة في ذاته المقدسة

وله الحضور العلمي في كل مكان، وإن مثل هذا الموجد لا يتصور أن يكون له ثان، فلو كان الإله الثاني موجوداً فإنه يعني أن الإثنين محدودان وذلك لانتهاه كل واحد عندما يصل إلى الآخر، ويبدأ الثاني.

إذن عدم محدوديته دليل على وحدانيته

يقول الفخر الرازي في تفسيره: استدلل الكثير من العلماء على إثبات وحدانيته بعبارة: (هو الأول)¹.

وقد كثر الكلام حول مفهوم (الأول والآخر والظاهر والباطن) وستأتي لاحقاً أبحاث الصفات الثبوتية بإذن الله، ويسمي أن يذكر هـ هذه اسقطه وهي: أن الأول في الموجودات المحدودة لا يمكن أن يكون آخراً وما كان حراً لا يكون أولاً، كما أن الوجود الظاهر لا يكون باطناً، والوجود الباطن لا يكون ظاهراً، وعندما يكون الحديث عن اللامحدود فإن هذه المعاهيم تكون محتمة فيه



الآية الثالثة والأخيرة التي وردت في بحثنا تتحدث عن لسان يوسف عليه السلام عندما فسّر للسجين معه ما بهما بعد أن طلبا التفسير منه ونشير إلى أن يوسف عليه السلام عرج من كلامه عن الحلم وتفسيره إلى البحث عن التوحيد الذي ينصت أصل السعادات برمتها وقال لهما: ﴿يَا صَاحِبَي السِّجْنِ أَأَنْبَأْتُكُمْ بِخَيْرٍ أَمْ إلهُ الْوَاحِدِ الْفَهَّارُ﴾

والملاحظ أن صفة (فَهَّار) قد تكررت في نيران الكريم ست مرات¹ وقد وردت في كل مورد بعد الصفة (واحد) متبداً على وجود علاقة بينهما وأن قاهرته دليل على وحدانيته (فتأمل جيداً).

قام يوسف عليه السلام بطرح المسألة أولاً على وجدانيهما، وبما أن حقيقة التوحيد - كما أشرنا سابقاً - كامنة في أعماق العطرة الإنسانية فقد قام المحكمة بين يدي الوجدان وسأل:

١ تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٢١٣ (وجاء هذا المصنوع في تفسير روح البیان، ج ٩، ص ٣٤٧ أيضاً)

٢ الرعد، ١٦، إبراهيم، ٤٨، ص، ٦٥، الزمر، ٤، غافر، ١٦ وآية البحث.

أرباب متفرقون، إله البحر، إله الصحراء، إله الأرض، إله السماء، إله الماء، إله النار، وهكذا الملائكة والجنّ والفراغة والأصنام الحجرية والخشبية والمعدنية التي تعبدونها خير أم الله الواحد المهيمن على كل شيء؟ وكلمة (قهار) صيغة مبالغة من (القهر) ويعني كما يقول الراغب في المعردات: العلة وإدلال طرف مقابل، ولكن هذا اللفظ يستعمل في كل واحد من هذين المعنيين (الغلبة والإدلال) مستقلاً، وكما يقول الطبرسي رحمه الله في مجمع البيان: «القاهر هو القادر الذي لا يمتنع عليه شيء»<sup>١</sup>، من هنا تتضح العلاقة بين صفة الوحدة والقاهرة، فحينما ندّعي بقدرته العلية على كل شيء، أي أنها غير محدودة فإتسلاً لا تتصور له ثاباً، لأن كل ما سواء مغلوب له ومقهور، ونذكر لا يمكن أن يكون ما سواء واجب الوجود وغير محدود (متأمل جيداً).

### توضيحات

#### ١- إله حقيقة لا متناهية

القضية الأولى والأكثر أهمية في باب (صفات الله) الواجب إثباتها لإيضاح مسألة التوحيد وسمات الله الأخرى كالعلم والقدرة وأمثاله هي أن ذاته المقدسة لا متناهية، فإن ثبتت هذه القضية وفهمت جيداً تيسر الطريق إلى جميع الصفات الجمالية والجلالية (الصفات الثبوتية والسلبية).

ولإثبات هذا الأمر وهو أنه تعالى وجود لا نهاية له، لابد من ملاحظة النقاط التالية:  
 (أ) محدودية الوجود تعني التعارب مع (عدم) فلو لا عدم لا يستقر مفهوم للمحدودية، فعندما نقول: إن عمر فلان محدود فإنه يعني أن عمره سينتهي إلى عدم ومقرون بعدم، وهكذا بالنسبة لمحدودية القدرة أو العلم وأمثالها.

(ب) الوجود ضدّ عدم ولو كان الشيء مقتضياً لوجود ذاتاً فإنه لا يقتضي عدم أبداً.  
 (ج) ثبت في برهان العلة والمعمول أن سسنة العلة والمعمول في هذا الكتاب يجب أن

تنتهي إلى نقطة ثابتة وأزلية نستطيع واجب الوجود، أي وجوده ناشيء من أعماق ذاته لا خارجها، وعليه تكون العلّة الأولى للكون تقتضي الوجود دائماً

أعيد قراءة هذه المقدمات الثلاث بدقّة وفكر فيها جيّداً، فسوف يتّضح أنّ واجب الوجود إذا تحدّد فإنه يجب أن يكون من الخارج، لأنّ المحدودية طبق هذه المقدمات تعني الاقتران بالعدم، والشيء المقتضي للوجود ذاته لا يقتضي العدم أبداً، ولو اتّصف بالمحدودية فإنه راجع إلى عامل خارجي، ويستلزم هذا القول أنه ليس واجب الوجود لأنّه مخلوق لغيره من حيث حدّه الوجودي ومعلول لغيره

وبعبارة أخرى: لدينا واجب الوجود دون شكّ (لأنّ ليبحث في التوحيد والوحدانية بعد إثبات واجب الوجود) فإن كان واجب الوجود غير محدود فمبدأنا ثابت، وإن كان محدوداً فإنّ هذه المحدودية ليست مقتضى ذاته أبداً، لاقتضاء ذاته الوجود دون اقتران بالعدم، فلا بدّ من فرصة عليه من الخارج، ومفهوم هذا الكلام هو وجود علّة خارج ذاته وهو معلول تلك العلّة، وبهذا الحال لا يكون واجب الوجود، والمتبعة هي أنّه وجود غير محدود من كلّ جهة

## ٢ - الحقيقة اللاهوتية واحدة قطعاً

ثبت في البحث السابق أنّ الله عزّ وجلّ وجود غير محدود وغير متناهٍ، وهذا قول أنّ مثل هذه الحقيقة تأتي الإثنية ولا تكون إلا واحدة لما قلنا مراراً أنّه لا يمكن تصوّر شيئين غير محدودين أبداً، حيث تفترن الإثنية بالمحدودية دائماً وهذا أمر واضح لأنّ تصوّر الوجودين ممكن حينما يكون كلّ وجود منفصلاً عن الآخر، فكلّ واحد ينتهي عند الوصول إلى الثاني ويبدأ الآخر.

واختبار هذا الأمر بسير، تصوّر على سبيل المثال ضوءاً غير مقيد أو مشروط برمان أو مكان أو سعة أو مصدر وغير محدود من أيّة جهة، فهل يمكنك أن تصوّر ضوءاً ثانياً مثيلاً له؟! فبالثبات سيكون الجواب: كلا، لأنّ كلّ ما تصوّره هو الأوّل إلا أن تضيف إليه شرطاً أو قيداً وتقول، الضوء هنا أو هناك من هذا المصدر أو ذاك



وبعبارة أخرى عندما نقول يوحد ضوء في الخارج فإنه إما سلاحظه زمانيهما أو مكانيهما أو مصدريهما أو شدة نوريهما. ولو تحركا من كل قيد أو شرط فإنهما سيكونان واحداً قطعاً (فتأمل جيداً).

ولعل الآية الكريمة التي تقول: «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ» (المؤمنون / ١١٧)

تشير إلى هذا المعنى حيث لا يمكن الاستدلال على وجود الله سبحانه أبداً، فكيف يمكن الاستدلال على أمر لا يمكن تصوّره؟

### ٣- دليل صرف الوجود في الأحاديث الإسلامية

إن البرهان المذكور نقل بقول حماد عن الإمام السجاد عليه السلام حيث قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَرْصِفُ بِمَعْدُودِيَّةٍ، عَظُمَ رَتَبُهُ عَنِ الصِّفَةِ وَكَيْفَ يَرْصِفُ بِمَعْدُودِيَّةٍ مَنْ لَا يُعَدُّ»<sup>١</sup> وقرأ في حديث آخر عن الإمام رضا عليه السلام: «هُوَ أَجَلٌ مِنْ أَنْ تَدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ أَوْ يَحِيطَ بِهِ وَهَمٌّ أَوْ يَضْبِطَهُ عَقْلٌ» فسأل سائل: «يُحَادِّثُ؟» فقال عليه السلام: «إِنَّهُ لَا يُحَدِّثُ، قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِأَنَّ كُلَّ مَعْدُودٍ مَتَّاهٍ إِلَى حَدٍّ، فَإِذَا احْتَمَلَ التَّحْدِيدَ احْتَمَلَ الزِّيَادَةَ، وَإِذَا احْتَمَلَ الزِّيَادَةَ احْتَمَلَ النِّقْصَانَ، فَهُوَ غَيْرُ مَعْدُودٍ، وَلَا مُتَزَايِدٍ وَلَا مُتَجَرِّدٍ وَلَا مُتَوَقِّفٍ»<sup>٢</sup>.



١ أصول الكافي، ج ١، ص ١٠٠، باب النهي عن الصفة، ح ٢

٢ بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٥، ح ١



تجربہ نامہ

## ٤ - دليل الفيض والهداية (دعوة الأنبياء جميعاً إلى الله الواحد)

### تمهيد:

إنَّ الله سبحانه ووجود كامل، ومثل هذا وجود يكون مصدراً للفيض على الموجودات وكمالها، فهل يعقل أنَّ مصدر الكمال يحرم الموجودات الأخرى من فيضه ولا يعرفهم - على الأقل - نفسه؟ مع أنَّ هذه المعرفة سبب لرفيقهم وكمالهم يدفعهم نحو ذلك الوجود الكامل والفياض.

وعلى ضوء هذا البيان يتضح أنَّه لو كان هناك حدة آلهة لوجب أن يكون لكل إله منهم رسل، وأن يعرف نفسه إلى مخلوقاته، وأن يشملهم بفيضه التكويني والتشريعي. والنتيجة هي أننا لو وجدنا أنَّ الرسل يجمعهم بحبرون عن إله واحد، لا يتضح أنَّ غيره لا وجود له.

بهذا التمهيد نرجع إلى القرآن الكريم ونعرض خاشعين في الآيات الكريمة التالية:

١- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ إِلَّا نُوْحِيْ اِلَيْهِ اَنَّهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا اَنَا فَاعْبُدُوْنِ﴾

(الأنبياء / ٢٥)

٢- ﴿وَاسْئَلْ مَنْ اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا اَجَعَلْنَا مِنْ دُوْنِ الرَّحْمٰنِ اِلٰهَةً يُعْبَدُوْنَ﴾

(الزخرف / ٤٥)

٣- ﴿قُلْ اَرَاَيْتُمْ مَا تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اُرْوِيْ مَادًا خَلَقُوا مِنَ الْاَرْضِ اَمْ لَّهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوٰتِ اِنَّوِيْ بِكِتٰبٍ مِّنْ قَبْلِ هٰذَا اَوْ اَنْزٰرَةً مِّنْ عِلْمٍ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ﴾.

(الأحقاف / ٤)

## جمع الآيات وتفسيرها

دعوة الأنبياء للعامة إلى الله الواحد:

إِنَّ الْآيَةَ الْأُولَىٰ فِي بَحْثِ هَذَا تَشِيرُ إِلَى تَارِيخِ الْعَاصِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَتَقُولُ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

أَجَل فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جَمِيعاً كَانُوا يَمَادُونَ بِالتَّوْحِيدِ وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ الْوَاحِدِ وَيَشْهَدُ تَارِيخُهُمْ بِهَذَا الْأَمْرِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِلشَّرِكِ حَقِيقَةُ وَجْمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ يَدْعُونَ إِلَى التَّوْحِيدِ؟

فَهَلْ كَانَ هُنَاكَ إِلَهٌ آخَرٌ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ؟ أَوْ أَنَّ الرِّسَالَ قَصُرُوا فِي إِبْلَاحِ أَمْرِهِ؟ وَالْعَقْلُ السَّلِيمُ لَا يَقْرَأُ بِقَوْلٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ.

وَكَمَا يَقُولُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ يَقُومُ لِقْرَاءَةُ الْكَرِيمِ فِي آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ (الْأَنْبِيَاءِ) بِالاسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ أَوْلاً لِإثْبَاتِ التَّوْحِيدِ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ﴾، ثُمَّ بِالدَّلِيلِ النَّفْلِيِّ (آيَةُ الْبَحْثِ) حَيْثُ دَعَا جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ الْعَاصِينَ إِلَى التَّوْحِيدِ<sup>١</sup>



أَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ: تَطْرَحُ هَذَا الْمَعْصُومُونَ فِي إِطَارِ آخِرِ حَيْثُ تَحَاطَبَ النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ ﷺ (الْمُرَادُ هُمُ النَّاسُ طَبْعاً) وَتَقُولُ: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾

وَقَدْ احْتَمَلَ الْمُفَسِّرُونَ عِدَّةَ احْتِمَالَاتٍ فِي كَيْفِيَةِ أَمْرِ الرِّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ بِأَنْ يَسْأَلَ الْأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ مَعَ عَدَمِ حُضُورِ أَحَدِهِمْ فِي عَصَرِهِ، فَقَدْ قَالَ الْبَعْضُ: إِنَّ الْمُرَادَ هُوَ السُّؤَالُ مِنَ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ كَيْ تَثْبِتَ الْقِصَّةَ عَنْ طَرِيقِ الْحَبْرِ الْعَتَوَاتِرِ، فَالْأُمَّمُ حَتَّى الَّتِي تَعْتَقِدُ بِالتَّثْلِيثِ وَأَمْثَالِهِ، عِنْدَمَا تَسْأَلُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُا تَعْمَسُ عَنْ عَقِيدَتِهَا بِالتَّوْحِيدِ وَتَعْبُرُ عَنْ ذَلِكَ بِـ (التَّثْلِيثِ فِي الْوَحْدَةِ)

وهذه الآية تعطي - في الحقيقة - مفهوم الآية التالية حيث خاطبه تعالى بقوله: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَنفِرُونَ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (يونس / ٩٤)

وقد احتمل هذا أيضاً وهو أن المراد هو من حجة كتبهم المتبقية في أممهم، فإن استحراج لقضايا منها بمثابة السؤال عن أولئك الأنبياء.

وقال جماعة أيضاً: إن المراد هو سؤال النبي ﷺ من أرواح الأنبياء ﷺ السابقين ليلة المعراج بل في غير ليلة المعراج، لأن روح نبي الإسلام ﷺ من العظمة ما لا يفترقها البعد الزماني والمكاني فكان بإمكانه أن يتصل بأرواح الأنبياء السابقين.

وبما أن الهدف الرئيس من الآية هو الاستدلال أمام المشركين، فقد كان المعنى الأول والثاني هو المناسب وذلك لأن الإرتباط المعنوي للنبي الأكرم ﷺ مع أرواح الأنبياء السابقين لم يفتله المشركون وكان معداً للنبي ﷺ نفسه، وإنا نعلم أن إيمان النبي بالتوحيد كان بدرجة لا يحتاج فيها إلى طرح مثل هذا السؤال نفسه.

والتفسير الثالث يمكن أن يكون من التفسير الباطني للآية وقد تضمنت روايات معددة الإشارة إلى ذلك<sup>١</sup>

على كل حال فإن المراد هو أن دعوة نبي الإسلام ﷺ إلى التوحيد ليس أمراً جديداً أو عجبياً بل أمر قد اتفق عليه جميع الأنبياء الإنبيين وهذا بنفسه دليل واضح على فصيلة التوحيد.

والاستناد إلى الاسم المقدس (الرحمن) في هذه الآية إشارة إلى أن من يستحق العبودية هو الإله الذي تشمل رحمته العامة حتى الكافرين المشركين والشر جميعاً، فكيف يمكنهم أن يتركوا ولي نعمتهم الذي عمرهم إحسانه ويتوجهوا إلى الأصنام المحاوية؟

### هل تمتلكون دليلاً على الشرع؟

إن الآية لثالثة والأخيرة صممت دليل اسقلي المذكور إلى جانب دليل عقلي آخر إذ

١. تفسير البرهان، ج ٤، ص ١٤٧، تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٦٠٦-٦٠٧.

تقول: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾.

فلو كانت تلك المعبودات معبودات حقيقيه فإنها ينبغي أن تكون مبدءاً للفيض، وعلى الأقل أن تخلق فسماً من الأرض وتساهم في خلق لسماءات، فهل يعقل أن يكون الإله عاقداً للفيض؟

ومن جهة أخرى أي نبي دعا أساس إلى نهضة معددة؟ ﴿ اتَّوَيْنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

وهذا التعبير يشير إلى أن الأنبياء عليهم السلام أجمعوا على التوحيد، وهذا الإجماع أو الاتفاق دليل واضح على القصبة، وبهذا يكون كتاب خلق دليلاً على التوحيد وكذلك كتب الأنبياء السابقين

«أثارة من علم» من مادة (أثر) ولهذا المعنى كم في (مفاتيح اللحة) - ثلاثة معانٍ استقدم، الذكر وأثر الشيء.

وقد ورد هذا المصنوع في تفسير الفخر الرازي ولكن بمعنى آخر حيث يعقل المعاصي الثلاثة لـ (أثر) ١.

## توضيحات

### ١- الفيض والهداية في الروايات الإسلامية

ورد (برهان الهداية والفيض) في روايات الإسلامية إلى جانب القرآن الكريم، فقد تحدث الإمام علي عليه السلام في وصيته المعروفة بي الإمام الحسن عليه السلام عن هذا البرهان ببيان جميل وواضح حيث قال «واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأنتك رسله، ولأريت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنك إله واحد كما وصف نفسه» ٢

١ التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة (أثر)

٢ نهج البلاغة، الرسالة ٣١

توضيحه: إن الله حكيم، والإله الحكيم له ذرأته به والفيض حتماً، في عالم النكويين والخلق وفي عالم التشريع والدين، فكيف يمكن أن يوجد إله آخر ولا نرى آثار صنعه في ساحة الوجود ولا مشاهد علامة من رسله؟ وهذا لا نسجم مع حكمته أبداً لأن في ذلك حرمان البشر من معرفته وعظمته وقدرته.

ثم إن دعوه الأنبياء المرسلين من قبل الله جميعاً لا تنسجم مع فرض وجود إلهين، فهل يعقل أن يطرح الإله الذي يرسل الأنبياء قصيّه غير صحيحة ويدعو إلى التوحيد كدباً؟ فهذا لا ينسجم مع حكمته أيضاً

ولا يصحصر طريق إثبات وحدانية الله في هذا الدليل فقط لوجود أدلة أخرى أشرباً إليها سابقاً، أما إجماع الأنبياء ﷺ واتفاقهم على بدعوه إلى الله الواحد فهو بُعد دليلاً مستقلاً

❦❦❦

## ٢- برهان التركيب

ذكر الفلاسفة وعلماء الكلام دليلاً خامساً على إثبات وحدانية ذات الله المقدسة ولم نعتز على آية قرآنية تصرّح بذلك، ولذا نورد على شكل إيضاح في ختام هذا البحث وحلاصته.

لو كان الله مثيلاً فهما متشابهان من حيث 'توحد' ولكن إنسيتهما فوجب أن يكون لكل واحد منهما خصوصيات، وبهذا يكون كل واحد مركباً من حرايين، (ما به، لا شريك) و(ما به الإمتياز) وحينئذ لا بد أن يدعى بأن كل واحد منهما محتاج إلى أجرائه، لأن المركب لا يكون بدون أجرائه، ولو كان محتاجاً فإنه لا يكون واجب الوجود، لأن واجب الوجود والمُبدى الأول للكون غني عن كل شيء.

فهو إذن لا مثيل له كما أنه لا إجراء له، ولو كان له مثيل فإنه سيكون ذا إجراء قطعاً، فهو إذن وجود بسيط من كل جهه ولا شريك ولا مثل له من كل جهة.

### ٣- التوحيد والأدلة العقلية

إنَّ الأدلة الخمسة المذكورة هي دلة عقلية لإثبات وحدانية ذات الله المقدسة، ويمكن بها الاستمادة من الدليل العقلي أيضاً، لأنّه بعد إثبات وجود الله وإثبات نبوة رسول الإسلام ﷺ وصدق دعوته، فإنَّ ما جاء في هذا الكتاب السماوي (أي القرآن الكريم) هو تبيان للحقائق التي لا تُنكر، هو رسول صادق ومعصوم ومبعوث من قبل الله الحكيم والصادق، ومثل هذا الإلزام لا يقول قصبة خاطئة

من هنا يمكن الاستمادة بآيات قرآن التوحيدية لإثبات وحدانية ذات الله المقدسة، والقرآن الكريم راحر بهذه الآيات، بل إنَّ أي موضوع لم يتكرّر بتعابير مختلفة مثل هذا الموضوع ولم يتأكد صفة من صفات الله إني هذا الحدّ

يقول المرحوم العلامة المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار لدى استدلّاه بهذا الدليل من الواضح أنَّ وجود الدليل العقلي لا يتعارض مع الاستدلالات العقلية (الأدلة السمعية من الكتاب والسنة وهي أكثر من أن تحصى ولا محذور في النسخ بالأدلة السمعية في باب التوحيد وهذه هي المعتمد عليها هدى)<sup>١</sup>.

خاصّة وأنَّ الأدلة العقلية المذكورة لها حدود في الكتاب والسنة الشريفة.





# مصادر الشرك الهامة



- ١ - إتياع الأوهام
- ٢ - إتياع الحواس
- ٣ - المصالح الوهمية
- ٤ و ٥ - عاملي التقليد والاستعمار



## ١ - إتياع الأوهام

### تمهيد:

بما أن الفطرة الإيسائية - كما أسماها في بداية بحث التوحيد - والوحدانية، كما أن الأدلة العقلية واسقية لو صحة تعرر هذه لفكره، فإن هذا السؤال يطرح نفسه وهو ما السبب في أن سبب اشرك ويمر كاشوك في طريق معرفة الله لدى الإنسان؟ وما هي حدود هذا الانحراف الكبير أو الانحراف الفكري لأكثر لدى الإنسان؟ من خلال دراسته تاريخ الأنبياء عليهم السلام والأقوام البشرية المختلفة وأدعاءات عبدة الأوثان على مر التاريخ نستطيع كشف استتار عن العذور الأساسية للشرك، ومن المسلم أن معرفة مصادر وحدود الشرك ستكون عاملاً مساعداً ومؤثراً في مواجهة هذه الافة الكبرى، لأن معرفة أسباب أي مرض تكون كفيلة بعلاج ذلك المرض.

وبهذا تمهيد راجع القرآن الكريم ستأمن الآيات التالية

١- «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلَحُ

(المؤمنون / ١١٧)

الكَافِرُونَ».

٢- «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيحُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ

إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

(يوسف / ٤٠)

يَعْلَمُونَ».

٣- «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

(الحجج / ٧١)

نَصِيرٍ»

- ٤- ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾  
(يونس / ٦٦)
- ٥- ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾  
(يونس / ٣٦)
- ٦- ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾  
(النجم / ٢٣)
- ٧- ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِينٍ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾  
(الأنبياء / ٢٤)

### شرح المفردات:

«الظَّنَّ»: بمعنى - كما يقول الرابع في المفردات - مع الحالة الحاصلة من ملاحظة علامة شيء، فإن قوى صار علماً وإن كان ضعيفاً فإنه لا يتجاوز حد الوهم، وأما ابن منظور فإنه يقول في لسان العرب: يستعمل الظن بمعنى الشك والمقنع كيهما إلا أنه ليس اليقين الحاصل بالنظر بل بالتدبر، وأما الحاصل عن طريق المشاهدة فإنه يطلق عليه - (العلم) ويقول ابن الأثير في النهاية إن الظن يستعمل تارة بمعنى العلم وأخرى بمعنى الشك وتارة بمعنى التهمة

وقد استعمل هذا اللفظ في آيات البحث بمعنى الأوهام الواهية وعديمة الأساس (الآيات نفسها تتصنف قرائن على هذا المعنى وستتم الإشارة إليها)

«مخرص»: على وزن (عزم) يعني كما يقول صاحب (صحاح اللغة) تخمين وزن النمر الذي يحصل من رطب النحل، كما أورد الرابع هذا المصنوع في مفرداته ثم أطلق على كل حدس وتخمين وما تهما لا يصيران دائماً، فإنه يستعمل بمعنى الكذب أيضاً، وهذا اللفظ يطلق في الأساس على كل ظن لا أساس راسخ له كما أن هناك معارٍ أخرى لمشققاته مثل (الرمح) (الحلقة) (الحوص الكسير الذي يكون

على ساحل النهر ويدخل فيه ماء ويرجع منه، ولا يبعد أن ترجع هذه المعاني كلها إلى الجذر نفسه حيث يقترن التخمين والنظر بالبرررل وعدم الثبات ويتصف الرمح والحلقة والحوض الخاص المذكور بهذا الوصف<sup>١</sup>.

«برهان»: هو الدليل القطعي المحكم وجاء أيضاً بمعنى الدليل والإيصاح، ويقول الراغب في المفردات: البرهان يعني البرهان المحكم ويعتقد لبعض أنه مشتق من (برء) ويعني الإيضاض، ثم أطلق على كل كلام وصح وصرح ليس فيه أي إيهام، أو الأمور الواضحة التي لا حفاء فيها<sup>٢</sup>.

وما ورد في الحديث (الصدقة برهان) لعنة ما بلانفاق في سبيل الله من دلالة على صحة إيمان الإنسان.

«سلطان»: ويعني في الأصل - كما في مقاييس اللغة - القوة والقدرة المصحوبة بالعبدية وبما أن الاستدلال القوي يكون سبباً لتعجب الإنسان على طرفه المقابل فإن لعط (سلطان) أطلق على الدليل المحكم أيضاً.

«سليطة»: ورد تارة بمعنى الرجل المصيح، وأخرى بمعنى الإنسان المرعج والبديء، اللسان (سليطة) الذي يستعمل في لسان يحمل على هذا المعنى الأخير وكلها مشتقة من مادة (سليطة)



## جمع الآيات وتفسيرها

### الغور في عالم الأوهام!

تؤكد الآية الشريفة الأولى - من خلال الإشارة إلى عقوبة المشركين - على حقيقة أن

١ التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة (خرص).

٢ التحقيق في كلمات القرآن الكريم والكلمات التي ملاحظتها مثل برهن، ببرهن) أو الوصف (مبرهن، مبرهنة) من الاشتقاق الإتراعي نظير كلمة (سلطان) المشتقة من سبط (سلطان يسطر).

(الشرك) ليس له أى دليل أو برهان وعليه يكون وليداً للظنون والأوهام فتقول ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾

ومن الملاحظ أن عقوبة المشركين هنا غير موضحة بل نقول الآية ﴿حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ وهو أكبر تهديد، لأن العظيم والقاهر هو المحاسب فيكون عقابه شديداً قطعاً وعبارة (لا برهان له) تفيد - في الواقع - هذا الأمر وهو أن الشرع لا يدل عليه أى دليل سواء كان عقلياً أو نقلياً ولا تنسجم الفطرة معه ولا اسطقس كما نمتا النظر في هذه القضية طهر بطلانها أكثر

والنكير بـ ﴿لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ شامل يمتد كل فلاح عن الكافرين في الحياة المادية والمعنوية، في الدنيا والآخرة، ويؤيد هذه الدعوى مشاهدتنا اليومية للذين لا يؤمنون



### أسماء بلا عناوين:

طرحت الآية الثانية هذه المضمون في إطار جملتين آخر وتقول عن لسان يوسف عليه السلام وهو يحاطب صاحبيه في السجن ﴿مَا نَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ والشاهد على ذلك هو أنها ﴿مَا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾. فلو كانت حقائق لغام عليها الدليل العقلي والمضي، فمن المحال أن يفقد لدليل أثر بهذه الدرجة من الأهمية (وهو وجود الشريك لله عز وجل)، وعدم الدليل هذا دليل على العدم!

من هنا نستنتج الآية في الحاتمة ﴿إِنِ احْكُمُوا إِلَاهُ﴾ و﴿أَمَرَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ و﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيُّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وكل حمله - في الحقيقة - في هذه الآية بمثابة دليل على نفي الشرك، حيث نقول من جهة إن الله لم ينزل أى دليل على وجود آلهكم، ونقول من جهة أخرى إن حاكمية العالم وتديره محتض به حيث نلاحظ علامات الوحدة في التدبير في كل مكان

وتقول من جهة ثالثة إنه أمر بعبادة الإله الواحد، فهل يعقل أن يأمر الإله الحكيم بأمر

كاذب؟

وفي الختام فإن الآية تعتبر الشرك ناشئاً من الجهل ونقل بعض المعشركين بأن عبدة الأصنام كانوا يعتمدون بأن الله هو النور الأعظم، ويعتمدون بأن الملائكة أنور صغيرة، وأما الأصنام في الأرض فإنها مظهر للأنوار السماوية تلك ويطلقون عليها ((المعبود)) وبذلك تكون معبوداتهم أسماء بدون مستى ولو تعافدا عن هذا المعنى أيضاً وسلمنا بأن الأصنام هي الآلهة لديهم لا مظاهر لها فإنها كانت أسماء دون مستيات أبصاراً، وذلك لعدم وجود أثر من آثار الألوهية في هذه الأحجار والأحشاش الحامدة.

وقد تضمنت الآية الثالثة محتوى شبيهاً بما في الآية السابقة حيث تقول في ذم عبدة الأوثان ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ وهو في الحقيقة هي لوحود دليل عقل، وتضيف الآية ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾، وفي ذلك إشارة إلى هي لوحود دليل عقلي.

وتقول الآية في الخامسة ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ فلا معنى لهم على دفع عذاب الله ولا رشد لهم في طريق الهداية ولا ينصرهم الدليل العقلي (ويمكن أن تجمع التفسيرات الثلاثة في مفهوم الآية)

#### الاستناد إلى الحديث والتكمين:

تحدثت الآية الرابعة في أولها عن مانكية الله لجميع من في السماوات والأرض حيث تقول: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى عبدة المشركين الذين أقروا بأن المالك والحاكم الأصلي هو الله، ومع ذلك فإنهم كانوا يعدون الأصنام، كما يمكن أن يكون إشارة إلى أن النظام الواحد لعالم الوجود دليل على أن مُدبّر الواحد هو الحاكم عليه ثم تضيف: ﴿وَمَا يَشْعُرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾

بل إنهم يتبعون أوهاهم وطوبهم فقط ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾<sup>١</sup>  
 «يخرفون»: كما أشير سابقاً - مشتق من (خرص) ويأتي بمعنى (التخمين) و(الكذب)  
 لأن التخمين لا يصيب في أكثر الموارد، وآية البحث تحتمل المعنيين  
 وقد ورد هذا المصموم وبفارق يسير في آية الحامسة التي تقول بعد ذكر انحراف عبدة  
 الأوهام: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾، ثم تهدد هؤلاء  
 الظانين بتعير ذي معنى كبير: ﴿ إِنَّ آفَةَ عَالِمٍ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾  
 أجل، إن الظن والوهم كالسهم في الظلام، لا يمكن أن يصيب به الهدف، ولو أصاب  
 الهدف أحياناً فإنه يكون محض صدفة، من دون معرفة للهدف.  
 «الظن»: هي اللمعة يشمل كل ظن ووهم، وبأطلاق أحياناً على اليقين أيضاً إلا أن المراد  
 في آية البحث هو المعنى الأول.

ومن الملاحظ إن اتساع الظن يسبب إلى أكثرهم لا إلى جميعهم، وهذا قد عرفت هذا المعنى نظر  
 الكثير من المفسرين.

فقال البعض إن (أكثر) هنا تعني الجميع (ولم يبق علي هذا التفسير دليل).  
 ومن الأفضل أن يقال إن الآية تقصد الغائبة المتأهلة التي تتأثر بالأوهام العاطفة  
 وتعرض للشرك، وتقابلها الفئة القليلة من رؤوس الصلال الذين يدعون الناس إلى الصلال<sup>٢</sup>  
 على علم منهم، والأمل في الهداية موحود طبعاً في الفئة الأولى فقط والخطاب موجه إليهم.  
 كما احتمل البعض أن في (أكثر) إشارة إلى جماعة تتبع الظن والوهم طيلة حياتها ومن  
 جعلتها (الشرك) فهي تظلم فوق أمواج من الأوهام وحجب الظلام والخيال<sup>٣</sup>

١ وفقاً لهذا التفسير تكون (ما) في ﴿وما يتبع﴾ ساعية وماعل (يتبع) هو (الدين) ومصعول (شركاء) أي أن  
 المشركين لا يتبعون هي الحقيقة شريكاً لله تعالى (لأن الله لا شريك له وهؤلاء الشركاء من صنع الأوهام)، ونكر  
 احتمل جمع من المفسرين بأن (ما) هنا إسماوية فيكون معنى الحقيقة هو أي شيء يتبعونه من دون الله ويجعلونه  
 شريكاً له؟ فهل هناك إلا الظن؟ (النتيجة في الإنس واحد، تقريباً). راجع تفسير مجمع البيان؛ وتفسير الكبير؛  
 والقرطبي؛ وتفسير الكشاف؛ وروح المعاني في دليل آية البحث وقد احتمل البعض أن (ما) هنا موصولة إلا أنه يبدو  
 بعيداً

٢ ورد ما يشابه هذا المصموم في تفسير روح البية ج ١، ص ٤٥؛ وتفسير روح المعاني، ج ١١، ص ١٠٣

٣. وقد ورد هذا الاحتمال أيضاً في تفسير روح المعاني



الآية السادسة تُشبه الآية الثانية في مضمونها من جهات، حيث تقول ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ يَسْمَوْنَهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وهذه الحمله نوضح هيمنة روح التقليد الأعشى على المشركين حيث تبعوا سلافهم بعيون وآذان مغلقة ثم تصيغ ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾

والملاحظة الجديدة هنا هي عطف (هوى النفس) على (الظن) وهو تعبير كثير المعنى وفيه إشارة إلى أن هذه الطيور الوهية تنشأ من هوى نفس الذي يجعل من الباطل حقاً في منظارهم، فهم إذن يعدون أهواء أنفسهم في نوافع والأصنام الأخرى وليدة لها! وعليه يكون مصدر الاحراف والصلال لديهم في توقع أمرين: عدم الاستناد إلى اليقين من الساحية العقلية والعائدية والتمسك بالطيور والإبصار عن فطره التوحيد الصحيحة من الساحية العاطفية والاستناد إلى هوى النفس.

وهذه السقطة حذيرة بالاهتمام أنصأ وهي أن (يتبعون) و(تهوون) فعلان مضارعان، ويعني ذلك أن هؤلاء يستمر اتباعهم للطير وهوى النفس ويتشوبون كل يوم بطور جديد! والملاحظ إن أول الآية يحاطب المشركين وأحرها كذكرهم باستخدامه صميم الغائب (الغائب من المحاطب إلى الغائب) وفي ذلك إشارة إلى أنهم لا شأن لهم حتى يستحقون الخطاب.

أظهرت الآية السابعة والأخيرة لحقيقه نفسها ولكن في إطار جديد حيث تقول، ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ ولعدم امتلاككم دليلاً واضحاً وموحهاً على شرك فإنكم مدابون ثم تقوم الآية بتوضيح الدليل على بطلان عقيدتهم وتقول، ﴿هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي﴾.

والتعبير بـ(ذكر) بدلاً عن الكسب لسماوية إشاره إلى أن جميع هذه الكسب عامل تذكير

١ في هذه الآية استدلال بالدليل القلبي في حين مستند في لا يتبين السابقين بالدليل العقلي وبرهان التسامع (تدبر).

ووعبي، وقد ذكر بعض المفسرين معاني أخرى لكلمة «ذكر» ولكنها لا تبدو مناسبة.

وقد أكد دليل الآية مرة أخرى على هذا، «محصون حيث يقول: ﴿يَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾»، وإن كانت هناك فئة قبيلة تدرك القصايا، إلا أنها لا تظهر الحق لإحساسها بالخطر على مصالحها اللامشروعة

ويمكن الإستنتاج جيداً من مجموع الآيات الواردة بأن أشرك وعبادة واتخاذ آلهة من دون الله ليس له دليل عقلي ولا برهان عقلي ومن المحال أن تكون مثل هذه القصيدة المهمة موجودة ولا يوجد لها دليل عقلي أو عقلي، وعليه فإن فقدان الدليل هذا، دليل قاطع على بطلانه

## ٢ - اتباع الحواس

### تمهيد:

عندما يولد الإنسان في هذا الكون فإنه يرى المحسوسات ويميل إليها ويتخذها أساساً لمعلوماته، وعندما يسمو في فكره وعلمه فإنه يستعزف تدريجياً على القصاص العقلية والعكرية.

إن البعض وبسبب التحلف الثقافي فإن إدراكهم يتوقف على مرحلة الحس، فلا يمكنهم أن يهكروا أو يؤمنوا بشيء سوى المحسوسات، فهم يوقعون بأن الله وجود حسي، فيمكنهم أن يروه أو يلمسوه! وهذا التوجه يمثل عاملاً مهماً في توجهم لعبادة الأصنام والآلهة المحسوسة، وعلى مر التاريخ.

وبهذه الإشارة نتوجه إلى القراء الكريمة سمعن حاشعين في الآيات التالية

١- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا

فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان / ٢١)

٢- ﴿يَسْتَلْزِمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُخَلَّفَ عَنْهُمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ

ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ

الْبَيِّنَاتُ فَقَفَوْا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (النساء / ١٥٣)

٣- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى

الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأظنه من الكاذبين﴾

(الفصص / ٣٨)

- ٤- ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَخْزُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً • أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُغَمَتْ عَلَيْنَا مِثْقَالاً أَوْ تَأْتِيَ بِنَاثِهِ وَالْمَلَائِكَةُ تَبِيدُونَ﴾ (الإسراء / ٩٠-٩٢)
- ٥- ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُجْعَلُ الْأُمُورُ﴾ (البقرة / ٢١٠)

### جمع الآيات وتفسيرها

#### لماذا لا ترى الله؟

إن الآية الأولى نقلت ما قاله الكفار والمشركون والذي يشير بوضوح إلى أمنيتهم في أن يكون الله مثلهم ذا جسم ويمكن النظر إليه حيث تقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾

إنهم طالبوا برؤية ملائكته الوحي أولاً، ثم سألواهم أماسيهم أن يطالبوا برؤية الله، وبدوا أنهم لا يفكرون بالله المعزود وغير المحسوس، والظاهر أن هذا الكلام كان لرؤوس الشرك وعبداء الأصنام وقد علموا بالحقيقة إلا أنه ومن أجل إعمال عامة الناس الذين يرون كل شيء في إطار الحس قاموا بطرح هذا الكلام أمام النبي الأكرم ﷺ لكي يهرموه حسب رعيهم ولذا وصفهم القرآن الكريم بأنهم قوم لا يؤمنون بالقيامة ولا يشعرون بالمسؤولية، ولهذا تقول الآية في ذيلها: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ وقد ذكر المفسرون للآية ٢٧ من هذه السورة العرقا سبب اللزول يدل على أن هذه الآيات نزلت في جمع من أئمة الشرك في قريش.

وذيل الآية يشير أيضاً إلى أن مصدر هذه الادعاءات الضحمة والحاطنة هو ابتلاؤهم بالكبر والغرور أولاً وسلوك طريق (العتى) وهو تمرد لمصحوب بالعباد واللجاجة في أمر الله ثانياً، ولم يختص بذلك العرب فحسب، بل ما زال جمع من علماء عصرنا المفرورين والمتمردين الماديين الذين يعتقدون أن كل شيء يجب إجراء التجربة عليه ورؤيته في المختبر وبالنسائل الحسية، ويقولون: إننا لا نؤمن بالله حتى نراه جبهة، وهذا تكون

المجموعتان محصورتين في إطار الحس، في حين تكون العوالم الخارجة عن الحس أوسع بكثير من عالم الحس

### طلبوا ذلك من موسى!!

تحدث الآية الثانية أولاً عن حجج اليهود وتقول: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال جماعة في تفسيره أن مرادهم كان بأن ينزل عليهم كتاباً محظوظاً على فراطيس معلومة من السماء ليأخذوه بهويهم ويلمسوه بأيديهم<sup>١</sup> وقالت جماعة أخرى: إن مرادهم هو لماد لم ينزل جميع القرآن مرة واحدة على نبي ﷺ! والقرآن يجيبهم لا عجب من هذا لطلب الحاوي لهؤلاء المعاندين اللجوجين بعد مشاهد المعجزات والقرائن التي تصيغ دعوة سي الإسلام ﷺ ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾<sup>٢</sup> وبسبب هذا أصيب العاطل ﴿فَأَخَذْتُمُ السَّاعَةَ يَفْلُجُهَا﴾.

أهل، إنهم طلبوا أنفسهم وراحوا يتعللون، وحسبوا عقولهم في إطار الحس ولم يسمحوا لها بالتحرد من هذا النطاق الضيق إلى فوق عالم ما وراء الطبيعة، ولهذا أنزل عليهم صاعقة من السماء وأهلكتهم غير أن اللطف الإلهي ودعاء موسى ﷺ قد أدركهم أخيراً وواصلوا حياتهم مرة أخرى، والعجيب أن هذا الحدث العجيب لم يقطعهم، حيث مالوا إلى السامري في اقتراحه بعبادة العجل! وقرئ في الآية: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾، وكأنهم لم يؤمنوا إلا بالإله المحسوس، ولم تفو أرواحهم على المروج إلى عالم ما وراء الطبيعة

ومرة أخرى شملهم اللطف الإلهي حيث تقول الآية في ديلها: ﴿فَقَعْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾.

١ وقد وافق على هذا صاحب التفسير في ظلال القرآن ج ٢، ص ٥٨٣ وقد نقه المصنف الزاري ويدو تفسيراً مناسباً وإن لم يتعارض مع التفسير الثاني

والمراد من (سلطان مبيى) هنا هي الحكومة التي أعطاها الله عز وجل لموسى عليه السلام فقد غلب المعارضين من الناحية الظاهرية ومن الناحية المنطقية والاستدلالية، ويعتقد بعض المعترضين كالطبرسي في مجمع البيان بأن النصر هنا من الناحية المنطقية فقط<sup>١</sup>

### حصني لرى لله في السماء

في الآية الثالثة مقالة تعوّ بها فرعون في هذا الشأن، وهي توّصع أفكار الشعب المصري آنذا، فقد أنقى هذه المقالة في عصر كان لإسم موسى وانتصاره على السحرة صدى في مصر بأسرها، ولما شعر فرعون بحسبة أمل شديدة رأى أن يعمل شيئاً يصرف به أنظار الناس عن موسى عليه السلام ومعجراته «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي»<sup>٢</sup>، ولذا أرى أن دعوة موسى إلى رب السماء والأرض حاطنة، وبما أتى من أهل التحقيق، فقد حطر سائر شيء يظهر به صدق موسى أو كذبه، ثم يهاجمان «فَلَرِقْدُ لِي يَا هَاسَانَ عَلَى الطَّيْنِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلَّ أَطْلُعَ إِلَى إِلَهِي مُوسَى»<sup>٣</sup>، «وَرَأَى لِأَطْنُ مِنْ الْكَذِبِينَ»

ولا شك أن فرعون كان شديد المكر والدهاء وهو يدرك هذه القضايا الواضحة وهي أنه ليس إلهاً، وأن ما يقصده موسى من إله السماء، هو حقيقة لا أن الله يسكن السماء حقيقة، ولو تجاوزنا هذا الأمر وافترضنا أن الله يسكن السماء فإنه لا يمكن الوصول إليه بساء برح عالٍ، فمطر السماء من على قمم الجبال في لعالم هو المنظر الذي يشاهد من فوق سطح الأرض، ولم تحف هذه القضايا على فرعون.

ولكن فرعون كان يعكّر في محطّ آخر وراد صرف الرأي العام الذي مال إلى موسى بشدة وذلك بطرح هذه القضية المثيرة، كما أراد أن يشعل مجموعة من الناس ولمدة طويلة

١ تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ١٣٤

٢ يقول المصريون في تفسير «ملا» يطلق هذا اللفظ على جماعة قد اجتمعوا على عقيدة واحدة وظاهرهم يملأ العيون (من مادة ملأ) ومن هنا يستعمل هذا اللفظ بمعنى شراف القوم ورؤسائهم وحواشي الملوك أيضاً

٣ «صرح» في الأصل تعني العلو من الشوايب ثم تطلق على القصور والبيوت العالية والجميلة لأنها بلغت من الكمال في بنائها إلى درجة لا يوجد فيها عيب أو نقص

ببناء برج عالٍ جداً، وفي النهاية يصعد إلى أعلى البرج ليحرك نفسه ويقول إني بحثت عن إله موسى عليه السلام في السماء فلم أجده أثراً!  
إن هذه القضية توضح أمراً مهماً وهو إن مستوى التفكير العام في مصر كان بسيطاً إلى حد أنهم لم يكونوا يصدقوا إلا بالإله محسوس، وبالتالي يصدقون فرعون بادعائه الألوهية وتوقعوا أن يكون إله موسى جسماً في أعالي لسماء! وفي مثل هذه الأجواء تشيع روح الصميمة وعبادة الأصنام قطعاً!



الآية الرابعة تنقل أقوال المشركين واحتجاجاتهم لمتنوعة وانعريفية حيث طرح كل واحد اقتراحاً على لساني لأكرم عليه السلام وتمسك بحجة معينة حيث تقول الآية «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُفْعَلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً»<sup>١</sup>، وقد تمسك البعض الآخر بحجج أخرى وقالوا خيراً «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُغَمَتْ غَيْبًا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا»<sup>٢</sup> والمطالبة الأخيرة بوضع حدثاً أنهم تصوّروا أن الله والملائكة دوراً أحساماً وموجودات جسمانية ولم يتحملوا تصوّر وجود خارج عن إطار عالم الجسم والطبيعة، ويعتمد بعض المفسرين بأن مرادهم من الإتيان بالملائكة هو أن تأتي سميت الله<sup>٣</sup> أو تشهد على كونهته، ويشير هذه كلها إلى المستوى الفكري المتخلف لأوثك القوم المعادين.



### أيتوقعون أن يأتي الله إليهم!

تحدثت الآية الخامسة والأخيرة عن الكفار والمشركين وأكادهم المسحطة فتقول

١. «ينبوع» من «بوع» وتعني عين الماء  
٢. فسرت كلمة «قَبِيل» بـ «مادة بمعنى» المعاني «وتارة بمعنى الكميل والشاهد، وتارة بمعنى الجماعة والفئة، ويمكن الموافقة على المعاني الثلاثة في مورد الآية علاء  
٣. تفسير في ظلال القرآن ج ٥، ص ٢٥٩

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾<sup>١</sup>

وقد اضطرب المفسرون بشدة في تفسير هذه الآية، فقد عدها بعضهم من متشابهات القرآن فيلزم تفسيرها في ضوء المحكمات<sup>٢</sup>، وقد ذكر البعض سبعة تفسير لها<sup>٣</sup>.

وكان تصوّرهم عن مضمون الآية هو أنه سيأتي ليوم الذي يأتي فيه الله والملائكة في ظل الغيوم، ولا يتسجم هذا المعنى قطعاً مع ما يستفاد من آيات القرآن الصريحة هي أنه ليس بجسم ولا يمكن مشاهدته ولذا يجب تأويله.

في حين أن مضمون الآية شيء آخر، ونرد منه هو الاستعظام الإنكاري ويشبه قولنا للذين يتماهلون في تحصيل العلم اتوقع أن يجعل الله لهم لقمة سائغة توضع في فمك؟ إن هذا التوقع ليس في محله.

إن الآية أعلاه تقول أيضاً هل أنهم يتوقعون أن يأتي الله والملائكة للقائهم ويقفون أمامهم ويشهدون لهم؟ إنه توقع خاطئ وفي غير محله، فليس الله بجسم ولا مكان ولا رواح أو محي، له، وبهذا ليس في الآية كما يلاحظ مشكلة خاصة حتى نحتاج إلى تأويل وتفسير معقد أو أن نحسب من التشابهات.

وتقول الآية في آخرها مهدة هذه الفئة سعادة بالعقاب الشديد، ﴿ وَفُضِّلَ الْأَمْرُ ﴾، وكان العذاب متحقق الآن، ولذا جاءت بصيغة فعل الماضي ثم تقول ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ وليس لأحد القدرة على مواحهته وليس لأحد أن يقاوم أمره، وإذا تعلقت مشيئته بعقوبة جماعة فكأنها متحققة.

هل يتعلق هذا التهديد بيوم القيامة أو الدب أم الإثنين معاً؟ لا يبعد أن يتعلق بالإنسين، لأن الآية ذات مفهوم واسع ولا يوجد دليل على تحديده بعذاب الدنيا أو الآخرة يتضح ممّا أوردناه في تفسير الآيات المذكورة بأن الميل إلى الحسن وتأثيره في تكوين

١ يقول الفهر الراري في التفسير الكبير ج ٥، ص ٢١٢ اتفق مفسرون على أن أحد معاني (النظر) هو الانتظار

٢ تفسير الميزان ج ٢، ص ١٠٥

٣ تفسير الكبير ج ٥، ص ٢١٣-٢١٦



عقيدة الشرك والانحراف عن محور توحيد طيلة تاريخ الأنبياء والأمم السالفة ممّا لا يمكن إنكاره، وأنّ الأقوام المتخلّعة فكرياً وثقافياً، أو بقيت متخلّعة بفعل إعلام الطغاة، قد اعتقدوا أنّ الوجود منحصر في المحسوسات وتنهى لظرة الإلهية بالآله المحسوس وهذا هو أحد العوامل المهمّة في شوء عقيدة الشرك في التاريخ.

✽✽✽

### توضيح

#### لماذا ألقوا عالم للحس؟!

من الواضح أنّ أصول المعلومات لدى الإنسان بأجمعها تستمدّ من المحسوسات أولاً، لأنّ الإنسان حينما يفتح عييه يلاحظ عالم المادّة ويتعرّف على عالم المحسوسات والطريق الموصول إلى ما وراء الحس، بل وتصور الوجود المجرد عن الزمان والمكان والمادّة يتمّ بعد الدراسة والتحليل في المسائل الفكرية والمعلّية والروحانية، فلا عروايد أن تكون عبادة الأصنام مذهباً للأمم المتخلّعة.

لمس جهة يعلو نداء عبادة الله من باطن قوتهم وتدعوهم قوى المعرفة الإلهية إليه، ومن جهة أخرى وبسبب معلوبيتهم أمام عالم الحس والمادّة تصعب عليهم معرفة الله المجرد عن الزمان والمكان والمادّة، ولذلك فإنهم يسيرون في طريق الشرك ويشعرون طمأناً أرواحهم بالآلهة الحيالية بصورة كاذبة.

وبما أنّ مجموعة من خدمة معبد الأصنام بل الكثير من الحكّام الطغاة ينتمون من هذا الأمر فإنهم يرفعون فيه، وفي النهاية يصبح كدس رسمي للبلاد

ومن المريب أن تترسّب هذه الأفكار أحياناً في أعماق الكثير من عباد الله الحقيقيين، وللمثال على ذلك أنّ بعض الناس يقول في قسمه: قسماً بالله الذي هو في السماء!! ويتصورون أنّا حينما نرفع أيدينا إلى السماء حين اندعاء أنّ ذلك إشارة إلى الله وأنّه يجلس على كرسي الإقترار وقد اجتمعت الملائكة من حوله!

إن هؤلاء عاقلون حقاً، فليس الله في السماء وليس في رفع اليد في الدعاء إشارة إلى مركزه، بل إن رفع اليد يعني التسليم والإصطرار، أو كما ورد في بعض الروايات إن السبب هو نزول النعم الإلهية من السماء، فالمطر وصوء الشمس - وهما النعمة في حياة كل موجود حي - مصدرهما من السماء والتوجه إلى السماء بوجه إلى الخالق العظيم لهذه النعم وعلى كل حال، ما لم يصبح الإنسان فكراً بصعب روال آثار الشراك عنه، فهو إسرائيل الذين تربوا في مدرسة التوحيد سبيل طوال عند سي من أولي العزم موسى عليه السلام وشاهدوا آثار عظمته بأعينهم عند نجاحهم من قصص، مراعاة واحترامهم الليل، وبمجرد مرورهم على عبدة الأصنام وملاحظتهم الأصنام رجعوا وطأوا موسى عليه السلام بأن يجعل لهم صنماً، فواجههم موسى برّد فعل شديد ودموا على مقاتلتهم، ولم يمض وقت طويل عندما توجه موسى عليه السلام إلى جبل الطور بصورة مؤقتة لكي يأخذ لأوامر وأحكام أشربه حتى اسفلت سامري هذه العنة ليصنع لهم صنماً ودها بني إسرائيل لهياديه، فترك أكثرهم طريق التوحيد وركعوا المحل السامري وبقيت فئة قليلة مع أخ موسى (هارون) ملزمة بسبع التوحيد وهذا ينير إلى أن العادة الساترين في طريق التوحيد وخصوصاً أمام الأقوام المتحلفة التي ترعرعت في أحواء الشرك يوجهون مشكلات كثيرة، وعسل آثار الشراك أساساً من القلوب ليس باليسير ويحتاج إلى تربية فكرية وتربية ثقافية صحيحة

### ٣- المصالح الوهمية

#### تمهيد:

إنَّ الوهم أساس الشرك، وكلَّما اردت قوة الوهم والخيال وشططت لدى الإنسان اتسع أفعى اعتقاده في الأصنام وبراكاتها وأثارها إلى حد يصعب للموجودات العاقدة للشعور والعقل، الموجودات الحامدة والتافهة والمصنوعة من الحجر والحشب على جناح الوهم والخيال ويطير بها بشكل يمسب لها كل قدره ويتذلل لها كي يعم بركتها أهل، إنَّ المصالح الوهمية في الأصنام عامل آخر من عوامل الشرك على مزاياها، وبهذا التمهيد تأمل حاشعين في الآيات القرآنية التالية:

١- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (يونس / ١٨)

٢- ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصَرُونَ﴾ (يس / ٧٤)

٣- ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّيْسَ لَهُمْ بَعْدُهَا عِزٌّ﴾ (مريم / ٨١)

٤- ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر / ٣)

#### شرح المفردات:

«شفعاء»: جمع (شفع) ويعني كما يقول صاحب (مصباح اللغة): ضم شيء

إلى شيء آخر وكما يقول صاحب المفردات يعنى صمّ شيء إلى مثيله، وأمّا صاحب (مقاييس اللغة) فإنه يذهب إلى أن أصله هو لمعاريه بين شيئين.

هذه التعابير تعود كلها إلى معنى واحد تقريباً ومن ثم أطلق على حالة انصمام شخص قوي ومكين إلى شخص أضعف من أجل إبقائه وعائنه، وقد ورد بهذا المعنى في آية البحث هذه وكثير من الآيات القرآنية، كما جاء عدد (لشمع) بمعنى (روح) في قبالة (الوتر) بمعنى المرء.

«زُلْفَى» من (الرُفْع) ويعنى في الأصل قرب والمزلة والدرجة كما يطلق هذا اللفظ على الخطوه لما للحطوات من تقرب للهدف، وقد استعمل في آيات البحث بمعنى القرب المعنوي الذي يوحىء المشركون من عبادة الأصنام إلا أن بعض المحققين يعتقد بأن (زُلْفَى) أكمل من معنى القرب فهي العرسه العانية من معنى القرب في الحفصة، ولكنه رأي بعيد كما يبدو عند ملاحظة موارد الاستعمال ويطلق هذا اللفظ على الساعات الأولى من الليل كما في قوله تعالى ﴿أَنِيمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَى مِنَ اللَّيْلِ﴾ (هود / ١١٤)

### جمع الآيات وتفسيرها

#### الأصنام شفعاءونا؟!

تشير آية البحث الأولى إلى إحدى المعتقدات المعروفة لدى المشركين في الأصنام حيث تقول الآية ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

الكلام في أن هؤلاء كيف اعتقدوا بأن هذه لموجودات الحامدة لها الشعاعة عند الله؟ للإجابة على السؤال قال بعض العلماء إن المشركين كانوا يعتقدون أن عبادة الأصنام بمرلة عبادة الله ووسيلة للتقرب إليه، وقد ظهر هذا الاعتقاد من طرق مختلفة وكانت فئة تقول لسنأ أهلاً لعبادة الله دون واسطه، لأنه عظيم جداً ولذا نعبد الأصنام

كمظهر وصورة عن الملائكة لكي تقرّوا إلى الله، بينما دلت فئة أخرى بأن الأصنام هي اقنعة لنا لدى عبادة الله كما يستعمل المسلمون القبعة عند العبادة، وقد اعتقدت فئة أخرى بأن كل صنم يقترب به شيطان وكل من عبد صنم ويؤدي حق عبادته فإنّ ذلك الشيطان يلبس حوائجه بأمر الله وإن لم يعبدّه فإنّ الشيطان يسيء إليه<sup>١</sup>، وإلى ما شاكل من هذه الخرافات والأوهام.



وتشير الآية الثانية إلى عميده أخرى عند مشركين حيث تقول: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّهُمْ أَنْصَابٌ يُنْصَرُونَ﴾، وذلك من أجل أن يدر إلى حل مشاكلهم وإعانتهم في الإبلات والحروب والأمراض، وتدفع عنهم خطر الجوع والفقر والحفاف، وتدافع عنهم في الآخرة؛ وبإله من خطأ فادح! فإنّ قصته كانت معكوسة حيث يهرعون لإعناد أصنامهم من الأخطار ويحفظونها من الأعداء، **وَالسَّاهِبِينَ كَمَا يَكُونُ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ** ﴿قَالُوا خَرُّوا قَرْنَ قُوَّةٍ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾. (الأنبياء / ٦٨)

إنّ اعتقادهم بأنّ الأصنام تحميهم ويعينهم لم يكن سوى حبال ووهم قطعاً، ولهدم الاعتقاد سبب في الإنحطاط المعكرو والتخلف الثقافي، وهذا الأمر هو أحد مصادر الشرك على مرّ التاريخ.

وقد طرحت الآية الثالثة هذا المصموم بشكل آخر حيث تقول: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾، وليس المراد من العزة هو السمعة، بل اكتساب القوة والعصر والشعاعة من عند الله، وكان هذا أيضاً وليد سوء فهمهم، ولذا نلاحظ في هذه الآية من سورة مريم نفسها بأن حُجب الأوهام حينما تزول ويسبّئ العمل فإنّ المشركين يدركون خطأهم القطيع وسرعان ما ينكرون عبادة لأصنام ويعلمون عليها، كما ورد بأنّ المشركين يقولون يوم القيامة: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. (الأنعام / ٢٣)



وأخيراً فإن الآية الرابعة والأخيرة بعد الإعلان عن ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ فهي تهديد المشركين وتضيق ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيَحْبِسُواَنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

## توضيحات

### ١- منشأ الانتقاد بالشفاعة

يحب كل عاقل عندما يواجه قصيدة الشك لأول مرة، فكيف يمكن أن يخضع إسان عاقل ذو شعور لتمثال حجري أو خشبي قام بصنعه بيده؟ ولو كان يمتلك قليلاً من العقل لكان هذا غير مقبول لديه، ولو عرفنا أسباب ذلك لوحدنا أن القصيدة ليست بسيطة كما يرى، فإن مجموعة من الأوهام والفضلة والخيال ولعادات طرحت كأدلة عقلية وحدعت المشركين

يقول الفخر الرازي في ديل تفسير الآية ١٨ من سورة يونس:

فمن قالوا في الأصنام هؤلاء سمعواؤنا عند الله وذكر وافيها أفعال كثيرة

١- إن فسماً من عبدة الأوثان اعتقدوا أن مذهب شؤون أقليم من أقاليم العالم، روح معين من أرواح عالم الأفلاك، ولأنهم لا يسمون إلى تلك الروح صنعوا لها صنماً معيناً واشتعلوا بعبادته، وكل قصدهم هو عبادة تلك روح، ثم اعتقدوا أن تلك الروح عبد للاله الأعظم ومشتعل بعبوديته.

٢- والقسم الآخر كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أن الكواكب هي التي لها أهلية عبودية الله تعالى، ثم لما رأوا أنها تطلع وتغرب وصنعوا لها أصناماً معينة واشتعلوا بعبادتها وغرضهم عبادة تلك الكواكب.

٣- أما القسم الثالث، فقد وضعوا طلائع معينة على تلك الأصنام وأخذوا يتقربون إلى

١ قال كثير من المعترضين بأن ﴿والذين﴾ مبتدأ وخبر، ﴿إن الله يحكم بينهم﴾ وجلة ﴿ما يعبدهم﴾ فيها معذوف هو بمرارة الحال والتقدير ﴿قاتلين ما يعبدهم...﴾

الأصنام بواسطة هذه الطلائع «والطلسم» نوع من السحر، ويقول بعض المفسرين أن «الطلسم» عبارة عن أشكال ورسومات يعتقدون بأنها تمثل سلطات سماوية اختلطت مع الأرض، وأصبحت مصدراً لأثار عجيبة وعريية! وهذه النقوش مفضلة على أشياء مختلفة، حيث يعتقدون بأنها وسيلة لدفع الموجودات مؤذية وإبعاد أذيها عنهم<sup>١</sup>

٤- والبعض منهم صنعوا هذه الأصنام ولأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى ما اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإنّ وثك الأكبر يكون شفعا لهم عند الله تعالى. ٥- وآخرون اعتقدوا أنّ الإله نور عظيم وأنّ الملائكة أنوار فوضعوا على صور الإله الأكبر الصنم الأكبر وعلى صور الملائكة صوراً أخرى.

٦- لعلّ من بين عبدة الأصنام طائفة من بحلولة حيث يعتقدون أنّ الله يحل في الأجسام الشريفة وبذلك فإنهم دأبوا على عبادة هذه الاجسام<sup>٢</sup>

و يقول مفسر آخر إنّ أول ما عبّدت الأصنام هي قوم سوح سوح وذلك أنّ آدم كان له خمسة أولاد صلحاء وهم «ود، وسواح، ويغوث، ويغوث، وسره» فعاب «ود» فحزن الناس عليه حزناً شديداً فاجتمعوا حول قبره في أرض يابل لا يكادون يمارقونه فلما رأى إبليس ذلك جاء إليهم في صورة إنسان وقال لهم هل تريدون أن أصنع لكم ما إن نظرتم إليه ذكرتموه؟ قالوا: نعم، فصنع لهم تماثلاً.

وهكذا كلّما مات واحد من أنبياء آدم صنعوا له تماثلاً وسقوه بإسمه، ويتقدم الرمان ونسيان الأجيال أعاد الشيطان قائلاً: إنّ أجددكم كانوا يعبدون هذه الأصنام فاعبدوها، فأرسل الله إليهم نوحاً عليه السلام فنهاهم عن عبادتهم فلم يجيبوه لذلك...<sup>٣</sup>



١ دائرة المعارف دهخدا ج ٣٢ ودائرة المعارف مصاحب، ج ٢ مادة (طلسم)

٢، التفسير الكبير، ج ١٧، ص ٦٠٠ (مع الإختصار اليسر)

٣ تفسير روح البیان، ج ٤، ص ٢٦ (باختصار).

## ٢ - تاريخ عبادة الأصنام والأوثان

إنَّ أوَّل من أقام عبادة الأصنام بين العرب هو عمرو بن لُحَي من قبيلة خِزاعة، فقد خرج من مكَّة إلى الشام في بعض أموره فمَّا قدم مَدَن من أرض البلقاء رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام يعبدونها، تستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تطوسي منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له (هُبَل)، فعبد به مكَّة فصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه وكانت هناك صخرة يلي عليها السوق للحجاج رجل من ثعيف وكانت تسمى صخرة اللات، مات الرجل فقال لهم عمرو: إنَّه لم يمت ونكس دحل في الصحرة وأمرهم بعبادتها...<sup>١</sup>

وبل بعض آخر، إنَّ ظهور عبادة الأصنام ابتدأه جماعة كانت تسرى الله إلى درجة لم تسمح لهم بعبادته ولذا صنعت صنماً جَلَّ للتقرب إليه أو أنها اعتقدت إنَّ الإله عندما يحفى عن الحسِّ والعمل فعبادته غير ممكنة، ولذا يجب التقرب إليه من خلال المحسوسات! وقال بعض المؤرخين:

«ويرغمون أن أوَّل ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل إنَّه كان لا يطعن من مكَّة طاع من منهم، حتَّى صافت عليهم، والنمسوا انفسح في ايلاد إلَّا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم فحيثما برلوا وصعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتَّى سلح ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وعجبهم<sup>٢</sup> حتَّى خلق الخُلوْف. ٨»

كما ورد في تفسير الميراث:

وقد كان عبدة الأصنام يعبدون الأصنام لينفروا بعبادتها إلى أربابها وبأربابها إلى ربِّ

١ تفسير روح البیان، ج ٤، ص ٢٦ (مع اختصار يسير) وقد ذكر العلامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٤٨ بعد الروايات: ١، ٧، ٨ قصة ظهور الشرك في قوم نوح هذا وقد ورد في (هلوغ الإرب ج ٢، ص ٢٠٠) قصة عمرو بن لُحَي وهديته الحبيثة التي جاء بها من الشام كما نقل ابن هشام في أسيرة النبوة ج ١، ص ٧٨، موضوعاً قريباً من هذا المضمون.

٢. أسيرة ابن هشام، ج ١، ص ٧٩



الأرباب وهو الله سبحانه ويقولون «سأعلى ما بنا من أنوار البشرية المادية وقدرات الذنوب والآثام لا سبيل إلى رب الأرباب يظهره ساحته وقدسها ولا نسبة بينها وبينه. فمن الواجب أن نتقرب إليه بأحب حالاته إليه وهم أرباب الأصنام الذين موصى الله إليهم أمر تدبير خلقه، ونتقرب إليهم بأصنامهم وسمائهم وإنما بعد الأصنام لتكون شفعاء لنا عند الله لتجلب إلينا الخير وتدفع عنا الشر فتقع العبادة للأصنام حقيقة، والشعاعة لأربابها وربما نسبت إليها»<sup>١</sup>.

وبهذا أبسوا معتقداتهم انحاطة ونحرافة ثوباً مطفياً في الطاهر، وطهر الصلال على صورة الهدى واحتلت وساوس الشيطان موقع المطلق والبرهان.



### ٣- عوامل أخرى للشرك وعبادة الأصنام

في الحقيقة أن الشرك وعبادة الأصنام تصيئة معقدة وليس وراءها عامل واحد كسائر القضايا الاجتماعية المعقدة. بل هناك عوامل مختلفة بماضد على حدوثها. فمثلاً بعد أن أقواماً عبدوا الشمس والقمر والكواكب وهالك جماعة عبدت النار، وجماعات عبدت الأنهار الكبيرة كاسبيل في مصر، وبكنج في الهند، ويعني ذلك أن كل ما فيه الخير والبركة، يكون مقدساً، وكانت تنضف قدسيتها تدريجياً إلى حد اعتبارها آلهة، وتعتبر آخر كانوا ينيهون في عالم الأسباب ويسوسون الله وهو (مسبب الأسباب)، لافتقادهم البصيرة النافذة التي تختار الأسباب لتصل إلى خالق الأسباب وانتهى هذا بهم إلى عبادة الأصنام



١ تفسير الميراث، ج ١٠، ص ٢٧ ديل الآية ١٨ من سورة يوسف.



مکتبہ اسلامیہ

## ٤ و ٥ - عاملي التقليد والاستعمار

### تمهيد:

لا شك في أن عامل التقليد من العوامل المؤثرة في توارث عبادة الأصنام جيلاً بعد جيل بل وانتشارها في العالم، ويسند القرآن الكريم إلى ذلك مراراً ويطرحه تحت عنوان الدليل الوحيد الذي يثبتك به مشركو العرب.

إن العيش في أجواء الشرك واحترام الأجداد والأسلاف والتأثر بالنطق في مرحلة الطفولة قد تعاضدت فيما بينها على إبراز عمل خرافي وحاول سامياً وهو عبادة مجموعته من الأحجار والأخشاب العاقدة لكل شيء بشكل متطعن ووجيه بل ومقدس.

ويهدد التمهيد نراحم القرآن انكريم لتأمل خاشعين في الآيات التالية.

١- ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّ وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ • وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفِقُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾.

٢- ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظُرُهَا عَاكِفِينَ • قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ • أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ • قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (الشعراء / ٧١-٧٤)

٣- ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِثَلَاثَةِ آيَاتٍ • وَجَدْنَا آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

٤- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة / ١٧٠)

٥- ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ آبَاءَكُمْ﴾<sup>١</sup>  
(سورة سبأ / ٤٣)

### شرح المفردات:

«صنم»: كما يقول الراغب في المعردات: مثال من قصّة أو نحاس أو خشب يعبدونه ويتقربون به إلى الله، وفي (لسان العرب) هذا اللفظ أخذ من أصله من (شمن) وهي كلمة فارسية أو آرامية أو عبرية<sup>٢</sup>.

وتعتقد جماعة من اللغويين أنّ الفرق بين (الصنم) والوثن) هو أنّ صنم يطلق على أصنام لها شكل وصورة خاصة ولو لم يكن لها شكل وصورة خاصة أطلق عليه (وثن) «أب» ويعني الوالد ويطلق أحياناً على نسب في حدوث شيء أو (يقوم باصلاحه أو إظهاره) إلا أنّ هذه المعاني لها خصائص كناية في الظاهر، وقد جاء في (مقاييس اللغة) إنّ هذا اللفظ يدلّ في أصله على التربيّة والتعذيب وهذا أنّ الوالد يعذّب الأبن بعد أن أطلق عليه هذا اللفظ.

«كناية» - كما في المعجم - ١٤٥

ونقرأ في «كليات أبي الفداء» إنّ أصحاب شرائع السابئة كانوا يطلقون (أب) على الله لأنّه السبب الأوّل للحلق، ثمّ اعتمد الجهلاء والمعاقلون بأنّ (أب) هنا معنى الولاده (وبذلك سلكوا طريق الكفر)

وفي كتاب (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) وبعد اعتبار الأصل في هذه المادّة هو التربيّة والتعذيب ورد بلحاظ هذا المفهوم أنّ لأب مصاديق كثيرة مثل الله المتعالّي، الوالد، النبي، المعلم، الجدّ، العم وغيرها (ولذلك فإنّ «أب» له مفهوم أوسع من معنى الوالد).



١ وهناك آيات عديدة تنصّ مضمون هذه الآيات يشير إلى مواضع الأعراف ٧ و ١٧٣ إبراهيم، ١

٢ ورد لفظ «شمن» في المصادر الفارسية بمعنى عابد الصنم أرجع دائرة معارف دغدغا وقاموس معين وغيث اللغة.

## جمع الآيات وتفسيرها

### عبادة الأصنام دين أجدادنا!

اعتقدت طائفة من مشركي العرب أن لملائكة بسات الله وعكفت على عبادتها، والآية الأولى في هذا البحث ترد على هذا الفكر اندهلي من حواش مختلفة فتحاطبهم تارة. إنكم تفرحون بالوليد إذا كان ذكراً ولكن نحزون إذا كان أنثى فكيف تنسبون إلى الله البسات؟ (هذا الجواب يناسب طبعاً - درجة فهمهم وفكرهم) وتذكر تارة أخرى حجبهم الواهية لهذه العبادة وترددهم وتصل إلى هذا الدليل أحيراً ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾<sup>١</sup> ولكن القرآن يخاطب النبي الأكرم ﷺ مباشرة ويقول: إن التقليد الأعمى هذا والإلتباع اللامشروط واللامقيد يمثل عبادة سلبية وهذه الأعداء الواهية التي لا أساس لها لا سحر في مشركي العرب فحسب بل، ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾.

وبذلك أشاروا إلى أن أحد العوامل الرئيسة في انتشار حرافه الشرك حيلاً بعد حيل هو التقليد الأعمى واللامشروط واللامقيد والتعصير على الفضل والإدراك وعدم بدل جهود في التحقيق والتدبر والإستسلام أمام حرافات لأسلاف

و، لاستناد إلى عنوان (مرفوع) كما يقول بعض المعصرين فيه إشارة إلى أن التشبث بالدنيا والإستمتاع بالدلائل المادية والمتنوعة والكسل أو الجزع من جهود التحقيق والاستدلال هو السبب لهذا التقليد لأعمى نبيح، فلو أنهم تحلصوا من هذا الحجاب المظلم لم يصعب عليهم رؤية وجه الحقيقة، وهذا يقول النبي الكريم ﷺ «حُبِّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ ضَلَالَةٍ»<sup>٢</sup>.

١ «أُمَّة» في الآية - كما يعتقد جمع من المعصرين - عبارة عن السبج المتفق عليه لدى طائفة وقد فسرها بعض المعصرين بمعنى الجماعة والفئة، والمعنى الأزل هو المشهور وإن وردت (أُمَّة) في آيات أخرى بمعنى الجماعة وقد تأتي بمعنى المدة الزمنية

٢ التفسير الكبير، ج ٢٧ من ٢٠٦، كما توجد إشارة إلى هذا الأمر في تفسير روح البیان وتفسير الميرزا في ذيل آية البحث.

والجدير ذكره أن ديل الآية الأولى تنفر عنهم قولهم: ﴿إِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ وقولهم في ديل الآية الثانية ﴿إِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ وهذا الاختلاف في التعبير قد يكون من قبيل (العلّة والمعلول) بمعنى أنهم دَعَوْا بِنَا إِنَّمَا مَقْتَدِي بَأَسْلَافِنَا لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ طريق الهدى والوصول إلى الحق!

على كل حال فإن القرآن الكريم في طول هذه الآيات يرد على هذا المكر الباطل بشكل منطقي جميل ومعكم وينقل عن الأنبياء السابقين قولهم للمشركين المقلّدين الحراميين: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ يَمًّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آيَاتِهِمْ قَالُوا إِنَّ يَمًّا أُرْسِلَتْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الزخرف / ٢٤)

وللتقليد - كما سبق - أنواع وأقسام، فبعضه منطقي ويكون سبباً لانتقال العلوم من جيل إلى جيل آخر، وبعضه خرافة وحمق وسبب لانتقال الحرافات والقبائح وكل ذلك علامات سوف تشير إليها لاحقاً.



الآية الثانية من مجموعة الآيات المتعلقة بمواجهة إبراهيم عليه السلام مع عبدة الأصنام في بابل حيث سألهم بمسقطه الرصين انصريح: ما عبدون؟ فكان جوابهم ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظُرُ لَهَا وَكَاكِبِينَ﴾

وبهذه الكلمات لم يقرّوا بالشرك فحسب بل راحوا يتفاخرون ويتباهون به، وقد سَدَّ إبراهيم عليه السلام الطريق عليهم من خلال سؤال واحد: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾، أي أنها (الأصنام) من سم تسمع ولم تضر فلا بد من أن تسمع نداء عبّادها على الأقل وإلا لا معنى لعبادتها.

ولكن أولئك الذين لم يجرأوا على الادّعاء بأن الأصنام الحجرية والحشبية تسمع دعاءهم وتضرّعهم، كما أنهم لم يمتلكوا دليلاً على إثبات صرّها وسمعها لتبرير عملهم، اضطروا للتمسك بأسلافهم والتشبّث بالتقليد لأعمى وقالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وهذا الجواب وإن كان مفحلاً إلا أنهم لم يمسكوا شيئاً ليقدموه.

وفي طول هذه الآيات يردهم إبراهيم عليه السلام بسطق رصين: ﴿ قُلْ أَقْرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ \* أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ \* فَإِنَّهُمْ عَشُوْنِي وَلَا رَبَّ الْعَالَمِينَ \* الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ \* وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ \* وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ \* وَالَّذِي يُبَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ \* وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (الشعراء / ٧٥-٨٢)

في أنه أهل للعبادة فهو المبدىء بكل الحيراب والبركات، لا تلك الموجودات العارضة والعاقدة للقيمة.



ونقل الآية الثالثة كلاماً يقوم مرعون ومنها انعكس لهذا المصمون شكل آخر حيث تقول: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْبِسَ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ﴾<sup>١</sup> وعليه «وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ»

أنهم استبدوا - في الحقيقة - إلى هذه النقطة لإثبات صحة مسلكهم وقداسته وهي أن هذا هو طريق الأسلاف وديهم وعاداتهم، ولكي يتهموا موسى وهارون بأنهما يتآمرا قالوا: إنكما تبعيان الحكومة عن طريق الدعوة إلى التوحيد وهدم الشرك وعبادة الأصنام من أساسها ولا تسمح بذلك ويبدو أن هذا الكلام لهما من قبل ربانية مرعون حيث عارضوا دعوة موسى وهارون للتوحيد بطريقتين شيطانية:

١/ عدهما - هو إثارة العواطف لدى عامة الناس الساهلين وذلك بالتحذير من أن دين أسلافهم في خطر، والآخر - هو إثارة سوء الفهم بوصف دعوة موسى وهارون أنها تجري وفق مخطط مسبق للوصول إلى الحكم ولأنها لا واقعية لها

وقد استخدم هؤلاء الجبابة وانظمة هذين الطرفين لاستغلال الناس ومواصلة حكمهم

١ «لنلْبِسَ» من «لبس» وهو الصوف من السوء أو لابسات بني السوء لو تعدت به (من) ماإنها تعني الإنصاف وبإلى) فإنها تعني (النوجه).

الاستبدادي، كما يلاحظ في الآية حيث جاء تعبير أكثر صراحة «قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسَاحِرٌ زَائِرٌ يُرِيدُ أَنْ يُفْرَجَ جَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمْ وَيَذْهَبَ بِطَرِيقِكُمُ الْمَثَلُ» (طه / ٦٣)



### للجواب الدلتهم للمشركين:

إن الآية الرابعة تنقل هذا المضمون على صورة إجابة دائمة من قبل مشركي مكة حيث تقول «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفِينَا عَلَيْهِ آباءَنَا» وهذا في الحقيقة هو منطق كل معاند لحجج حيث يتوسل بالتقليد حينما يمحز عن كل شيء، التقليد الأعمى للأسلاف الصالحين، ولعاهلين و تنعأخر بذلك دون امتلاك أى جواب تحاء الأدلة المحكمة التي أقامها الأنبياء لإثبات حقة دعوتهم وبطلان الشرك وعبادة الأصنام.

والقرآن الكريم يرد هذا المنطق بجمله قصيرة واحدة حيث تقول في طول هذه الآية شكل سؤال «أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْمَلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ»<sup>١</sup> أي أن تقليدهم لو كان كتقليد الجاهل للمعم لكأن مقولاً، ولكنه ليس كذلك بل هو تقليد جاهل لجاهل آخر، واتناع صال لصال آخر، فمثلهم كالأعمى الذي يقوده أعمى آخر إن هذه الآية وما سبقتها من آيات تتحدث - كما يفهم من سياقها - عن مشركي العرب، وما احتمله بعض المعشرين من أنها تقصد اليهود وما ورد عن ابن عباس بشأن سبب نزولها يُعد أمراً بعيداً.



١ في الآية جملة مقدرة معناه «اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ» هم في كل حال وفي كل شيء ولو كان آبائهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون»



تحدثت الآية الخامسة والأخيرة عن مشركي العرب أيضاً حيث كانوا: «وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا بِآيَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَبْذُلَكُمْ عَنْهَا كَذَنَ يَعْبُدُ آثَاؤَكُمْ». والملفت للنظر أن القرآن الكريم يقول إنهم كانوا يواجهون (الآيات البينات) بمنطق (التقليد) والاستهراء بالنبي الأكرم ﷺ فكانوا يدعونه بكلمة «رجل» ولكي يستميلوا عامة الناس إليهم يحاطبونهم بـ (أسلافكم) بدلاً من (أسلافنا) ليثيروا عصبيتهم في مواجهة النبي الأكرم ﷺ!



ومن مجموع هذه الآيات نستنتج أن ظاهرة التقليد لأعمى تعدّ من العوامل المؤثرة في تناقل الإعتقاد بالصم في العصور ولقرون متعاقبة، ولم يكن الرسول الكريم ﷺ الوحيد من الأنبياء الذي تعرض لهذا الأسلوب عندما صدح بدعوته وبهتس لمقارعة الشرك وعبادة الأصنام، فقد واجهه قومه بحجة تقليد الآباء والأجداد ومن سلفوا، وقد جاء هذا المعنى في الآية ٤٣ من سورة سبأ والآية ٢٢ من سورة مَرْحُوف بل إن أنبياء ورسلاً أمثال موسى ﷺ، كما ورد في الآية ٧٨ من سورة يونس وإبراهيم ﷺ، وكما ورد في الآيات ٧٠ إلى ٧٤ من سورة الشعراء وهود ﷺ، وكما ورد في الآية ٧٠ من سورة الأعراف وصالح ﷺ، وكما ورد في الآية ٦٢ من سورة هود تعرضوا بسبب ما تعرض له الرسول ﷺ حيث واجههم أقوامهم بحجة تقليد الأسلاف والسير على عديم النبي ألقواها منهم

وهذه الحجة الواهية والمريضة تثار في أوساط جميع الأقوام وعلى مرّ العصور، فعبدة الأصنام وفي كافة أنحاء العالم ومن أجل مواجهة الأنبياء والرسل وحملة راية التوحيد، فإنهم يثيرون مثل هذه الحجة الحاحية، وقد سارت الآية ٢٣ من سورة الرخرف إلى هذا المعنى.

ومن الواضح أن التقليد الأعمى لم يكن عاملاً الأوّل لظهور الشرك، بل يشكل عاملاً لاستمراره وانتقاله من جماعة إلى أخرى ومن جيل إلى جيل



### توضيحات

#### ١ - التقليد، عامل للتقدم ثم للانحطاط؟

مما لا شك فيه أن التقليد إذا تمثّل في تباع وإمباس عديمي الاطلاع من العلماء فإنّه عامل على إيجاد حركة تكاملية في المجتمعات البشرية وأساساً بعد أن العلوم والأفكار والآداب والعادات البتاء، كما أن الشؤون اشرية و لإنسانية قد انتقلت من جيل إلى جيل عبر هذا الطريق.

إن الأطفال يكتسبون جلّ معلوماهم من المجتمع عن هذا الطريق تقريباً، كما أن الصاعات والجرف والصور تتوسّع وتنكمّل بهذا الطريق أيضاً، ولولا روح التقليد الإيجابية والبتاء لم تحدث هذه الحركة التكاملية أبد.

إن تقليد «الحاهل للحاهل» أو «لعالم لجهل» يكون سبباً لشبوع الفساد والانحراف والاخلاق العاسده، والخرافات، والانحرافات للفكرية من قوم إلى قوم أو جيل إلى جيل، ومثل ذلك كمثل الماء الصافي والذي يمثل عصب العساء، فإذا ما ملوث بالأمراض والميكروبات فسوف يصبح وسيله لانتشار تحيكر وباء والأمراض والأوبئة

وكثيراً ما ينشأ التقليد من الكسل والعصب قالدين لا يتحملون جهود التحقيق لما فهم من كسل يقبلون على التقليد، والمعاندون استعصبيون لدين لا يهتمون للبحث عن نقاط القوة لدى الأقوام الأخرى والإذعان بها، يأثرون نقاط الصعب الموجودة في مجموعتهم، وقد كان هذا النمط من التقليد الأعمى والمعصب والرحمي هو العامل المهم لشبوع الشرك وعبادة الأصنام على مرّ التاريخ<sup>١</sup>



#### ٢ - تزيين الشياطين وهوى النفس

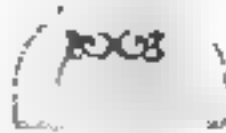
يستفاد من الآيات القرآنية أن (اتباع الهوى، كان من عوامل الشرك أيضاً، كما تقرأ في

١ هناك بحوث حول أنواع التقليد وشرائط التقليد الإيجابي ودواعي التقليد الأعمى وشرح كلمة (تقليد) في الجزء الأول من هذا التفسير في موضوع (حجاب التقليد)، ح ١، ص ٢٧٢

قصة السامري جوايه حينما سأل موسى ﷺ عن الدافع لعمله بأنه لاحظ أموراً لم يلاحظها غيره فقال: أخذت بعض آثار الرسول وألقيتها خارجاً وأقبلت على الشرك. ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾.

كما يستفاد من الآيات القرآنية أن تزوين شيطان ووساوسه هي العوامل الممهدة للشرك أو استمرارها، كما نقرأ في قصة ملكة سبأ أن الهدد عندما أخبر سليمان ﷺ عن شرك قوم سبأ قال: ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْيَانَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (المل / ٢٤)

وما ينبغي ملاحظته هو أن هوى نفس ووساوس الشيطان تظهر في إطار العوامل السابقة كعبادة الأوهام (التقليد الأعمى) (المصنعة للجوحه) ولذا لم نورد هنا عامل هوى النفس كعامل مستقل.



### ٣ - عامل الاستغناء والاستعمار للفكري

يعتبر انشرك وعبادة الأصنام من لوسائر لى استخدمها المستكبرون والمستعمرون بشكل دائم لأنه:

﴿وَلَا يَنْبَغِي لِلنَّاسِ أَنْ يَسْجُدُوا لِلْبَشَرِ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَمَنْ سَجَدُوا لَقَالُوا لِلَّهِ فَحَسْبُ الْغُلَامِ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف / ٥٤)

ولذا إن البسطاء من الناس يعتبرون وسائر طيعة للمسكبرين، ولذا يكون النحرّك الاستعماري دائماً باتجاه الجهل والعمى في أوساط المستضعفين، ويسعى باستمرار إلى صدّ الناس عن الوعي واليقظة والعدم والمكر وغلق أي نافذة للتحقيق في حوهم وإغراقهم في التقليد الأعمى الذي يشأ منه جهل المطبق كما يقول القرآن عن فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ﴾.

وبما أن الشرك قائم على عبادة الأوهام و يظنون بأنه عامل مؤثر في استغلال الجماهير، وهو أداة نافعة لتحقيق أهداف المستكبرين.

ثانياً. يعتبر الشرك عاملاً من عوامل الاختلاف وتفرّق فروع لكل قوم بأن يتحدوا

معبوداً لهم، فيدفع مجموعة لعبادة الشمس ومجموعة لعبادة القمر، ويشغل مجموعة بـ (هبل)، ومجموعة بـ (اللات) و(العزى)، حتى انقسم المجتمع العربي الصغير في الجزيرة إلى مئات المجموعات بسبب عبادة الأصنام المختلفة، على عكس التوحيد الذي يمثل حلقة الوصل بين القلوب ورباطاً وثيقاً بين الأفكار.

ونعلم أيضاً أن الاختلاف ما دام قائماً دبراً لمستعمرين في راحة بال، وأن مقولة (فرق تسد) تعدّ من أقدم السادي الاستعماريه، فلا عجب في أن يكون الفراعنة ونمرود وأبو سفيان وأمثالهم من أنصار الشرك وعبادة الأصنام.

**الثالث:** يهدف المسيكون دائماً إلى أن يحصع الناس لهم وكأنهم آلهة ويتلقون أوامرهم كأوامر مقدسة لا نقاش فيها.

ومن الواضح أن من سجد للحجر والحشب يكون أكثر تعلاً بالآلهة الشرية، ولذا أحد هرعون سادي في مصر (أنا ربكم الأعلى) واعتبر نفسه أعلى من الآلهة كلها سواء على هذه الجوانب الثلاثة فلا عجب أن تتواكب الأفكار الاستعماريه مع الشرك وعبادة الأصنام، وأن يكون خطأ الأسماء الذي يمثل خطأ الفصاء على الاستعمار والاستصعاف هو خطأ التوحيد واليقظة والوعى، لتذكر مرة أخرى الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام الذي قال فيه «إِنَّ هِيَ أُمِّيَّةٌ أَطْلَقُوا لِلنَّاسِ تَعْلِيمَ الْإِيمَانِ وَلَمْ يَطْلُقُوا تَعْلِيمَ الشَّرِكِ لِكَيْ إِذَا حَمَلُوهُمْ عَلَيْهِ لَمْ يَعْرِفُوهُ»<sup>١</sup>.

إن هذا المصمون وأن لم يصرح به في الآيات القرآنية إلا أنه أشير إليه كما قرأ في الآية: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَمْرُ لَكُمْ مُؤْمِنِينَ» (سبا / ٣).

#### ٤ - كلمة أخيرة حول هولاء الشرك

من خلال البحوث التي أوردناها تتضح هذه الحقيقة وهي إن الشرك وعبادة الأصنام

كسائر الظواهر الاجتماعية لا تنشأ من عامر واحد بل توجد عوامل مختلفة تعاضدت على إيجاده، من بينها.

الميل إلى المحسوسات والإشتياق بها و مطاللة باله محسوس  
والدجوة إلى الأوهام في المجتمعات المنحرفة (ظن بتأثير الأصنام في الشعاعة والعزة  
والنصر والتقرب إلى الله والظن بعدم إمكانية عبادة الله بصورة مباشرة ووجوب استخدام  
الوسائط وانظن بقداسة التماثيل المصنوعة على هيئة الأشياء والصلحاء وأوهام أخرى).  
وهكذا التقليد الأعمى للأسلاف وعدم الإستعداد لتحقيق في قصية المعرفة الإلهية  
كذلك استعمال المستكبرين والمستعمرين للمعن إلى الشرك وعبادة الأصنام للوصول  
إلى أهدافهم الشيطانية، واستعمال الناس كانت عوامل مختلفة سست فكرة الشرك أو  
استمراره وبغائه على طول التاريخ

وقد واجهت هذه التيارات المنحرفة القوية معطى الأنبياء الذى يدعو الشر من جهة إلى  
التحرر من إطار الحس وإدراك ما وراء الطبيعة، ومن جهة أخرى يدعوهم إلى عبادة الله  
مباشرة والحصول بين يدي رب الكون كله واللجوء إلى فانه المقدسة في كل حال والعصاء  
على الأوهام.

ومن جهة ثالثة يدعو لكسر طوق التعبد لأعمى والإقبال على البحث في عالم الوجود  
ومعرفة الآيات الإلهية في الآفاق والأعرس  
ومن جهة رابعة يدعو عالم انبشيرية إلى توحدة وتحطيم الأصنام المفرقة والتحرر من  
نير الإستغلال والاستعمار والفعل والاستصعاف.

هذه هي الخطوط العامة للكفر والإيمان والشرك والتوحيد  
ونختم هذا الكلام بما وردته العلامة الطباطبائي رحمته الله في تفسير الميراث في ذيل الآيات  
٣٦ - ٤٩ من سورة هود تحت عنوان (كيف وحّد الشرك) «أتصع من الفصل المتقدم أنّ  
الإنسان في مزلة من تجسيم الأمور المعنوية وسبك غير المحسوس في قالب المحسوس  
بالتمثيل والتصوير وهو مع ذلك معطور للحصوع أمام أي قوة فائقة قاهرة والإعتناء بشأها،

ولذا كانت روح الشرك والوثنية سارية في مجتمع إنساني سرية تكاد لا تقل التحرّز والإحتتاب في المجتمعات الراقية الحاضرة وحتى في المجتمعات المبنية على أساس رفض الدين، فترى فيها من النُصب وتماثيل لرجال وتعظيمها واحترامها والمبالغة في الخضوع لها ما يمثل لك وثنية العهود الأولى وإنسان الأولى، على أن اليوم من الوثنية على ظهر الأرض ما يبلغ مئات الملايين قاطنين في شرقها وغربها.

ومن هنا يتأيد بحسب الاعتبار أن تكون وثنية مبنية بين الناس باتخاذ تماثيل الرجال العظماء ونصب أصنامهم وخاصة بعد لموت يكون في ذلك ذكرى لهم، وكان رب البيت في الرومان واليونانيين القدماء - على ما يذكره لتاريخ - يُعبد في بيته، فإذا مات اتخذ له حسم يعبد أهل بيته، وكان كثير من الملوك والعظماء معبودين في أوطانهم، وقد ذكر القرآن الكريم منهم سرود الملك المعاصر لإبراهيم عليه السلام وهو ذا يوجد في بيوت الأصنام الموجودة اليوم، وكذا بين الآثار العتيقة المحفوظة عنهم أصنام كثير من عظماء رجال الدين كبودا وأصنام كثير من البراهمة وغيرهم، واتخاذهم المومي وعادتهم لها من الشواهد على أنهم كانوا يرون أنهم لا يطلون بالموت وإن أرادوا لهم نافية هذه، لها من العناية والأثر ما كان في حال حياتهم بل هي بعد الموت أقوى وجوداً وأشد إرادةً وأشد تأثيراً من شوب المادة وسبب من التأثيرات الجسمانية والإفعالات بحرمانية، وكان فرعون موسى يعبد أصناماً له وهو إليه معبود في قومه، ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ﴾ ١.

وما جاء في هذا البحث هو بعض عوامل شرك، ولا بأس من الإشارة أخيراً إلى نقطة تشير المعجب ذكرها المؤرخ العربي الشهير (وبل ديورانت) في كتابه التاريخي (قصته الحصار) وأئده الكثير من الذين سافروا إلى خارج البلاد في هذا العصر بملاحظاتهم في تلك البلدان وهو وجود أصنام كثيرة صنعت على صورة الأجهزة التباسلية للذكر والأنثى حيث تعبد من قبل مجموعة كبيرة!

ويكتب كعل (القمر) هو أول شيء كانت له أولوية لعبادة، فقد كان الإله المحبوب لدى النساء وعبدته حامياً لهم، واعتقدن بأن لقمر حكومة على الأنواء الجوية وينزل هذا الجرم السماوي المطر والتلوج، حتى أن الضفادع - كما هي لأساطير - تنصرع إليه كي ينزل المطر. وبعد التفصيل في هذا المحال وفي عبادة شمس والأرض والجبال والبحار يضيف، بما أن الإنسان الأول لم يدرك أن حقيقة اعتماد طرفة الإنسان من (اليمين) و(اليوينة)، فلذلك كانوا يعتقدون بأن المبدأ الوحيد في وجود بشر هو هذا الموجود العجيب أي (الآلة النسائية) لدى الرجل والمرأة) اعتقدوا وجود روح عجيبة فيهما هي المبدأ لهذا الأثر العجيب، وهذه الأمور كان سبباً في الاعتماد، شديدي بالوهيتهما وتحويلهم إلى عبدة لثمانيل الآلة التناسلية!!

والأعجب أنه يكتب، قلما نجد قوماً لا يهابون هذا الصم بشكل ما<sup>١</sup> وكما أشرنا فإن عبادة الأصنام لا تزال منتشرة في الهند واليابان في الوقت الحاضر. ومن هنا يتضح جيداً أن الإنسان إذا انصرف عن تعليمات الأساء، سيعف في مسلمات متعصبة وسير تكب أعمالاً مضحكة وصحيفة. أما الموحّدون ذوو الدين الحق والقلب سليم فعندهم أن يشكروا الله كثيراً على تحرّره من بفصل تعليمات الأنبياء من لئولت بالشرك والسقوط في هذه الأودية الموحشة.

❦❦❦





# أقسام التوحيد



١ و ٢ - توحيد الذات والصفات

٣ - توحيد العبادة

٤ - توحيد الأفعال



مکتبہ اسلامیہ

### التقسيمات الأساسية:

قرأنا في البحوث السابقة أنَّ لأساس هي دعوة جميع الأنبياء والكتب السماوية كما يشهد بذلك القرآن الكريم - هو التوحيد - وقد شرعنا الأدلة عليه من القرآن والمنطق العقلي، وقد آن الأوان هنا لمراجعة لأبعاد سمحله والفروع المتنوعة والعصية للتوحيد، ومن هنا تتجلى أهمية هذه المسألة

ومن المعروف لدى علماء العقائد أنَّ لتوحيد ذواقسام أساسية أربعة.

١ - توحيد الذات (ذات الله واحدة ولا مثيل لها)

٢ - توحيد الصفات (صفات الله عز وجل ترجع كلها إلى حقيقة واحدة هي ذاته).

٣ - توحيد العبادة (يلبى العباد بذااته المقدسة فقط).

٤ - توحيد الأفعال (هو المبدى، بكل حى ونظام الكون وكل حركة وفعل في هذا العالم

ولا مؤثر في الوجود إلا الله سبحانه ولا يس من هذا مع اختيار الإنسان أبدأ وتوحيد الأفعال له فروع أخرى أهمها:

١ - توحيد الخلقية (الخلق منه فقط)

٢ - توحيد الربوبية (تدبير الكون إليه فقط).

٣ - توحيد المالكية والحاكمية التكوينية.

٤ - توحيد الحاكمية التشريعية والتنفيذية.

٥ - توحيد الطاعة (تجب طاعة أوامره فقط أو أوامر الذين أمر بطاعتهم) ولا شك في أنَّ

أفعال الله لا تنحصر في ما ذكره ولذا فإن فروع توحيد الأفعال لا تنحصر فيما ذكر ولكن هذه

الفروع الخمسة هي الفروع الرئيسية.

وضروري أن تذكر بأن التوحيد يمكن تقسيمه من جهة إلى قسمين. التوحيد (الخاص) والتوحيد (العام).

**التوحيد الخاص:** هو فروع التوحيد التي أشير إليها بصورة إحصائية.  
**أما التوحيد العام فهو عبارة عن:**

- ١- التوحيد في النبوة (جميع الأنبياء تابعوا هدفاً واحداً وكان لهم مخرج أساسي واحد، ولذا لا نفرق بينهم من حيث الدعوة والمهمة). ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَخَدٍ بَيْنَ رُسُلِهِ﴾
  - ٢- التوحيد في المعاد (يحشر جميع البشر في يوم واحد ويحصرون محكمة واحدة)
  - ٣- التوحيد في الإمامة (مبدأ الأئمة واحد ويسعون وراء حقيقة واحدة وهم نور واحد).
  - ٤- التوحيد في الظلم والعدل (الدور الإلهي واحد بالسنة لجميع البشر)
  - ٥- التوحيد في المجتمع البشري (جميع عباد الله ومن أب واحد وأم واحدة لا يختلفون باختلاف اللون والعصر واللسان وأمثانها ويشكلون مجسماً واحداً)
- وبهذه المقدمة تراجع الأبواب الفرعية ونبحث حول كل فرع من هذه الفروع بصورة مستقلة

## ١ و ٢- توحيد الذات والصفات

### تجهيد:

المراد من توحيد الذات - حيثما كان الحديث عنه - هو أن ذات الله المقدسة لا شبيه ولا نظير لها، وهي واحدة لا مثيل لها من أي جهة.

وبما أن الأبحاث السابقة كانت تدور - عادةً - حول محور توحيد الذات وقد أُقيمت أدلة محلقة لإثبات التوحيد والآيات القرآنية التي تم تفسيرها كانت تقصد التوحيد بهذا المصنوع، لذا سنصرف عن تكرار البحث بصيغتها وتتبع التفسير الدقيق لمعنى توحيد الذات، فسأمل خاشعين أولاً في الآيات الآتية:

١- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى / ١١)

٢- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة / ٧٣)

٣- ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ • اللَّهُ الصَّمَدُ • لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ • وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

(التوحيد / ١ - ٤)

### جمع الآيات وتفسيرها

يا من تعالى عن الخيال والقياس والقرن ولوهم:

تفسر الآية الأولى توحيد الذات في جملة واحدة تفسيراً بليعاً ورصيناً غني المعنى

حيث تقول «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ».

ومثل هذا الشيء - بالتأكيد - يكون أعنى من الخيال والقياس والطنن والوهم، وليس بمقدورياً تصوّر ذاته، لأنّ الأشياء الممكن تصوّرها هي التي لاحظناها أمثالها أو تحصّلت بعد التركيب والحرثة، أمّا الشيء الذي ليس له أي شيل فلا يتأوله الوهم والعقل أبداً. ومعرفتنا تكون بمقدار أنّه موجود ويرى أفعاله وآثاره في عالم الوجود الواسع، ومن هذه الأوصاف ندرك صفاته إجمالياً، ولكن ليس بمقدور حتّى الأنبياء المرسلين والملائكة المقربين أن يدركوا حقيقة ذاته.

والإقرار بهذه الحقيقة هو آخر مرحلة في سلّم معرفة الإنسان لله عزّ وجلّ والحديث المعروف: «ما عرفناك حتّى معرفتك»<sup>١</sup> المروي عن النبي ﷺ بيان لذروة العرفان البشري بالله عزّ وجلّ.

والدليل على ذلك واضح لأنّه كما ذكر في بحث أدلّة التوحيد هو وجود لا مساو ولا نهاية له من كلّ جهة، وكلّ ما سواء محدود ومتناه من كلّ جهة، ولذا لا يمكن قياسه إلى غيره، وبما أنّ وجودنا وعقولنا وأفكارنا محدودة فإنّنا لا نصل إلى كنه تلك الحقيقة اللامحدودة أبداً استناداً إلى هذا التفسير فإنّ (الكاف) في (ليس كمثله شيء) تكون رائده وللأكد<sup>٢</sup>، أي لا يوجد شيء شبيه له أبداً، نعم يمكن أن يفحص سبحانه من وجوده وعلمه وقدرته في عالم الممكنات ولكن مخلوقاته الصعكة ليست مثله أبداً

ولكن بعض المفسّرين لم يعتبر (الكاف) رندة وقاوا مفهوم الآية هو (لا يوجد مثيل لله) أي أنّ (مثل) هنا تعني (الدات) كما نقول: مثلك لا يسلك هذا الطريق المعوج، أي لا ينبغي لك أن تفعل هذا

وقال البعض أيضاً إنّ (مثل) هنا بمعنى الصفات، أي لا يوجد موحود يتّصف بأوصاف

الله

١ بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٤

٢. جاء في تفسير روح المعاني، إنّ بعض المفسّرين اعتبر (مثل) رائدة ولكن أشكل عليه أبو حيان وقال: الإسم لا يكون رائداً في اللغة العربية أبداً

وواضح أن نتيجة هذه التماسير لثلاثة في بحثنا تكون واحدة وإن كانت تبحث الموضوع من طرق متباينة

والجدير ذكره هو أننا نقرأ في حديث أن رجلاً جاء إلى الرسول ﷺ وسأل: ما رأس العلم؟ فأجاب ﷺ «معرفة الله حق معرفته وأصناف أن تعرفه بلا مثال ولا شبه وتعرفه إلهاً واحداً خالقاً قادراً أولاً وأخيراً وظاهراً وباطناً، لا كفوره ولا مثل له فذلك معرفة الله حق معرفته» ومن الواضح أن (حق معرفته) هذه سببة وإلا - كما قلنا - لا يعرفه على ما هو عليه أحد



في الآية الثانية يعتبر القرآن الكريم القائلين بأن الله ثالث أقنوم من الأقسام لثلاثة<sup>٢</sup> كفاراً ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ﴾<sup>٣</sup> ويسمى الإلتهات إلى أن الآية سم نقل ابن الذين يعتمدون بالآلهة الثلاثة كفار، بل قال: (إن الذين يعتبرون الله أقنوماً ثالثاً أو ذاتاً ثالثة كفاراً) وقد سلك المعشرون في فهم مصمون الآية مسالك مختلفة.

فقال بعضهم إن المراد هم الذين يعتمدون على الله جوهر واحد في الدوات الثلاثة (الأب) والابن) و(روح القدس)، ويقولون إنه واحد في عين تعدده، كما أن لفظ الشمس يشعل قرص الشمس ونورها وحرارتها والثلاثة واحدة<sup>٤</sup>. وبعبارة أخرى: المراد هو عقيدة (توحيد في التثليث) القائلة بأن الله في عين كونه ثلاثة يكون واحداً (وهذا كلام غير معقول طبعاً لأن لعدد «ثلاثة» لا يساوي «واحداً» أبداً، إلا أن يكون أحدهما محازياً والآخر حقيقياً).

١ بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٤.

٢ «الأقنوم» بمعنى الأصل والذات وجسمه قديم، وهو غير يظن أنه نصارى على الآلهة الثلاثة في مسألة التثليث.

٣ تفسير الكبير، ج ١٢، ص ٦.

وقد جاء في تفسير القرطبي: إن الآية تشير إلى فرق النصارى من الملكية (أو الملكانية) والسطورية واليعقوبية لأنهم يقولون أب و بن وروح القدس إله واحد<sup>١</sup>. ولكن الطاهر أنه خطأ لأنهم بسوا هذه عقيدة إلى جميع النصارى في القول بالتثليث والتوحيد معاً.

والعلامة الطباطبائي رحمه الله يقول: إن ثالث ثلاثة يعني أن كل واحد من هذه الثلاثة: (الأب والابن وروح القدس، هو إله يطبق على كل واحد منها وهي ثلاث ذوات وهي الوقت نفسه ذات واحدة)<sup>٢</sup>.

ولكن الآية تتحدث في الطاهر عن غير هذا كله، فالكلام يدور حول الاعتقاد بأن الله ذات ثلاثة كفر، أي ليس الاعتقاد بالالهة الثلاثة موجباً للكفر بل جعل الله تعالى في عرص الموجودات الأخرى واعتباره الثالث من لدن الثلاث، وبعبارة أخرى اعتبار (الوحدة العددية) له موجب للكفر (كما مثل جنتي).

وقد ورد بيان هذا المعنى بشكل لطيف في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قرأ بأن أعرابياً جاء إلى أمير المؤمنين في يوم حرب الخصال فقال: يا أمير المؤمنين أتقول إن الله واحد؟

فحمل الناس عليه وقالوا يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسيم القلب؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: دعوه فإن الذي يريد الأعرابي هو الذي نريده من القوم، ثم قال: «يا أعرابي إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام، فوجهان منها لا يجوز أن على الله حَزْوَجَلْ، ووجهان يشتركان فيه، فأما اللذان لا يجوز أن على فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز، لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد أما ترى أنه كفر من قال إنه ثالث ثلاثة؟ وقول القائل: هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا

١ تفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢٢٤٦ وقد جاء هذا المعنى أيضاً في تفسير أخرى مثل روح البيان والصارفي دليل آية البحث.

٢، تفسير الميرزا، ج ٦، ص ٧٣



يجوز لأنّه تشبيهه وجلّ ربنا وتعالى عن ذلك وأتم الوجهان اللذان يثبتان فيه ققول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه كذلك ربنا، وقول القائل: إنه عز وجلّ أحدي المعنى يعني به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم كذلك ربنا عز وجلّ<sup>١</sup>

القسم الثالث والأخير عبارته عن سورة توحيد التي ترسم وحدانية الله بأروع الصور وتتضمن كلاماً جامعاً يفي تثليث الصاري و شوية (عبادة الإثنين) لدى المحوس وشرك المشركين، فتقول أولاً: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، وهو تعبير يدل على أن أسئلة محتمة قد طرحت على نبي الإسلام ﷺ حول معبود لدى يدعوهم إليه، فأمر أن يشرح بهم جمعاً حقيقة التوحيد بهذه الجمل القصيرة المركزة المعنى.

«أحد» وأصلها (وَاحِدٌ) من (وحدة) إستدت الواو فيها بالهمزة ولذا يعتبر الكثير أن (أحد) و (واحد) بمعنى واحد، وقد أثير إبي هذا المصنوع في بعض الروايات وكلاهما إشارة إلى اندات التي لا مثيل لها<sup>٢</sup>

وقد مرّق الحنن بن (أحد) و (واحد)، فقالوا: بارة: إن (أحد) من الصفات المحتصة بالله لأنه لا يطلق على الإنسان وغيره، أم (واحد) فإنه ليس كذلك وقالوا بارة أخرى: إن (واحد) يستعمل في الإثبات والنفي ولكن (أحد) يستعمل في النفي فقط

وقالوا بارة ثالثة: إن (أحد) إشارة إلى وحدة لدات و (واحد) إشارة إلى وحدة الصفات، وقالوا رابعة: إن (أحد) يطلق على الدات التي لا تقبل الكثرة لا في الخارج ولا في لذهن، ولذا لا يمكن عده عكس لو حد الذي يتصور له الثاني والثالث وقالوا خامسة: إن (أحد) إشارته إلى ساطه دات الله عز وجلّ ونفي أي جزء عنه، في حين أن (واحد) فيه إشارة إلى وحدانية دته قبالة أن يكون له منيل، غير أن تلك التفسير الخمسة لا تمتلك دليلاً واضحاً، فمثلاً يقال يوم الأحد، ويطلق لواحد على الله في القرآن ﴿إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ (البقرة / ١٦٣)

١ بحار الأنوار، ج ٣، ص ٦٠٢، ح ١

٢ المصدر السابق، ص ٢٢٢

وكما أن «أحد» استعمل في جملة ثبوتية كما هي سورة البحت وآيات قرآنية أخرى<sup>١</sup>.

فالصحيح هو أن قول بأن الإنس يشير إلى معنى واحد

على كل حال، يعتقد بعض المفسرين أن جملة (الله أحد) هي أكمل وصف لمعرفة الله

يمكن أن يستقر في عقل الإنسان، لأن كلمة (الله) تشير إلى الذات التي لها صفات الكمال

كلها وفي (أحد) إشارة إلى هي الصفات السببية كلها<sup>٢</sup>.

والقرآن الكريم في إكمال هذه الآيات يقول: ﴿الله الصمد﴾ فهو إله قائم بالذات وعسي

ويقصده كل المحتاجين ويتوحدون إليه.

وكلمة «صمد» كما في (مقاييس اللغة) لها أصلان أحدهما يعني القصد، والثاني الصلابة

والإستحكام، وعندما تستعمل بصدق الله تعالى فإن معناها هو الفني المطلق الذي يتوجه إليه

كل المحتاجين، وتسمى أيضاً الذات الواجبة الوجود والفائضة بذاتها

ومن الممكن أن يرجع الأصل إلى أصل واحد، لأن الذات المستحكمة والصلابة

والفائضة بذاتها تكون عبثاً - طبعاً - وموضوعاً لتوحيده لجميع المحاضرين، وعليه فإن (صمد)

يمكن أن تكون إشارة إحصالية إلى جميع الصفات الثبوتية والسلبية لله تعالى، ولعلله لهذا

الدليل ذكرت معاني كثيرة لـ (صمد) في الروايات الإسلامية حيث يشير كل واحد منها إلى

إحدى صفات الله<sup>٣</sup>.

على أية حال، لا تحفى العلاقة بين هذه الآية والآية السابقة لها التي تتحدث عن

وحدانية الله، لأن واجب الوجود والعسي وحاجة جميع الموحودات إليه تستلزم أن يكون

واحدًا وأحدًا.

وفي الآية اللاحقة تأكيد آخر على حقيقة توحيد حيث ترد عقيدة الصاري في الآلهة

الثلاثة (الأب، والإبن، والواسطة بينهما)، وتبطل عقيدة اليهود بأن عرير ابن الله، كما تبطل

١ الآيات: التوبة، ٦؛ النساء، ٤٣؛ مريم، ٢٦؛ البقرة، ١٨٠؛ الكهف، ١٩؛ وآيات كثيرة أخرى.

٢ تفسير الكبير ج ٣٢، ص ١٨٠.

٣ راجع للتفسير الأمثل، دليل الآية ٢ من سورة الاحلاص.

عقيدته المشركين العرب في أن الملائكة بنات لله، أحل، إنها ومن أحل نفي هذه الأمور كلها وأمثالها تقول: «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ»

ومن المسلم به أن يكون للوجود اندي له ولد أو ولد شبيه ومثيل، لعدم إمكانية إنكار الشبه بين الأب والابن، وعليه لا يمكن أن يكون واحداً ولا مثيل له.

ولذا يقول بعد هذه الآية «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»

وعليه فإن الآيات الثلاثة من هذه السورة تؤكد على أحذية الله المفدسة ووحدايته وعدم الشبيه والمثيل له، وبعبارة أخرى تكون كل آية في هذه السورة تفسيراً للآية السابقة لها، وبمجموعها أوضحت مسألة التوحيد بشكك جامع وتام وتحدثت شجرة التوحيد الطيبة بكل أغصانها وأوراقها



### توضيحات

#### ١ - المفهوم الدقيق لتوحيد الذات

يذهب الكثير إلى أن معنى توحيد الذات هو أن الله واحد وليس إثنين، وهذه العبارة غير صحيحة وغير مطابقة لما ورد في الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير هذه الآيات، لأن مفهومها الواحد العددي (أي أن يتصور إنثاني لله عز وجل ولكن لا وجود خارجي له) ومن المسلم أن هذا كلام غير صحيح، ولصحيح هو أن يقال: إن توحيد الذات هو أن الله واحد ولا يتصور له الثاني، وبعبارة أخرى إن لله لا شبيه له ولا نظير ولا مثيل، فلا يشبهه شيء ولا هو يشبه شيئاً لأن هذا الوجود اللامتناهي الكامل هو الذي يتصف بهذه الصفة.

ولذا نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام حينما سأل أحد أصحابه أي شيء أكبر من الله؟ فأجاب: «الله أكبر من كل شيء»، ثم قال الإمام عليه السلام: «فكان ثم شيء فيكون أكبر منه؟»، فقال: «ما المراد من هذه الكنهه؟» فأجاب عليه السلام: «الله أكبر من أن يوصف».

## ٢- مفهوم توحيد الصفات

حينما نقول: إنَّ توحيد الصفات هو فرع من فروع التوحيد فإنَّ مفهومه هو: كما أنَّ ذات الله عزَّ وجلَّ أرلِية وأبدية فإنَّ صفاته كالعلم والقدرة وأمانيها أرلِية وأبدية أيضاً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هذه الصفات ليست رائدة على ذاته فلا يوجد فيها عارض ومعرض بل هي عين ذاته.

ومن جهة ثالثة لا تفصل الصفات عن بعضها، أي أنَّ علمه وقدرته شيء واحد والإِثْنان عين ذاته!

بيان عندما تراجع أنفسنا نرى أنَّما كنَّا بعدد الكثير من الصفات، فلم نملك حين الولادة علماً ولا قدرة، ولكن هذه الصفات تمت فب مدريجياً، ولذا نقول إنَّ هذه أمور رائدة على ذواتنا، ولذا يمكن أن يمرَّ بها اليوم الذي بعد فيه القوة العصبية والعلوم والأفكار التي يملكها ويرى بوضوح أيضاً إنَّ علماً وقدرتاً معصلتان، فالقدرة الحسية في عضلاتنا ولكن العلم موجود في الروح!

ولا يتصوَّر في الله أي معنى من هذه المعاني، فداته كلُّها علم وقدره وكلُّ شيء في داته واحد، وسلم طعاً بأنَّ تصوَّر هذه المعاني - بالسية ما طرأ لفقداننا لهذه الصفة - معقد وغير مألوف ولا سبيل إليه إلاَّ قوة المنطق ولا استدلال الدقيق والمطعم.



## ٣- الدلائل على توحيد الصفات

إنَّ الحوص في صفات المخلوقات وعدم قدرة على استيعاب مفهوم توحيد الصفات هو السبب في انحراف بعض المتكلمين وعلماء العقيدة عن المسير الصحيح في موضوع صفات الله، أمثال طائفة (الكرامية) وهم أتباع محمد بن كرام السيستاني الذين اعتقدوا بأنَّ صفات الله حادثة، وكذلك كانوا يعتقدون أنَّه لم يكن مالكا لهذه الصفات ابتداءً ثمَّ امتلكها!

وهذا الكلام في غاية القبح ولا يمكن لأحد أن يصدِّقه، من يصدِّق بأنَّ الله كان عاجزاً في البداية ثمَّ اقتدر؟ من الذي أعطاه لقدرة؟ ومن الذي وهبه العلم؟!

ولذا يحتمل أن يكون مرادهم هو صفات تفعل كالحالقية والرازقية، لأن الله قبل أن يخلق موجوداً ويررقه لا معنى للحالقية أو الرافية بالسبب إليه (طبعاً كان قادراً على الخلق والرزق ولكن القدرة على شيء غير إيجاد، بل أن تبحث في توحيد الصفات لا يرتبط بصفات الفعل والكلام هو في صفات الذات كعلم والقدرة، وكما سيأتي مفصلاً بأن صفات الفعل مستقلة عن صفات ذات الله، فصفات تفعل شيء ينتزعه العقل بعد مشاهدة أفعال الله وينسبها إلى الله (ستقرأ تفصيل ذلك لاحقاً).

وأوضح إشارة في باب إثبات وحدة الصفات في آيات الفرقانية هي الآية القائلة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ...﴾ نفي تقدم تفسيرها وتدل على أن ذاته المقدسة لا تتصف بآية إثنية

ويمكن في الاستدلالات العقلية الاستدلال إلى بعض النقاط:

١- ثبت في الأبحاث السابقة أن الله غير متمايز من جميع الجهات ولذا لا توجد خارج ذاته أية صفة كمال، فكل ما يوجد مجموع في ذاته، وعندما ترى أن صفاتاً حادثة أو أنها غير ذاتها فإن السبب هو أنها موجودات محدودة، وهذه المحدودية تكون الأوصاف والكمالات خارج دواتها وهي مما يكتسبها أحياناً، أما ذات الله وهو الكمال المطلق فأي صفة يمكن تصوّر ها خارج ذاته المقدسة؟

٢- لو قلنا بأن صفاته مضافه إلى ذاته أو يعتقد بأن صفاته كالعلم والقدرة منفصلة عنه فإن النتيجة هي التركيب (تركيب من الحوهر والعرض بل عرض متعدّد) في حين ثبت مسبقاً أنه لا سبيل لأي تركيب في ذاته خارجياً أو عقدياً.

وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا لمصموم في الخطبة الأولى من نهج البلاغة بعبارة جميلة جداً في باب توحيد الصفات:

«وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد شابه، ومن شابه فقد جزّاه، ومن جزّاه فقد جهله».



مکتبہ اسلامیہ

### ٣- التوحيد في العبادة

#### تمهيد:

إنَّ التوحيد في العبادة هو من أكثر فروع توحيد حساسية ويعني أن لا نعبد غيره ولا نركع لغيره ولا نسجد إلا له

ويمكن القول: إنَّ عنوان دعوة الأنبياء ﷺ والقاعدة الأولى لشرائعهم هو قضية التوحيد في العبادة، وغالباً ما كانت موجهة لهم مع المشركين نشأ من هذه النقطة

صحيح أنَّ (التوحيد في العبادة) يلزم (توحيد الداب والصفات) حيث نقرر أنَّ واجب الوجود كل ما سواء ممكن ومحتاج إليه فلا مَبِيلَ إلا أن تكون العبادة محتصة به.

إنَّه هو الكمال المطلق، ولا يوجد كمال مطلق سواه، والعبادة تعتبر طريقاً للوصول إليه، فلا بد أن تكون محتصة به

والملاحظ أنَّ الآيات القرآنية مليئة بالدعوة إلى التوحيد في العبادة ونحن نذكر هنا أقسامها الحساسة بعبء الوصول إلى هذا المدِّ القرآني المهمَّ وبهممَّ بالبقية صمَّ إشارات بليغة.

بهذا التمهيد نمنح حاشعين في الآيات قرآنية الآتيه.

١- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ لَنُبَيِّرُوا فِي الْأَرْضِ نَافِثًا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾  
(التحل / ٣٦)

٢- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾  
(الأنبياء / ٢٥)

٣- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾  
(الأعراف / ٥٩)

٤- ﴿... وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾  
(التوبة / ٣١)

٥- ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَ كُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾  
(الأنعام / ٥٦)

٦- ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي بَنَىٰ بَيْتَكُمْ الْبَيْتَ الْحَرَامَ الَّذِي فِيهِ كُنْتُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَّ الْبَيْتَ لَمِنْ شَرِّ مَا بَنَىٰ فَلِئَلَّا يَذَّكَّرَ الَّذِينَ لَا الْحِذْنَ عَلَيْهِمْ وَلِئَلَّا يُذَكَّرَ الَّذِينَ لَا الْحِذْنَ عَلَيْهِمْ﴾  
(الحجر / ٩٩)

٧- ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ دِينَهُمْ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾  
(بينة / ٥)

٨- ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾  
(مريم / ٣٦)

٩- ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾  
(عنكبوت / ٥٦)

١٠- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَكَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾  
(نور / ٥٥)

١١- ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُتَّخَذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾  
(آل عمران / ٨٠)

١٢- ﴿وَقُلْ يَسْجُدْ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْقُدُورِ وَالْأَصَالِ﴾  
(رعد / ١٥)

### شرح للمفردات:

#### المفهوم الدقيق للعبادة:

«العبادة»: (والعبودية) كلمتان تعبران إررار 'تخصوع، وعلى ما يذهب إليه الراغب في المفردات، فإن للعبادة مفهوماً أعمق وتعني عديده الخصوع بين يدي من له غاية الإنعام والإكرام وهو الله عز وجل



ويبدو أن الأصل في هذا اللفظ مشتق من (عبد) بلا أن (عبد) كما في (لسان العرب) و(كتاب العين) يطلق على كل إنسان عبداً كان ثم حراً (لأن لبشر كلهم عبيد الله) ويطلق تارة على العبيد خاصة.

ويصيغ الراغب: العبد أربعة أضرب:

١- عبدٌ بحكم الشرع وهو الإنسان الذي يصح بيعه وشراؤه.

٢- عبدٌ بمعنى مخلوق

٣- عبدٌ بالعبادة والخدمة، والناس في هذا صريخ عبيد الله وعبيد الدنيا (وعبيد الرحمن) و(عبيد الدنيا).

وفي مجمع البحرين إن هذه الكلمة بسفل تارة بمعنى (الحزب والفتنة) والآية.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾.

(الفجر / ٢٩)

ففيها إشارة إلى ذلك.

وهذه النقطة حديرة بالاهتمام وهي أنهم قسموا العبادة إلى نوعين

لعباده الإختيارية التي أمرت بها آيات "فريضة"، والعبادة غير الإختيارية، كما يقول

انصار الكريم ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الاسراء / ٤٤)

ويقول الطريحي في (مجمع البحرين) إن بحكماء قسموا العبادة إلى ثلاثة أقسام وهي:

الأول: ما يجب على الأبدان كالصلاة والصيام والسي في المواقف الشريفة لمساجاته

جل ذكره (عبادة جسمانية)

الثاني: ما يجب على النفوس كالإعتقادات الصحيحة من العلم بتوحيد الله وما يستحقه

من الثناء والتعجيد والتفكير فيما أفاضه الله سبحانه على العالم من وجوده وحكمته ثم

الإتساع في هذه المعارف (عبادة روحانية).

الثالث: ما يجب عند مشاركات لناس في أمدن وهي في المعاملات والمزارعات

والمناكح وأذية الأمانات وبصح بعض بعض بصروب المعاونات وجهاد الأعداء وحماية

الحوزة<sup>١</sup> (عبادة اجتماعية).

«طاعوت»: صيغة مبالغة من ((طعيان)) و طعيان كما نعلم هو: تجاوز كل حد، ولذا تطلق كلمة طاعوت على كل موجود مستمرّد ومعتدّ كالشيطان، والسحرة، والجبارين، والعكّام الظالمين، والتيارات التي ستهي بهم لحق وتأتي هذه الكلمة بمعنى المفرد والجمع وذكر (الطبرسي) في (معجم البير) في تفسير آية الكرسي حمسة معاني للطاعوت هي: الشيطان، انكاهن، اساحر، الإيس و نحن لمرّدون والأصنام (ومن الواضح أنّ هذه الأقوال ترجع كلّها إلى معنى جامع واحد أشير إليه)

### جمع الآيات وتفسيرها

هو المعبود وحده:

إنّ آية البحث الأولى تعتبر الدعوة إلى التوحيد هي المصحح الأساسي لرسول الله أجمعين حيث يقول: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ وهذه الكلمات تُطرح في مواجعة الدين نقل عنهم (هذه الآية) تبريرهم في عبادة الأصنام: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ﴾ (الحل/ ٣٥) والقرآن يقول في ردّهم: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ فقد دعا الأنبياء ﷺ جميعاً إلى توحيد في العبادة وعارضوا عبادة أي موجود غير الله، فما هذه المزيه التي تنسبونها إلى الله ؟

وتضيف: إنّ الناس انقسموا إلى طائفتين تحب دعوة لأتبياء ﷺ، طائفة استعدت للهداية وكانت تطلبها فهداها الله، ﴿ فَبَيْنَهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ۖ وَطَائِفَةٌ خَالَفَتْ وَهُمْ مِمَّنْ خَفَّتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ ۖ ثُمَّ تَأْمُرُ الْآيَةُ ۖ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۖ ۝ أَجَلْ ۖ إِنَّهُمْ وَيَسَّبُ انْحِرَافُهُمْ عَنْ حَادَةِ التَّوْحِيدِ وَيَسَبُّ الطَّاعَةَ وَفَعُوا فِي حُلِّ انْفُسَادِ الشَّقَاءِ ۖ فَخَزَلْ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ الْإِلَهِي ۖ

١ قال البعض إنّ الأصل هو «طمعوت» ثم جاء لام الجمع بدلاً عن عين العين وانقلبت الواو المنعوجة قبلها إلى الف وصارت (طاعوت)

والملاحظ أن الآية تنسب الهدى به إلى الله عز وجل، فدلوا التوفيق والإمداد الإلهي لما كان لأحد أن يبلغ الهدف بقدرته، في حين تنسب الصلاة لهم لأنها نتيجة أعمالهم

❦❦❦

الآية الثانية توافق الآية الأولى بعبارة أخرى وتقول كقضية عامة ومخالدة. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

والمعلت أن (نوحى) فعل مضارع ويدل على الاستمرار. أي أننا أوحينا التوحيد في العبادة إلى كل نبي وقد أمر جميع الأنبياء بإبلاغ ذلك طيلة دعوتهم.

وعليه فإن هذه المسألة استمرت أصلاً أساساً في تاريخ الأنبياء ﷺ

❦❦❦

الآية الثالثة تنقل كلاماً عن أول نبي من أولي المرم وهو شيخ الأنبياء نوح عليه السلام الذي لم تتضمن دعوته مد بدائها بداء سوى تداء التوحيد في العبادة وسد عبادة الأصنام حيث يقول. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

ويستفاد من هذه الجملة بأن الشرك وعبادة الأصنام كان ولا يزال سواً شوكه في طريق سعادته البشرية. والأنبياء الذين يمثلون اربعة لبستان التوحيد كانوا يهتمون قبل كل شيء بزرع وبرعاية زهور الفصيلة في روح البشر وفتلحون الأشواك التي تعترض طريقهم بسلاح التوحيد، وخاصة في عصر نوح عليه السلام. كما يستفاد من الآية ٢٣ من سورة نوح حيث كانت هناك أصنام عديدة ومتنوعة باسم (ود، وسوع، ويعوث، ويعوق، ونسر)

وكانت على هيئة رجل، وامرأة وأسد، وفرس، ونسر على التوالي، وكانوا يعبدونها بجميع وجودهم، ولما رأى نوح منهم العناد والإصرار هذدهم بعذاب الله، كما نقرأ في ذيل الآية. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي بني أخاف عليكم عاقبة الشرك

والظاهر أن المراد من اليوم العظيم هو يوم لظوفان الذي لم يحدث طيره في تاريخ

المقوبات التي نزلت على الأقوام السابقة، كما حتمل ن (يوم عظيم) إشارة إلى يوم القيامة<sup>١</sup>. وقد جاء في تفسير الميراث بأن هذه الآية قد جمعت أصليين من أصول الدين في جملة قصيرة هما (التوحيد والمعاد) كما جاء الأصل الثالث وهو (السوة) في آية، «يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ»<sup>٢</sup>.



الآية الرابعة تتحدث عن اليهود والنصارى الذين انحرفوا عن حادة التوحيد، فقد اعتبر اليهود أخبارهم (علماء الدين اليهود) واعتبر نصارى رهبانهم والسيد المسيح معبودات لهم

ثم تقول «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا» ويؤكد  
«لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» وللتأكيد نضيف «سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»

وبهذا فإن الدين الذي أقام النبي ﷺ قواعده وأصل طريقته في دعوة موسى ﷺ والسيد المسيح ﷺ بكل قوة وثبات.

صحيح أن النصارى كانوا يعبدون السيد المسيح وما زالوا ولكن اليهود لم يعبدوا الأخبار، والنصارى لم يعبدوا الرهبان، بل لا يصح عنهم المطلقة لهم واستسلامهم لتحريرهم وتمييزهم الأحكام الإلهية أطلق على ذلك عبور الشرك، ولذا جاء في الأحاديث «أما والله ما صاموا لهم ولا صلوا ولكنهم أحلوا لهم حراماً وحرموا عليهم حلالاً فأتبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون»<sup>٣</sup> وسيأتي تفصيل هذا الموضوع في بحث (توحيد الطاعة) بإذن الله

١ هذان التفسيران قد صرح بهما في كلمات التفسيرين سابقين وسنهما أشار إليهما القدر الراوي في التفسير الكبير، ج ١٤، ص ١٤٩ في ديل آيات البحث.

٢ تفسير الميراث، ج ١، ص ١٨٠.

٣ تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٠٩.

## لا نعبد غير الله:

في الآية الخامسة يصل الدور إلى النبي لأكرم نبي حيث يأمره الله عز وجل ﴿قُلْ إِنِّي نُبَيِّتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

والاستفادة من لفظ (الدين) الذي يستعمل لجمع المذكر العاقل في معبوداتهم هو إما لتصوّرهم في عالم وهمهم وحيالهم أن الأقسام ذات روح وعقل وشعور، وإما لوجود أشخاص كال المسيح أو الملائكة والجن من هذه المعبودات

ولبيان الدليل على هذا المعنى وأنهى الإلهي تصيف الآية: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

ويعني هذا أن جدور انشرك كلها يرجع إلى عبادة لهوى والطمع والوهم. ومن المسلم به أن إساءة الهوى يستتبع الضلال ولا ينتهي بإسماعه وإهدائه أندأ



الآية السادسة توجه الخطاب إلى النبي ﷺ وتأمره بأن يشت ويواصل عبادة الله الواحد واحتساب كل شرك وعبادة للأصنام حيث يقول: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾

وقد فسّر المفسّرون (اليقين) هنا بمعنى موت، واعتبروه بغير قول السيّد المسيح ﷺ ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم / ٣١)

ونقرأ في موضع آخر من القرآن على لسان أهل النار: ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ. (المدثر / ٤٦-٤٧)

كما جاء التعبير عن (الموت) بـ (اليقين) في روايات الإسلامية، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام تقرأ قوله عن الموت «لم يخلق الله يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت»<sup>١</sup>، (لأن الناس لا يكثر ثور به وكأنيهم لا يصدقون أنهم سيموتون)!

والتعبير عن (الموت) بـ (اليقين)، ما لما أشير إليه في الحديث المذكور أي هو مسألة بقطع

بها جميع الناس ولا اختلاف بين المذاهب والعقائد لعتابنة في هذه المسألة، وإما أن الإنسان يتيقن بالكثير من القضايا التي يتردد فيها وذلك عند زوال الحجب عنه عند الموت وظهور الحقائق (من الممكن طبعاً الجمع بين هذين معنيين) والتعبير *(يأتيك)* أيضاً إشارة بحسبة إلى هذا الموضوع وهو أن الموت سيقع على الإنسان شاء أم أبى!



في الآية السابعة يلاحظ هذا المصنوع معه مع إضافات أخرى، وفيها إشارة إلى طائفة من أهل الكتاب الذين أنحروا عن التوحيد وجعلوا لله أنداداً في العبودية حيث يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حَقَّهٗ﴾<sup>١</sup> والملاحظ أن الآية محصر الأوامر الإلهية كلها في لعباده المحلصة ثم في إمامة الصلاة وأدائها ﴿وَيُحْمِلُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾، وهذا يدل على أن الأصل في العالم الديني يرجع إلى الإخلاص في العبودية، والملاحظ أيضاً أن الآية تصيف في ذيلها: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾<sup>٢</sup>



الآية الثامنة تنقل بكنة وردت في قول السيد المسيح عليه السلام حيث قال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ونعلم أن الخط المستقيم الذي يصل بين نقطتين واحد لا أكثر، في حين يوجد آلاف

١ يقول الراغب في المعجمات: «حرف» على وزن «كف» تعني المين من الضلال إلى الصراط المستقيم وإنما يقال للإسلام (الدين الحنيف) لأنه يسمي المسلمين عن أي إنحراف عن الصراط السوي

٢ «قيمة» مشتقة من القيام بمعنى القائم والثابت والمستقيم وكما يقول الراغب في المعجمات: إن معناه هي الأئمة التي تقوم بالقسط والعدل كما جاء في الآية ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾

الخطوط المحرفة بينهما، فحطَّ التوحيد واحد وكلُّ ما سواه فهو شرك وعبادة أصنام.  
(مستقيم) من (الإستقامة) ومشتقَّه في الأصل من (إقيام)، وبما أنَّ الإنسان يقف مستوياً في قيامه فإنَّ هذه الكلمة استعملت بمعنى كلِّ طريقٍ ومهج معتدل ومستوي وحالٍ من الانحراف.

والملاحظ أنَّ القرآن وفي سورة نحمد قد جعل لفظة المقابلة للنصراط المستقيم هو طريق المعضوب عليهم و(الصائين)، والطائفة الأولى هم الصالحون من أهل العباد واللجاجة والدين يصرون على مسيرتهم ومسيرة غيرهم المحرفة، والطائفة الثانية هم الضالون البسطاء.

### لن عززتم عن عبادة الله فيها جروك

بواجه في الآية التاسعة نقطة جديدة حيث يتوخَّه الأمر إلى المؤمنين، وذلك عندما يكون البقاء في مكان - حتى أوطانهم الخاصة - مانعاً من عبادة الله ومرعاً لتوحيد عباده عليهم أن يهجروا ذلك المكان فنقول الآية: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّاي فَاعْبُدُونِ﴾.

أحل، أنَّ أرض الله واسعة ولا يمكن أبدُ لإدعاء لدلِّ لشرك وأسرانكمر وعبادة الأصنام من أحل أمور من قبيل القوم والقبيلة والبيت ووطن الحبيب، بل إنَّ واجب كلِّ مؤمن موحد هو أن يهجر وطنه في مثل هذه الظروف ويحلَّ في وطن مناسب ويُبقي شعبة التوحيد مصبغة في روحة، وقد يوفق - كما هو حريص في صدر الإسلام - لإعداد القوة اللازمة ويرجع إلى وطنه ويريل آثار الشرك وعبادة الأصنام من ربوعه.

والتعبير بـ (يا عبادي)، و(أرضي)، و(إيَّاي فاعبدون) هي الآية مقرون بالرحمة والالطف الإلهي وإشارة إلى نصره المستمر للموحدين أينما كانوا وفي كلِّ زمانٍ.  
والملاحظ أنَّ المحاطب في الآية هم (لعبد)، ومع ذلك فالآية تأمرهم بعبادة الله الواحد،

١ لاحظوا أنَّ ﴿إِيَّاي فاعبدون﴾ بسبب تقدم المفعول على الفاعل تدلُّ على الحصر ويبيِّن انحصار العبادة في الله

وفي ذلك إشارة إلى أن العباد ينبغي أن يواصلوا مسيرة التوحيد إلى آخر العمر ولا يسرفوا لحظة واحدة، وهذا نظير تكرار الحمد «إِلهِينَ الصَّارِطِ الْمُسْتَخِيمِ»، لدى المؤمنين، حيث يطلبون فيها استمرار هذه النعمة إلى جانب الهداية، على أية حال، فإن الآية دليل على وحوب الهجرة من أرض الشرك وعنده الأصنام إلى دار الإيمان، إلا أن يوفق الإنسان لتغيير الأوضاع السائدة على تلك الأرض

آية البحث هي من آيات سورة لمكبوت سي يقول عنها المفسرون: إن الآيات الإحدى عشرة الأولى منها نزلت في المدينة بصدد الذين كانوا في مكة وأظهروا الإسلام ولكنهم لم يعمروا على الهجرة إلى المدينة، والآية التي بعدها تقول «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» وفيها إشارة إلى هذا المعنى وهو أن الجسم سموتون ويفصلون عن الوطن والزوج والمال، فلا تظنوا أنكم إن قمتم في أحواء ملوثة بالشرك بكم سوف نيقون إلى حسب أحتائكم أهداً<sup>١</sup>



وتستند الآية العاشرة إلى نقطة جديدة أخرى هي هذا المجال، وتعد المؤمنين جميعاً بأنهم سيكونون مالكيين وحكاماً للأرض كلها، كما أن التوحيد سيشر في العالم بأسره وسوف لن يعبد إلا الله، وعلى هذا فإنها تبشر بوحدة العبادة الحاصلة كإشارة كبرى لكل المؤمنين وتقول «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» وهناك بحث بين المفسرين في تحديد ماهية هذه الطائفة التي ورثت الأرض وعاشت في عصور قديمة، والمناسب أن يقال، إنها إشارة إلى بني إسرائيل الذين أصبحوا ملوكاً وحكاماً على مساحة واسعة من الأرض بعد بهمة موسى عليه السلام وإهبار حكومة الفراعنة، وكما يقول لقرآن الكريم في قوله تعالى «وَأَوْزَقْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا» (الأعراف / ١٣٧)

١ راجع تفسير روح البيان، وروح المعاني، والقرطبي في دبر آية البحث.

٢ هناك بحث مفصل آخر في هذا المجال قد ورد في تفسير الأمش، دبل الآية ٥٥ من سورة النور تمتعت عنوان



وتتضمن الآية الحادية عشره إشارة إلى نقطة جديدة هي هذا المجال حيث تؤكد أن الأنبياء العظام والملائكة انمقرسين لا يستحقون العبادة فضلاً عن الأصنام، والعبادة محتصة بالله عز وجل وتقول: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُخَدُّوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَنْبَاءً﴾<sup>١</sup>.

ولمريد من التأكيد تصيف الآية ﴿يَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

«أرباب» جمع (رب) ويعني في الأصل مالك، مصلح، أي المالك الذي يسعى في تدبير ملكه وتربيته وإصلاحه، ولذا فإن (رب الدار) و(رب الإبل) حياء بمعنى المالك والمدير للبيت أو الإبل، وقد ندر استعمال كلمة «رب» في القرآن الكريم في غير الله، منها الآية ٤٢ و ٥٠ من سورة يوسف حيث استعملت كلمة (رب) في معن منك مصر، ويستفاد من عبارات هذه السورة بأن هذه الكلمة كانت كثيرة الاستعمال كسمي للشخصيات المصرية الكبيرة.

وفي المقابل استعملت هذه الكلمة التي وردت مئات المرات في القرآن انكرام - هي كل المواطن تقريباً - كصفة لله عز وجل، لأنه هو المالك الأصلي - هي الواقع - والمدير والمربي لموجودات الكون كله، المهم أن الكثير من الأقوام كانوا يعتقدون بالله صغيره ويطلقون عليها (رب) أو (رب النوع) ويطلقون على الله رب الأرباب) وكانت هذه العقيدة لدى بعض الأقوام تحاه الملائكة أو بعض الأنبياء، وآية البحث تعني بصراحة هذه العوائد الباطلة وتعرف الله وحده يائاً وليس رب الأرباب، لأنها تعبر انتحاب أي رب سواه كفراً والإسلام على طرف بعيد معه.

﴿٥٥﴾

الحكومة العالمية للمستضعفين وكان لها نموذج صغير بعد فتح مكة والانتصارات الواسعة بعد النبي ﷺ

والنموذج الأتم والكامل سينتقى عند قيام الإمام المهدي (عج)

١ لاحظ أن «يأمر» منصوب لأنه معطوف على (أن يؤتبه الله)

آية البحث الثانية عشرة والأخيرة تشير إلى الكلام الأخير في هذا البحث وهو أن التوحيد في العبادة لا يحتص بالبشر بل ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾

«مَنْ»؛ وإن كانت إشارة إلى العقلاء عادةً رداً بمتقد جمع من المفسرين بأن آية البحث تقصد بني الإنسان والملائكة وأمنالهم، إلا أن في الآية قرائن تدل على أن هذه الكلمة تشير إلى الموحودات كلها وتعم العاقل وغير العاقل والنبات والحيوان والمراد من السجدة ما يعم السجدة التكوينية (غاية الحصوع والتسليم في موجودات نجاه قانون الخلق) والسجدة التشريعية (السجود والعبادة الإعتيادية) لأن

أولاً: التعبير بـ (طوعاً وكرهاً) دليل على عمومية الآية

ثانياً: اشتراك (ظلال) في هذه السجدة والعبادة العامة دليل آخر على هذا المعنى

ثالثاً: ورد هذا المعنى بجلاء في آيات قرآنية أخرى ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

الْأَرْضِ﴾.



وهكذا في الآية ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (الرحمن / ٦)

وعلى هذا فإن موحودات الكون كلها وبدون استثناء لها سجود تكويني وتسليم للأوامر الإلهية، ومن بينها المؤمنون حيث لهم - مصداقاً إلى سجود التكويني الذي لا يتصف بالاختيار - سجود اختياري تشريعي أيضاً.

وتعميم هذا الحكم إلى (ظلال) تعبير كبير بمعنى، لأن الظلال تتصف بالعدم في الواقع (لأن الظل هو المكان الذي لا يسقط ضوء عليه) ولكن بما أن الظلال تابعة للأجسام في وجود النور فإن لها قسماً ضعيفاً من الوجود. ويقول بقرآن: إن هذه الأعداد الشبيهة بالوجود تسجد لله أيضاً فكيف بالموحودات الحقيقية؟ وهذا يشابه العبارة التي نقولها وهي أن عداوته لعلان بلغت إلى حد أنه يرمي طلته بالسهم

ثم إن الظلال تسقط عاده على الأرض والتعبير بالسجود أليق بها

وما نقوله الآية: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ فإنه من الممكن أن يكون وصفاً خاصاً للظلال،

واختيار هذين الزميين هو لأن كل شيء في هذين لوقتین يكون دا طلاً، ظلّ طويل وممتدّ على العكس من منتصف النهار إذ يكون له ظلّ أو له ظلّ قصير.

ويحتمل أيضاً أن يكون هذان الوصفان لكلّ الموحودات هي السماء والأرض والمراد هو الإشارة إلى استمرار هذا السجود، كما يقول في عباراتنا اليومية: يجب أن سلقى فلاناً صباحاً ومساءً، أي، دائماً وباستمرار<sup>١</sup>.



أخيراً وبمراجعة عامة لما تقدم يصل إلى نّ مسأله (التوحيد في العبادة) لها من الأهمية ما جعلها في صدره دعوة الأسياء ورسول ﷺ، ومن أهمّ الفقرات في تعليماتهم، وقد أقام جميع الأنبياء أولي اعزم دعوتهم عليها، وكان رسول الله ﷺ طيلة عمره الشريف يدعو للتوحيد بعبارات مختلفة، وصراط الهداية المستقيم يمرّ عبر هذا الطريق، ولتحقيق هذا المصحح الإسلامي المهمّ ينبغي - عند الحاجة - ترك الأوطان وهجر أحواء الشرك وعبادة الأصنام.

ومن الخصائص المهمة لذلك اليوم الذي تهيم فيه حكومه العدل الإلهي في العالم بأسره هو ظهور عقيدة التوحيد في العبادة هذه والتي تسود العالم كلّ، وليس البشر فقط بل وكلّ الموحودات هي الأرض والسماء تسجد لله وفي كلّ الأحوال، وإدراك تسجد باختيارها فإنها تسجد من حيث تكوينها ولسان حالها وتسبح له

## توضيحات

### ١- شجرة توحيد العبادة المثمرة

لا بدّ من ملاحظة هذه النقطة قبل كلّ شيء وهي أنّ الإحترام والتواضع والخضوع

١ على الصورة الأولى يكون الجار والمجرور متعلّقاً بالفعل أو بالوصف المقدّر (وهو امتياز أنّه يعود للأقرب) وهي الصورة الثانية يكون الجار والمجرور متعلّقاً بالفعل يسجد وفيه امتياز أنّه مذكور

والثناء صفات لها مراتب ودرجات آخرها وذروتها العبادة والعبودية.  
ومن البديهي أن يخضع الإنسان لأوامر من يحترمه إلى هذه الدرجة ويستقاد له بكل  
وجوده انقياداً تاماً ويهوي إلى الأرض ويسجد له  
هل من الممكن أن يفصل الحصوع سدي يصل حدّ العبودية والثناء والإحترام  
اللامحدود عن الطاعة والتسليم للأمر؟

ومن هنا نقول: إن الإنسان إذا استوعب روح العبادة الحالية فإنه يكون قد حطاً خطوة  
كبيرة في طريق الطاعة لأمر الله والعمل بالصالحات والابتعاد عن السيئات. ومثل هذه  
العبادة - خاصة إذا كانت دائمة ومستمرة - تكون رمزاً لتربية الإنسان وتكامله  
مثل هذه العبادة الحالية المقرونة بعشق لمحبوب، الذي يشكل عاملاً مهماً للمحرك  
إليه. وكما أن التحرك نحو ذلك الكمال المطلق حامل على ترك القسائح والديّات والنلوث  
بالمعاصي.

ولهذا حارت مسألة العبادة الحالية على هذه الدرجة من الأهمية إلى الحد الذي يقول  
القرآن فيها ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (المؤمن / ٦٠)  
إن العابد يدفع من خصوعه اللامحدود بين يدي الله يسمى إلى نيل رضا والتقرب إليه  
ولأنه يعلم أن تحصيل رضاه يتم عن طريق صفة أمره فإنه يسعى في هذا الطريق ويتقبل  
أوامره بطيب نفس تام

العابد الحقيقي يسعى للتشبه وتقليد صفات مصوده ومشوّهه الحقيقي ويعكس في هذا  
الطريق قبساً من صفات جماله وحلاله في نفسه، ولا يكر ما لهذه الأمور من تأثيرات على  
تكامل الإنسان وتربيته.

## ٢- روح العبادة والإحترام من الإفراط والتفريط

هناك إفراط وتفريط عحيان في معنى العبادة كما هو الحال في الكثير من القصايا  
الأخرى حتى أن بعضاً أفرط إلى حدّ حوّل فيه سجود بغير الله (مع عدم الاعتقاد بمالكية

وربوبية المسجود له)، وذكر سجود لملائكة لآدم وسجود أخوة يوسف بين يديه كشاهدين على ذلك.

وهي المقابل اعتبر بعض آخر أن الاستعانة والتوسل بالنبي ﷺ والأئمة ﷺ وطلب الشفاعة وأداء الاحترام لهم، شركاً، واعتقدوا بأن فاعله مشرك. وفي الحقيقة أنه لا يمكن التوفيق بين هاتين العميدتين.

وللإيضاح نقول إنَّ حقيقة العبادة كما نقس على المعنيين في بداية البحث هي شرح المفردات هي: الحصوص المطلق وغاية التوضع والتدلل أمام المعبود، وهذا العمل محتض بالله من وجهة نظر إسلامية ويكون شركاً في عبادة إن كان موجهاً إلى معبود آخر

وبعبارة أخرى إنَّ للحصوص والتوضع درجات، درجة منها تحدث أمام الأصدقاء ويقابلها التكبر عليهم، ودرجة أخرى تكون أمام أفراد محترمين كالوالدين كما يقول القرآن: ﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (الاسراء / ٢٤)

والدرجة الأكمل تكون أمام الأنبياء والأئمة المعصومين ﷺ حتى أن المسلمين لم يحق لهم رفع أصواتهم فوق صوت أنبي ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ (المحجرات / ٢) ولكن آخر مرحلة من الحصوص ولواضع والتدلل التي تطلق عليها كلمة العبادة والعبودية هو (السجود).

وعليه فإنَّ الحصوص المطلق وغاية التدلل (وإن لم يفتر الإعتقاد بالربوبية والمملوكية) يكون عبادة ومختصاً بالله ولهذا لا يحور السجود لغيره

ولصاحب تفسير (المبار) في تفسير سورة الحمد كلام في معنى العبادة ملخصه أن العبادة صرب من الحصوص بالغ حدٍ لنهاية، نشيء عن استشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشأها، واعتقاده بسطة له لا يدرك كبها وماهيها، وقصاري ما يعرف منها أنها محيطته به ولكنها فوق إدراكه، فمن ينتهي إلى أقصى تدل لمالك من الملوك لا يقال أنه عبده وإن قتل موطىء أقدامه، مادام سبب تدل وحصوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه المعبود،

أورجاء كرمه المحدود، اللهم إلا بالسبب إلى ندين يعتقدون أن الملك قوة عينية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى، واحب رثهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا، لأنهم أطيب الناس عصراً وأكرمهم جوهر<sup>١</sup>، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الإعتماد إلى الكفر والإلحاد فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً وعبدوهم عبادة حقيقية<sup>٢</sup>

وللمعسر الكبير العلامة الطباطبائي رحمته كلام قريب منه في تفسير سورة الحمد في تفسير (الميزان) حيث يقول «الرب مفصور في الملكية والعمد مقصور في العبودية».

قد عرفت من سورة الفاتحة أن العبادة هي نصب العبد نفسه في مقام العبودية وإتيان ما يثبت ويستثبت به ذلك، فالفعل العبادي يجب أن يكون فيه صلاحية إظهار مولوية المولى، أو عبودية العبد كالسجود والركوع وإقيام أمامه حينما يقعد والمشي خلفه حينما يمشي وغير ذلك، وكلما زادت الصلاحية ازدادت عبادة تعبداً للعبودية وأوصح الأعمال في الدلالة على عز المولوية ودل العبودية، السجدة. لكن ادون الديني المتحد من الأساس بظواهره يعصي باحتصاص هذا الفعل به تعالى، والمع عن استعماله في غير هذا المورد<sup>٣</sup>.

*مرکز تحقیقات کلامی و فقهی قم*

وبناء على ذلك يستفاد من الدبر في مورد استعمال كلمة العبادة في القرآن والسنة والاستعمالات اليومية وشهادة اللعويين أن مفهوم اللعوي لهذه الكلمة هو نهاية الخضوع لا الاعتقاد بربوبية المعبود ومالكيته، ولذا إذا سجد شخص للشمس أو القمر أو النار بسبب بركاتها، أطلق على فعله هذا عبادة الشمس وقمر و نار، وهكذا إذا سجد إنسان لتماميل الأسلاف أو الملوك والسلاطين وأعلى منه إذ بلأتمه عليه السلام لمقامهم الرفيع فإن تلك العبادة غير جائزة.

ولهذا ينهى القرآن الكريم بصراحة في آية سجدة بقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾.

(فصلت / ٣٧)

١ تفسير المنار، ج ١، ص ٥٦ و ٥٧.

٢ تفسير الميزان، ج ١، ص ٢٢ و ٢٤.

ولهذا أيضاً تكرر، انتهى في الروايات الإسلامية عن السجود لمير الله ومنها.  
 الروايات السبع التي وردت في (وسائل الشيعة) في أبواب السجود الباب ٢٧ حيث نقرأ  
 في إحدى الروايات أن النبي ﷺ حاطب منركي العرب «اخبروني عنكم إذا عبدتم صور  
 من كان يعبد الله فسجدتم له أو صليتم ووصعتم الوجوه الكريمة على التراب بالسجود بها  
 فما الذي تقتضيه لرب العالمين؟ أما علمتم أن من حق من يلزم تعظيمه وعبادته أن لا يساوي  
 عبده»<sup>١</sup>

وهناك روايات عديدة تنصص الإجابة على السؤال حول كيفية سجود يعقوب وأبائه  
 بين يدي يوسف، أو كيفية حوار سجود الملائكة لآدم  
 ١- عن أبي الحسن الرضا عليه السلام «أما سجود يعقوب وولده لآدم لم يكن ليوسف إنما كان  
 ذلك منهم طاعة لله وتحتية ليوسف، كما كان السجود من الملائكة لآدم، ولم يكن لآدم إنما  
 كان ذلك منهم طاعة لله وتحتية لآدم بسجود يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله لاجتماع  
 شملهم ألا ترى أنه يقول في شكره في ذلك الوقت: «رب قد آتيتني من الملك» الآية  
 ٢- عن الإمام العسكري عليه السلام قال: «لم يكن له سجودهم - يعني الملائكة لآدم إنما كان  
 آدم قبله لهم يسجدون بحوره لله عز وجل، وكان بذلك معظماً متجلاً له، ولا ينبغي لأحد أن  
 يسجد لأحد من دون الله يخضع له كخضوعه لله ويعظمه بالسجود له كتعظيمه لله، ولو أمرت  
 أحداً أن يسجد هكذا لغير الله لأمرت صفاء شيعتنا وسائر الكائنات من متبعينا أن يسجدوا  
 لمن توسط في علوم علي عليه السلام وحي رسول الله ﷺ ومحض وداد خير خلق الله علي عليه السلام بعد  
 محمد رسول الله ﷺ» الحديث

والنتيجة من هذه الروايات واحدة تقريباً وهي هي انسجود لمير الله، وقد نقل العلامة  
 المجلسي في (بحار الأنوار) روايات عديدة في هذا الباب<sup>٢</sup>  
 وقد ورد في الفصحة المعروفة حول هجره لمسلمين إلى الحشنة، بهم حينما دخلوا على

١ وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٢٨٦ ج ٢

٢ بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٣٨ و ١٣٩ ج ٢، ٣، ٤، ٦

النحاشي أمرهم الرهبان المسيحيون بأن يسجدوا للمسيح، فقال لهم جعفر بن أبي طالب لا نسجد إلا لله<sup>١</sup>.

إن هذه الروايات تؤكد عدم جوار السجود غير الله وتفسر حقيقة العبادة

﴿﴾

### ٣- توحيد الوهابيين للمشوب بالشرك

«الوهابيون»: جماعة لا تزال تحكم الحجار وهم أتباع (محمد بن عبد الوهاب) الذي استمد أفكاره من (ابن تيمية، أحمد بن عبد حميد اندمشقي) المتوفى عام ٧٢٨هـ.

استطاع محمد بن عبد الوهاب خلال السورت مابين عام ١١٦٠ إلى ١٢٠٦هـ التي مات فيها ويتعاون مع الحكام المحليين وإثارة بران الحصنة القاسية بين القبائل التي تحوب صغارى الجزيرة أن يدمر معارصيه ويستلم زمام الحكم بصورة مباشرة وغير مباشرة وقد أريق دماء كثير من المسلمين في الجزيرة وغيرها.

وبعد موته هاجم أتباعه العراق عن طرق صحراء الجزيرة ودخلوا كربلاء واستولوا عطلة عيد الغدير وسفر الكثير من أهلها إلى 'سجف' فافتحموا سور المدينة وسفدوا إلى داخلها وشرعوا بهدم صحن الإمام الحسين عليه السلام والأماكن المقدسة الأخرى ونهبوا الأبواب الثمينة والهدايا النفيسة من المرفد الحسيني ومال الناس.

لقد قام أولئك بهدم قبور عظماء الإسلام في الحجار عام ١٣٤٤هـ بحيث استوت مع الأرض باستثناء قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم خوفاً من سخط المسلمين.

ويعتار الوهابيون بالتعصب والفسوة والمطاطة وعدم الرحمة والتجبر والسطحية ويعتقدون بأنهم المدافعون عن التوحيد الخالص في هذا المجال، ويكررون الشماعة وريارة القبور والتوسل بالقادة العظام ويصتون حلّ هماماتهم تقريباً في هذا السيل، وقد رفض

١. بحار الانوار، ج ١٨، ص ٤٢٠، ح ٨ (نقلاً عن حرائج الراوندي).



المسلمون قاطبة (سنة وشيعة) أفكار هذه المجموعة بل وكفرهم بعض العلماء<sup>١</sup>. ولم يحتصر البحث هنا عن هذه المجموعة وعفائدها وقبائحها وسيكون لنا كلام مختصر هنا بمقدار ما يرتبط ببحث عفائدهم في التوحيد في العبادة. إنهم يقولون: لا يحق لأحد أن يطلب الشفاعة من النبي ﷺ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

ويقول مؤلف كتاب (الهدية السنية) وهو من الوهابيين: من جعل انسلتكة والأنبياء وسائط بينه وبين الله لما لهم من قرب إلى الله كافر ومشرِك ويباح دمه وماله وإن نطق بالشهادتين وصلى وصام<sup>٢</sup>.

وله مطلق مشابه في التوسل ورأه قبور الأنبياء والأئمة والصالحين إن الخطأ الكبير الذي يرتكبه الوهابيون انقشرون هو أنهم تصوّروا أن موحودات هذا العالم لها تأثير مستقل ولذا اعتقدوا أنها تراحم توحيدهم لأفعال والتوحيد الصادق لله في حين أن هذا المعتقد هو نوع من الشرك! والإيضاح نقول: الموحّد الكامل يرى أن الوجود المستقل الماتم بداته في الكون واحد فقط وهو الله عز وجل. وسائر عالم الوجود ممكن ومرتبطة بوجوده، فكله انعكاس لشمس وجوده وليس له استقلاله من نفسه فكما كان محتاجاً في حدوثه فإنه محتاج إليه ومعلق به في بقائه أيضاً، فكل ما يملكه الموحود فإنه منه، وتأثير الأسباب منه فهو مسبب الأسباب، وهذا هو معنى جملة (لا مؤثر في الوجود إلا الله)، لا أن نسط الأسباب من سببها أو نعتقد أنها مستقلة فكلاهما خطأ وغير صحيح وبعيد عن حقيقة التوحيد. بناءً على ذلك إذا كان النبي الأكرم ﷺ منكاً للشفاعة فإن ذلك بإذنه كما يقول القرآن.

١ كتب أحد العلماء السنة وهو (إحسان عبد النظيف البكري) رسالة باسم (الوهابية في نظر علماء المسلمين) أوضح فيها آراء علماء الإسلام العظم حول الوهابية ومحمد بن عبد الوهاب ودور الوثائق كلها بدقة في آخر الكتاب وقائمة بمسؤولي الكتب التي تردّهم حيث تبلغ ٥ كتاباً محقق في البلدان الإسلامية المختلفة. وهذا الكتاب دليل واضح على تنفّر المسلمين عموماً عن هذه المجموعة السعرة.

٢ الهدية السنية، ص ٦٦

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾. (يوس / ٣)

وعندما يحيي السيد المسيح ﷺ الموتى ويُبرئ الأعمى والمبتلين بالأمراض المستعصية فإن ذلك بإذن الله أيضاً ﴿وَأُبرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَنْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران / ٤٩)

وعندما يستطيع (أصف بن برخيا، وهو وزير سليمان ومن وصفه القرآن بـ: «الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ») أن يأمر بهرث بلقيس في طرفه عين - كما يصرح به القرآن - من بلاد سبأ إلى سليمان في الشام فإنه كما قال: ﴿مِنْ قَضِيٍّ رَبِّي﴾ (المل / ٤٠)

ولكن الوهابيين العرباء عن القرآن وفهموا في خلط كبير وتصوّروا أن هذه الأعمال التي تصدر عن هؤلاء العلماء تصدر منهم بالاستقلال، وبد قاموا من أجل حلّ المشكل بإنكار بعض الضرورات في الدين مثل مسألة الشعاعة.

وعليه فإن هؤلاء ومن أجل تشب قواعدهم بالتوحيد كما يرعمون سقطوا في وادي الشرك ووادي إنكار ضرورات الدين والقرآن، وللشهاد المطهري ﷺ كلام جميل في هذا المجال ينقل حلاسته حيث قال تحت عنوان (حدود التوحيد والشرك):

١- الاعتقاد بوجود غير الله سبحانه ليس شركاً دتياً كما يعتقد أنصار الوحدة الوعية للوجود، لأن هذه الموجودات مخلوقة ومرتبطة به لا أنها بطيرة له.

٢- لا يعتبر الاعتقاد بتأثير المخلوقات شركاً في الحاققية (كما يعتقد الأشاعرة والجبريون) لأن المخلوقات كما أنها ليست مستعنة ذاتياً فإنها غير مستقلة في تأثيراتها أيضاً، بل أنها تابعة له.

٣- لو اعتقدنا بالتأثير المستقل للمخلوقات وقلنا أن عالم الحلق أمام الله كالماكنة والساعة التي يصنعها الصانع فهي بحاجة إليه في حدوثها ولا تحتاجه بعد صناعتها لأنها تعمل حتى لو ارتحل صانعها من الدنيا، فهذا هو الإعتقاد بالتمويض وهو لون من الشرك (إعتقاد المعتزلة).

٤- الاعتقاد بقدرة الموجودات التي تفوق لطبيعة وتأثيراتها هي العالم بإذن الله وأمره

ليس شركاً كما يظنّ الوثّابيون، بل إنّ اعتقادهم يمثل أسوأ ألوان الشرك، لأنّنا لو اعتبرنا ذلك شركاً لكان الاعتقاد بأصل وجود الموجودات شركاً أيضاً.

وهكذا فإنّ الاعتقاد بقدرة الإنسان وتأثيره بعد رحيله من الدنيا لا يعدّ شركاً، لأنّ الإنسان لا يكون جماًداً بعد موته

ثم إنّ اعتقاد الوثّابين يتسم بالإنسانية حيث يرلّون الإنسان منزلة الحيوان الطبيعي وهو الذي اعتبره الله خليفة له وأعلى مرحلة من العلائكة الذين سجدوا له

وهنا نصل إلى حقيقة الحديث الشهير أو رد عن رسول الله ﷺ ويقول فيه ما نصّه: «إنّ الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاء سوداء»<sup>١</sup> هي لهلة ظلماء»

والطريف أنّ الردّ على الوثّابين موحود في آية التي يستدلّون بها على إنكار الشفاعة (التوسّل)، لأنّ القرآن الكريم يقول: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ (الحج / ١٨)

وهي المثل الذي يكون في عرصه وعنى هيئته الموجود المستعمل كدائه المقدّسة، ولكن إذا كان تأثيره بإدبه وأمره لا في عرصه فإنّ ذلك ليس شركاً محسوب بل فيه تأكيد جديد على أصل التوحيد الذي ينتهي كل شيء إليه.

وهذا يشابه ما طلبة أخوة يوسف من أبيهم يعقوب وكان نبياً عظيماً وقد تقبّل ذلك منهم حيث قالوا: «يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا» (يوسف / ٩٧)

فاسعاب لهم وقال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ (يوسف / ٩٨)

هذه هي حقيقة التوحيد في العبادة، وتوحيد الأفعال التي ستمّ الإشارة إليها وليس كما يظنّه الوثّابيون المتحجّرون.

١ مقدّمة في الرؤية الكونية بلشهاد المظهرية ص ١١٣ (مع الاختصار).



تبریز

## ٤ - توحيد الأفعال

### (أ) توحيد الخالقية

#### تمهيد:

إن مفهوم (توحيد الأفعال) في تفسير مبسط و واضح يعني أن الكون بأسره هو فعل الله، وكل الأفعال، والحركات، والتأثيرات، والتأثرات سبهي إلى ذاته المقدسة، وفي الحقيقة (لا مؤثر هي الوجود إلا الله)، فالسيف حينما يقطع والبار حينما تحرق والماء حينما يروي الناس والساعات كل ذلك بإرادته وأمره، وباحتصار فإن أثر كل موجود يكون مصدره الله سبحانه.

وبعبارة أخرى: إن الموحودات كما أنها تابعة في أصل وجودها إلى ذاته فإنها كذلك في تأثيرها وفعلها.

ولكن هذا المعنى لا يعني عالم الأسباب وحاكمية قانون العلنية، وطبقاً للحديث المعروف عن الإمام الصادق عليه السلام «أمر الله أن يجري الأشياء إلا بأسباب»<sup>١</sup>.

كما أن الاعتقاد بتوحيد الأفعال لا يستوجب الإعتقاد بأصل الجبر وسلب الحرية من إرادة الإنسان، كما ستنتم الإشارة إلى ذلك لاحقاً بإذن الله.

بهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم ونبحث عن فروع توحيد الأفعال ونذهب أولاً إلى توحيد الخالقية فنأمل خاضعين في الآيات الآتية:

١- ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

(انعام / ١٠٢)

١. أصول الكافي، ج ١، ص ١٨٢، باب معرفة الإمام، ح ٧

٢- ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (رعد / ١٦)

٣- ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ سَّمَاءٍ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَاتِي تُؤَفَّكُونَ﴾.

(فاطر / ٣)

٤- ﴿وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَرَجَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قَاتِي يُؤَفَّكُونَ﴾.

(عنكبوت / ٦١)

٥- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (صافات / ٩٦)

٦- ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (اعراف / ٥٤)

### شرح للمفردات:

(خلق) في الأصل كما يقول الرابع في المفردات يعنى التقدير المباشر ويسعمل عادةً في الإيجاد والإبداع لشيء من دون أن يكون له سابق ومثل، وعلى ما ورد في (مقاييس اللغة) فإن (خلق) لها معيار أصليان الأول هو التقدير، والثاني هو استواء الشيء، ولذا يطلق على العنبر المستوي (حلقاء) وعلى الصفات الناطقة (أحلاق) لأنه يعكس عن نوع من الخلق، وعلى كل حال بما أن الخلق يعنى تقدير والتنظيم والتسوية فإن هذه الكلمة استعملت في خلق الله الإبداعي

### جمع الآيات وتفسيرها

#### هو الخالق لكل شيء:

تقول آية البحث الأولى بعد بيان صفات الله لجلالية والجمالية.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾. لا الأصنام النافهة ولا معبودات من الملائكة والجن التي هي من

المخلوقات والمربوبات، والله عز وجل هو رب لجميع.

١. جملة ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ فيها (ذلكم) وهو اسم إشارة إلى البعيد وهي مثل هذه الموارد يكون كناية عن العظمة غير الإعتيادية لمقامه الخارج عن حدود الأفكار

وتصيف: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾

لأن اللاتق للعبادة هو الذي يكون (رباً) أي مالِكاً ومرتبياً ومديراً لكل شيء، وللمزيد من التأكيد وإقامه دليل آخر على إنحصار المعبود فيه تصيف الآلة ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ثم تستج لتقول: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾

ولقطع كل أمل بعير الله وصد البشر عن شغوق بعالم الأسباب وإجتثاث جذور الشرك تقول الآية: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

كلمة (شيء) كما يقول النعويون تعني كل شيء يمكن أن ياله علم الإنسان<sup>١</sup>، إلا أنها في آية البحث تعني كل الموجودات ما سوى الله سبحانه

وعلى أية حال فإن لهذه الكلمة مفهوماً واسعاً تشمل كل الموجودات المادية والمعدّنة والذهنية والحارجية والحوهر والعرص، وبإحصار إليها تشمل كل شيء، وهذه الآية دليل واضح على عموميه الخلق الإلهي بالنسبة لكل شيء.

وقد وقع هنا راع معروف بسبب شمول (شيء) للأعمال الإنسان بين جماعه مقول بالجبر - كالمخر الرري - حيث يقول: (إِنَّ أَعْمَالَنَا تَاحِقَةٌ فِي كَلِمَةِ شَيْءٍ) أيضاً، فالله ذو هو خالقها، وهذه الآية دليل على الجبر عندهم، ولكن المؤيدين لحرية الإرادة لهم إجابة واضحة ومستدلّة وستأتي في الإيضاحات.

وقد استدلت جماعة بهذه الآية على نفى لصفات رائدة على الداب في مواجهة الأشاعرة القائلين بأن الله ذو صفات منفصلة عن ذاته، فلو كان الأمر كذلك فإن كلمة (شيء) تشملها ويجب - حينئذ - أن تكون مخلوقه، ولا معنى لأن يخلق الله صفاته كالقدرة والعلم و... ولا ينسجم هذا مع وجوب الوجود أساساً.

فأجاب بعض الأشاعرة بتخصيص عموم الآية بأن يقول: إن (خالق كل شيء) لا يشمل صفات الله! ولكن الآية تأتي الإستثناء ولم يرد عليها أي تخصيص كما سنبين ذلك بإذن الله.



١ هذه الكلمة مصدر (شاء) وتكون تارة بمعنى اسم الداع وتارة بمعنى اسم المفعول (فماثل جيداً).

الآية الثانية تبين محتوى الآية السابقة إصدفه إلى تأكيدها على وحدانية الله وقهاريته حيث جاء فيها: ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾.

**«لقهار»:** من (قهر) وهي في الأصل العلية سقرونة بتحفير الطرف المقابل ولذا تستعمل في هذين المعنيين كليهما، وطراً لاستعمالها هنا بصفة المبالغة فإنها تعني غلبة الله والنصر المطلق بدون قيد أو شرط - على كل شيء وكل فعل حتى معبوداتهم وأصنامهم غير مستثناة، وعليه كيف تكون شريكاً لله؟



الآية الثالثة تطرح الموضوع بصورة أخرى وهي صورة الاستعظام الإسكاري حيث تقول: ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرِثُكُمْ مِنْ الْأَرْضِ ﴾، كلاً، فهو الذي بدأ خلقكم، ويقاؤكم مستند إلى ررقه المتواصل.

فبأمره تشرق الشمس عليكم من السماء، ويهول المطر لحياء الأرض ويسحر الرياح، وهو الذي يتفصل عليكم بالنباتات والشمار وبعدها والمعادن والثروات الثمينة.

وعليه عندما لا يوجد حائق ورارٍ سواء في بداية الجميع وبهايتهم إذن بيده ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنِّي تَوَكُّوْنَ ﴾

### خالقة الله للكون:

لا ينكر حتى المشركون أن الله هو الخالق للكون، والآية الرابعة تطرح مسألة التوحيد في إطار آخر وهو أن المشركين أنفسهم يقرّون أن الأصنام ليست خالقة للسماء والأرض والشمس والقمر أبداً وتقول: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

فقد كان المشركون يعتقدون أن الأصنام شريكة لله في العبادة أو لها التأثير على مصير



الإنسان في الخالقية. فلا يصدق عاقل بأن كنهه من «حجر والحشب مصنوعة بيد الإنسان على هيئة الصنم تكون حالفاً للسماء والأرض وحتى أنهم لم يعتقدوا أن للأنبياء والأولياء هذا المقام أيضاً.

يحتمل أن تكون هذه الآية إشارة إلى يعود هذه العقيدة في أعماق المظرة الإنسانية، وعلى أية حال فإن الفصل بين (توحيد انماقية) و(توحيد العبادة) تساقض صريح، لأن الخالق والراقي هو اللائق بالعبودية فهو الذي سحر شمس والقمر ليسم بهما الإنسان وجعلهما في خدمته.

بناءً على ذلك لا تنفصل (الخالقية) عن (ربوبية) ولا (الربوبية) عن (الأكوهمية)، وبعبارة أوضح هو الخالق وهو المدر للعالَم وهو أهل لعبودية العباد

وقد حاول بعض المفسرين مثل مؤلف تكميل (في ظلال القرآن) أن يعبر التفات مشرقي العرب إلى (توحيد الخالق) بأشياء من تعلقات الأنبياء كالنبي إبراهيم عليه السلام<sup>١</sup>، إلا أنه لا ضرورة لهذا الإصرار، حيث يقر كل إنسان بهذه الحقيقة عند مراجعته للعقل والوجدان، كما أشير إلى هذا المصمود في تفسير روح البيان<sup>٢</sup>

إن الاستناد إلى مسألة الخلق ثم لتسحير إشارة إلى مسألتي (الخلق) و(التدبير) حيث يكون الجمع بأمره والمراد من (التسحير) في هذه الآية - معرفة آيات التسخير الأخرى الواردة في القرآن الكريم - هو استخدامهما في سبيل المصالح الشريعة

وعبارة «فَأَنِّي يُؤَفِّكُونَ» مع ملاحظة اشتقاقه من (افك) بمعنى (إرجاع الشيء عن مسيره الأصلي) يمكن أن يكون إشارة إلى أن مسار الصحيح والمنطقي هو أنهم بعد الإقرار بخالقية الله وتدبيره في عالم الوجود «أن لا يعبدوا سواه»، إلا أنهم انحرفوا عن الطريق فتمرضوا إلى العواصف العاتية للشيطان وانفس التي رمت بهم - كالقشة - من الطريق المستقيم إلى التيه والصلالة (لاحظ أن المؤنكات تعني الرياح المصادفة)

✽✽✽

١ تفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٤٢٨.

٢ تفسير روح البيان، ج ٦، ص ٤٨٨.

في الآية الخامسة استناد حاص، يـ كور لأصنام مصنوعة باليد حيث تقول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وذلك لما ورد في الآية تسابعة لها عن قول إبراهيم عليه السلام - رمز التوحيد - للمشركين ﴿أَتَقْبِذُونَ مَا تَتَحِثُونَ﴾؟ ويقول في هذه الآية ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا تستحق أى منها العبادة، بل إن أصنامكم موجودات أخطأكم لأنها مصنوعة بأيديكم و﴿ما﴾ هي جملة (وما تعملون) في هذه الحالة تكون موصولة.

وقد احتمل بعض أو أصرّوا على أن اعتبار (ما) هنا مصدرية فيكون معنى الآية إن الله خلقكم وخلق أعمالكم. في حين لا يساسب هذا المعنى لأنه.

**أولاً:** إن الله يوبخ الكفار في الآية على عبادتهم للأصنام ولو كان الله خالقاً لأعمالهم فلماذا التوبيخ؟

**ثانياً:** إن جملة (ما تعملون) دليل على أنهم خلقوا أعمالهم. وعليه لا تتجزم مع الخلق الإلهي.

**ثالثاً:** في الآية السابعة ورد حديث عن الأصنام التي كانوا يصنعونها بأيديهم فالمناسب أن تكون (ما) هي المراد بها، وإلا فإن الآيات تنفقد رابطها، ولذا اختلف كثير من المفسرين التفسير الأول أمثال الرمخشري، في الكشف والأكوسي في روح المعاني، والعلامة الطباطبائي في الميزان وغيرهم.

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو: كيف يمكن أن تكون الأصنام مصنوعة لله وأنشأ في الوقت ذاته؟

يقول الرمخشري إن موادها مخلوقة لله وصورها مخلوقة لصانعي الأصنام. إلا أن الصورة والشكل مخلوقة لله من إحدى الجهات، لأن الله سبحانه أعطى الإنسان القدرة وخلق فيه هذا العلم والمهارة ومن بهاء عن سوء الاستفادة منها. وأخيراً نواجه في الآية السادسة ولأخيره عبارة جديدة في باب توحيد الخالقية حيث تقول: ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ و﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ولا شك في أن الآية دليل على «حصر الخلق» و«الأمر» في الله عز وجل<sup>١</sup>، وعليه فإن الآية تبين (توحيد الخالقية) بوضوح

ولكن وقع بين المفسرين كلام حول المردس «الأمر»، فبعض فسرّه بمعنى تدبير العالم والأنظمة والقوانين الحارّية وذلك بقرينة، آيات الكثيرة التي ورد فيها هذا المعنى نظير ﴿فَلْتَدْعُوا أَمْراً﴾ (النارعات / ٥)

والآية ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ (العنكبوت / ١٢)

الآية ﴿النَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ (الحج / ١٢)

وآيات عديدة أخرى

أما بعضهم الآخر فقد اعتبرها بمعنى لأمر تشريعي والدستور الإلهي المقابل للشيء، فيكون معنى الآية أن الخلق خاصّ بالله ولأمر والدستور التشريعي يصدر عنه أيضاً، مثل ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ (المور / ٦٣)

وهي تفسير ثالث فسر «الأمر» بمعنى الإرادة مثل ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِهِ﴾ (الطلاق / ٣)

وهي تفسير رابع فسر عالم «الخلق» بعالم المادّة، وعالم «الأمر» بعالم المحرّكات وذلك

بقرينة قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. (الاسراء / ٨٥)

والواضح أن التفسير الأول من بين هذه لتعاسر أكثر انسجاماً مع الآيات القرآنية

الأخرى ومع آية البحث أيضاً، لأنّ القرآن الكريم يريد أن يذكر المشركين بهذه الحقيقة،

وهي أن الخلق وتدبير المخلوقات محتصّ بالله والشاهد على ذلك قوله: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

في دبل الآية، وعليه فإن الأصنام لا دور لها لا في الخلق ولا في التدبير والربوبية، فلماذا

تعبد إذن؟!



## توضيحات

## ١ - الخطوة الأولى نحو الشرك في الخالقية

نعل المجوس ليسوا أول من جعل لله شريكاً في الخالقية، ولكنهم أكثر شهرة من غيرهم على الأقل.

إنهم قسموا الموجودات إلى مجموعتين حسنة وسيئة (خير وشر) واقترصوا لكل مجموعة إلهاً (يزدان وأهرمس) أو انور واصمه، وديهم هو أن مخلوق الإله يكون له سلبية معه، وعليه لا يمكن أن يكون إله الخير وإله الشر واحداً، فإله الخير خير، وإله الشر شراً

لو كانت موجودات العالم مقسمة على هذا النحو لأمكن أن يكون الاستدلال صحيحاً، لكن الحقيقة هي أنه لا يوجد في عالم الوجود إلا الخير، وما يطلق عليه (الشر) أمر عديم أو أنه ذو وجه سببي، فمثلاً نقول الفرس شر، في حين أنم لشر ليس إلا فقدان لعناصر الحياة، والفقدان أمر عديم والعدم ليس شيئاً يكون له حال.

أو نقول: إن لسعة النحل ومحالب، الحيوان المفترس شر، وذلك عندما يحمل أفعسا محوراً ثم يحكم بهذا النحو، في حين لو نظرنا إلى النحل نجد أن الأبره فيه وسيلة للدفاع وطرد المهاجمين، والأنياب والمحالب في الحيوانات المفترسة وسيلة للصيد والتعدي وبها جانب حيوي بالنسبة إليها فهي إدر خير، وعنده فإن الكثير من الموجودات تتخذ صورة (شريرة) نتيجة لأفكارنا

وقد يكون جهلنا هو السبب في اعتبار الأشياء شراً وذلك لعدم علمنا بموائدها، فمثلاً من الممكن أن نعتبر وجود الجراثيم شراً لأنها تسبب الأمراض ولكن إذا لاحظنا بطريقة بعض العلماء هي أن الجراثيم المسببة للأمراض تدعو خلايا الإنسان إلى معركة دائمة وفيها تكون أكثر نشاطاً ونمواً ورشداً، ولولا الجراثيم لكان معدّل طول الإنسان لا يتجاوز الثمانين سنماً، ولأصبح ذا جسم ضعيف وعاجز، سدع عندما يدرك ذلك أن إطلاق الشر عليها ناشئ من جهلنا، وبخاصة أن الذي خلق الجراثيم قد وُجد طرق معالجتها في حالة استفحالها أيضاً

ويعلم كذلك أن بعض الأدوية في عصرنا ربما تستخرج من سموم الحيوانات ولهذا الغرض يُربى كثير من الأفاعي والحيوانات سامة الأخرى، وعلى هذا فإن أبرها وسمومها ليست شراً مطلقاً، وسأتي تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع في بحث العدل، بإذن الله.



## ٢ - خطوة أخرى على طريق الشريعة

في هذا الموضوع انحرفت مجموعتان إسلاميتان هما (الأشاعرة) و(المعتزلة) أي المفوضة، المجموعة الأولى تتبع «أبا الحسن لأشعري» المتوفى عام ٣٢٤ هـ وقد أنكرت التأثير والعلّة والمعلول في عالم الخلق إنكاراً تاماً وتقول: إذا كانت النار معرقة فإنه مجرد تصور ولا غيراً فالمحرق الأصلي هو الله، وبكى إرادته حكمت بشكل إذا مسّت النار - مثلاً - يد الإنسان فإن الله يوجد الاحتراق مباشرة في يده لا وهذا النحو أنكروا عالم العلّة والمعلول بتماماً واعتبروا الله تعالى عنه لكل شيء مباشرة دون واسطة.

إنهم أنكروا هذه القضية المحسوسة بل والأكثر من ذلك حسوسه<sup>١</sup> بسبب إيمانهم بأن الإعتقاد بوجود عالم الأسباب محض في توحيد الخلقية.

بسبب هذا الخطأ الكبير تعرضت مجموعة الأشاعرة إلى انحراف كبير آخر وهو أنها تعتبر أفعال الإنسان وأعماله مخلوقة لله أيضاً، وهذا سوء أنواع الجبراً وبعبارة أخرى أنه شيء أعلى من العبر لأن الأشاعرة يقولون: لسنا نحن الفاعلين للأعمال الصالحة والسيئة بل إن الخالق لها كلها هو الله سبحانه، فهي في الحقيقة أعماله المباشرة لا أعمالنا الجبرية (هتأمل جيداً)، وفي النقطة المقابلة يقف المعتزلة الذين لا يعتقدون بوجود تأثير للأسباب وانعكس فحسب بل يعتبرونها مستقلة في تأثيراتها، هتأمل أن الله خلق بعض الأنبياء والأولياء وأوكل إليهم أمر الخلق، كما يعتقدون أن الإنسان مستقل

١ ليس لقانون العلّية بعد حتمي فقط بل يمكن التوصل إليه عن طريق الوجدان والملم الحسوري. لأن كل شخص يرى بوضوح أن روحه توجد الإرادة والتفكير

في أعماله تماماً، وبهذا يعتبرون الإنسان خائفاً صغيراً والله عز وجل خالقاً كبيراً!

ولاشك في أن المجموعتين على خطأ. وقد وقعنا في لون من الشرك، شرك جلي وصريح، وشرك حفي، فالدُّلُون - (المعوص) - اتُّلُوا بشرك جلي لأنهم اعتقدوا بأن الإنسان مستقل في أعماله أو اعتقدوا بأن الله قد أوكل إلى أوليائه خلق السماء والأرض وتسعى جانباً وهذا ما يعارض صريح الآيات القرآنية التي تعتبر الله خالقاً لكل شيء ورباً ومدبراً لجميع الأمور، ومن العجيب أن الإنسان المسلم المرتبط بالقرآن كيف يتبع مثل هذه الأبحاث المنحرفة؟!!

أمّا الأشاعرة فقد ابتلوا بدون آخر من الاحراف ولشرك، لأنهم أنكروا أولاً أصل العلّية في عالم الحلق خلافاً للوجدان والحس، ونسبوا بداً كان الإعراف بأصل العلّية شركاً فإن الاعتقاد بأصل وجود الإنسان شرك أيضاً، إن الإنسان محار وحُرّ في فعله ولكن يجب أن لا ننسى أن قدرته وقوته كلّها وحتى حرية إرادته هي من الله تعالى، فهو الذي أودع كل هذه القوى في الإنسان وهو الذي شاء أن يكون الإنسان حرّاً، وعلى هذا فإن أعمال الإنسان هي الوقت الذي تستند فيه إلى الإنسان فإنها تكون مستندة إلى الله أيضاً، ولا يخرج عن دائرة خلقه، كالاعتقاد بأصل وجود الإنسان فإنه وجود باع ومتعلّق بغيره، ولذلك لا يستوجب الشرك

وبملاحظة المثال الاتي يمكن أن تتّضح الحقيقة، إن كثيراً من القطارات تعمل بالطاقة الكهربائية، وهذه الطاقة تجري في شبكة على طول الطريق ويرتبط القطار بها عن طريق حلقة، السائق في مثل هذا القطار حرّ في عمله ولكن في الوقت ذاته يكون عمله مرتبطاً بيد شخص آخر وهو الذي يراقب الطاقة الكهربائية على طول السلك، وبإمكانه أن يقطع التيار الكهربائي بإرادته في أية لحظة شاء وذلك بالضغط على زر معين فيتوقف القطار في مكانه، وبإمكانه - إذن - أن يقول بئني حرّكت القطار بإرادتي، كما يمكن لسائق القطار أن يقول ذلك ويصدق الإثنين، إلا أنّهما فاعلان طوليّان لأوّل في المرحلة الأولى والعليا والثاني في المرحلة الثانية والسفلى التابعة، فالفعل ينسب إذن إلى الإثنين ومع ذلك فإن سائق القطار

مسؤول عن عمله وليس بمجبر

وعليه لا يكون الاعتقاد بحرية إرادة الإنسان شركاً في الحالقية.

وبعبارة أوضح مثلما يرتبط أصل وجود الإنسان بالله تعالى والإيمان بوجود الإنسان لا يستلزم الشرك فأفعاله كذلك.

والأشاعرة كأنهم يرون أصل وجود الإنسان مستقلاً في حين أن هذا نوع من الشرك، وإلا فإن الوجود التابع إن لم يتعارض مع التوحيد فإن الأفعال التابعة للإنسان لا تكون معارضة للتوحيد أيضاً

ولا بأس أن يتوضح هذا البحث بضرب مثال:

جاء إنكار الأشاعرة للعلية والسببية نشحة لتوهم وقوع الشرك، أي إذا اعتبرنا الإحراق من النار فإنهم يقولون إن هذا شرك، أي حين يهوى هذا السؤال أليس الاعتقاد بوجود أصل النار أمام وجود الله شركاً؟

سيفولون: لا حتماً، لأن هذا الوجود تابع لذاته المعدسة (كالصوء المبيح من المصباح المتوقف على ارتناظه بالطاقة الكهربائية وحطفاً عند انقطاعها)، ويذكر هذا الكلام ذاته في تأثير الأسباب ونقول إنها تكون في النهاية تابعة لله تعالى، وقدوة الإنسان واختياره تابع له أيضاً، وعليه فإن التوحيد يحتفظ بمعناه تماماً في هذا المجال، فالله خالق كل شيء مع ثبوت أصل العلية والحريه في إرادة الإنسان

وستأتي بإيضاحات أكثر بهذا الشأن في بحث الجبر والإختيار، بإذن الله



تجربہ نامہ



## ب) توحيد الربوبية

### تمهيد:

إنَّ توحيد الربوبية يعني أنَّ المدير والمدير والمربي والمعلم لعالم الوجود هو ذات الله المقدسة فقط.

وكلمة (رب) التي هي من صفات الله عز وجل قد تكررت في القرآن الكريم أكثر من غيرها حتى بلغت ٩٠٠ مرة بالعاظ (رب، ربك، ربكم، ربنا، ربي وأمثالها)، والعديد من الآيات القرآنية تعرف الله بـ (رب العالمين) ويدل ذلك على أنَّ القرآن يولي اهتماماً خاصاً بتوحيد الربوبية، حيث كان أغلب لمشركين يجعلون مع الله تعالى موجودات أخرى يشاركون في تدبير العالم، وأعلمهم: كما أسلفنا: أمطوا بتوحيد الخالق والكنهم سورطوا بالشرك في الربوبية، ولذا يقوم القرآن بدفع هذا الانحراف العمائدي الكبير لدى أهوام مختلفة مكرراً وباستمرار، والشرك في الربوبية طبعاً يكون مصدراً لانحرافات خطيرة أخرى سنعرض لها في بحوث مقبلة

بهذا التمهيد نمن حاشعين في بات قرآنية تمثل نماذج من آيات توحيد الربوبية في القرآن الكريم:

١- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة / ٢)

٢- ﴿قُلْ أَغْيَا اللَّهُ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام / ١٦٤)

٣- ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ (الرعد / ١٦)

٤- ﴿لَقَدْ قَالَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (المؤمنون / ١١٦)

٥- ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الصافات / ١٢٦)

٦- ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْسِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ

مِنَ الْمَيْتِ وَيُخْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرْ الْأَمْرَ فَسَيَحْشُرُونَ اللَّهَ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ»

(يونس / ٣٦)

### شرح المفردات:

«رب»: له أصل واحد وهو ع وشعب كثيره وموارد استعمال كثيرة والأصل كما يقول الراغب في المعردات يعني التربية وسوق الشيء إلى الكمال، وفي (مقاييس اللغة) ذكر عدداً من الأصول له هي لمصلح والقائم على الإصلاح الملازم والمقيم على الشيء، الإدغام بين الشينين ولكن كما ورد في التحقيق في كلمات القرآن الكريم) فإن هذه ترجع جميعها إلى أصل واحد وهو عبارة عن سوق الشيء إلى الكمال ورفع القائص في أبعاد مختلفة: مادية ومعنوية، ذاتية وعرضية، وفي الاعتقاد والصفات والأخلاق.

وبما أن أداء هذا العمل يترتب بمفاهيم أخرى كالحكم، النسيب، الحكومه، المالكة، الصحبة، السيادة، الإجماع، التعليم، والتعبئة فإنه يطلق على هذه المعاني أيضاً. من هنا ذكرت له كتب اللغة معاني متعددة، فذكرها في (لسان العرب) مثلاً إن (رب) إضافة إلى إطلاقه على ذات الله المعدسة فإنه يعني المالك والسيّد والمدبّر والمرئي والقيم والمعلم أيضاً، وحوهر الكلام هو أن هذه الكلمة تعني في الأصل التربية والسوق إلى الكمال ثم أطلقت على المعاني الملازمة له<sup>١</sup>.

ولكن كما يستفاد من أقوال اللغويين إذا استعملت هذه الكلمة مطلقاً فإنها تستعمل فيما يخص الله تعالى فقط لأنه المالك الحقيقي والمرئي والمصلح لكل شيء، وإذا استعملت في سوا الله تعالى فالواحد هو أن تكون مصافة مثل (رب لدر) (رب الإبل) و(رب الصبي)<sup>٢</sup>

١ ينبغي ملاحظة أن «رب» مشتقة من «رب» في حين أن «التربية» مشتقة من «ربو» ويستفاد من التفسير التي

وردت حول كلمة رب في كتب اللغة أن (ربو، وأرب، بهم تشابه شديد في المعنى وقد اعتبر الطبرسي رحمته الله في

مجمع البيان ج ١، ص ٢٢، هاتين الكلمتين بمعنى واحد

٢ راجع، لسان العرب: معردات الرابع: وقاموس اللغة مادة (رب)

إن هذه الكلمة عندما تطلق على الله عز وجل يمكن أن تكون فيها إشارة إلى أبعاد الربوبية المختلفة أي المالكية والتدبير والإصلاح والتربية والقيومة والإنعام.

«تدبير»: من (دبر) ويعني المحي، خلف شيء، والتدبير يعنى جعل الشيء ذا عاقبة حسنة ونتيجة مرغوبة، العمل الذي لا يمكن إيجاره إلا بالعلم والوعي وبهذا فإن لفظ (مدبر) يطلق على أشخاص يتدبرون عواقب الأعداء ويوصلونها إلى نهاياتها المطلوبة ويمتلكون رؤية ثاقبة ووعياً كافياً<sup>١</sup>

8008

### جمع الآيات وتفسيرها

الله سبحانه وتعالى ربّ للعالمين:

إن الآية الأولى التي برز لها صياحاً ومساءً تقول «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» قد تكررت في سور قرآنية عديدة من قبل العباد أو من قبل الله تعالى، وتكون مارة مسرطة بالديار وأخرى يوم القيامة<sup>٢</sup>.

هذه الآية تتضمن في الحقيقة استدلالاً لطيفاً على أن الله عز وجل أهل لكل حمدٍ وثناء، لأنّه الربّي الحقيقي للعالمين أحمرهم، فهو خالق وهو الرارق وهو المالك وهو الربّي وهو المدير والمدير وهو المرشد والمعلم والهادي، والملاحظ أن (الحمد) استعمل كجنس يشمل كل أنواع الثناء. و(العالمين) كذلك، فأنه جاء على هيئة الجمع المحلى بالأنف واللام فأنه يشمل موجودات العالم كلها من عفلاء وغير عفلاء مادية وغير مادية (واستعمالها بصورة الجمع العاقل فأنه من باب التغليب)<sup>٣</sup>.

١ مقاييس اللغة والتحقيق هي كلمات القرآن الكريم ومفردات العرب.

٢ الإنعام، ١٠.

٣ لهذا فأنه حينما وصف موسى (عليه السلام) الله تعالى أمام فرعون بأنه (رب العالمين) سأل فرعون: ومن رب العالمين؟ فأجاب موسى: رب السماوات والأرض وما بينهما.

وعليه إنَّ ما يقوم به الآخرون من تعليم وتربية وإنعام في زاوية من العالم فإنَّ ذلك قبس من قبضه سبحانه، ومن كان مانكاً فإنَّ ذلك شعاع من ملكيته المطلقة، ولذا علينا قبل أن نشكر عباده ونحمدهم ونثني عليهم يحب أن نحمد الله ونشكر داته المقدسة.

والفخر الرازي يقدِّم شرحاً إجمالياً ينعم الله طراً إلى أن الحمد والثناء يكون إزاء النعمة ويقول: «... ثم أن أصحاب التشريح وجدوا قريباً من ٥ آلاف نوع من المنافع والمصالح التي ذكرها الله عز وجل بحكمته في تحليق بدن الإنسان ثم إنَّ من وقف على هذه الأوصاف المذكورة في كتب التشريح عرف أن سببه هذا بقدر المعلوم المذكور إلى ما لم يعلم وما لم يذكر كالقطره في البحر المحيط» ثم يذكر آثار ربوبية في بقية أنحاء العالم. ويقول: «إنَّ هذا المجموع «مجموع نعم الله» مشتمل على ألف ألف مسألة أو أكثر أو أقل، ثم إنه تعالى بيته على أن أكثرها مخلوق لمنفعة الإنسان أو كما قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾».



وحينئذ يظهر أن قوله جل جلاله «نحمد الله» مشتمل على ألف ألف مسألة أو أكثر أو أقل<sup>١</sup>.

المفسر المذكور تحدَّث طبعاً في إطار العلوم السائدة في عصره، وبملاحظة الاكتشافات الحاصلة في عصرنا في المجالات العلمية المحصلة يتضح صغر وتفاهة هذه الأرقام والأعداد، هي جسم الإنسان وحده ١٠ ملايين مليار خلية كل خلية منها تعد من خدومه ومشغولة بربوبية الخالق سبحانه وستنزه الشكر والحمد، ولو أراد الإنسان أن يعد هذه الخلايا ليلاً ونهاراً فصلاً عن حمدها والثناء عليها لاحتاج إلى ٣٠٠ ألف سنة!



الآية الثانية التي نحاطب النبي ﷺ تقول ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بَنِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كيف تريدون الاستقلال لأنفسكم عن النظام العام لعالم الخلق؟ فالله رب الموجودات كلها فكيف لا نعتقد بأنه (ربنا)؟ فهل من الممكن أن يجعل شيئاً تحت ربوبية الله شريكاً له

ونعتبر المربوب رباً والمخلوق شريكاً للخالق، والعبد في عرض المولى؟ فأى حكم هذا؟ وبملاحظة سعة مفهوم (شيء) الذي يشمل كل ما سوى الله سبحانه فإن توحيد الربوبية في هذه الآية ظاهر بصورة كاملة فاقه سبحانه بأمر لبي ﷺ ضمن آيتين سابقتين بأن يخاطب المشركين بصراحة: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (انعام / ١٦٢)

لماذا أعبد غيره؟ ولماذا أسجد لغيره؟ وكيف أبقي حياً بذكر غيره؟ أو أموت فداء لغيره؟ في حين أنه وحده هو الخالق والمالك والمربي لي ورمي هنا التلاحم والتآلف بين (توحيد عبادة) و(توحيد الربوبية) حيث أوجدا خليطاً منياً للروح<sup>١</sup>.

❦❦❦

في الآية الثالثة خطاب للنبي ﷺ أيضاً ولكن الكلام هنا جاء عن رب السماء والأرض والذي لا يختلف في الحقيقة عن (رب العالمين) ﴿وَلِلَّهِ كُلُّ شَيْءٍ﴾ كثيراً، وإن ذكر يعيادات مختلفة فتقول الآية ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ولأنهم ليس بوسمهم الإِدعاء بأن الأصنام أو المعبودات البشرية وأمثالها مدبرة ومرتبعة ومنظمة للسماء والأرض فإن الآية تأمر النبي ﷺ مباشرة أجاب عن هذا السؤال ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ ينبغي لك أن تهجر كل ما سواه وتعرض عن غيره وتعتمد على ذاته المقدسة فقط، واجعل قلبك مرتبطاً به وعقر حدك له، لأن جميع الموجودات لا تملك لنفسها صراً ولا نفعاً فصلاً عن غيرها، ﴿لَا يَلِكُونِ لِأَنْفُسِهِمْ صَراً وَلَا نفعاً﴾. (الفرقان / ٣)

❦❦❦

١ «سك» مفرد وقتره الكثير من اللغويين بمعنى كل عبادة في حين فتره البعض بمعنى الهدي ولكن لا توجد أية قرينة عليها بل إن ظاهر الآية يدل على أن المراد هو كل العبادات وعليه يكون ذكره بعد الصلاة من قبل العام بعد الخاص.

الآية الرابعة تتحدث عن ربوبية الله للعرش ولكنها تبدأ بحاكمية الله وتقول: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾.

وهذه جملة تكمل ما ورد في الآية لسابقه بها وفيها ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَهُنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾. (المؤمنون / ١١٥)

ويستعاد منها بأنه لولا المعاد والقيامة فإن خلق الإنسان يكون عبثاً، لأن الحياة بعدة أيام في الدنيا ليست هدفاً سامياً للخلق وهذا من لدلائل المهمة للمعاد، سيكون لنا حديث مفصل عنها في بحث المعاد بإذن الله

ثم تضيف الآية: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾

«ملك»: يعني الحاكم والمالك، ولا يصدق ذلك معناه الحقيقي إلا في الله سبحانه لأنه من شؤون الحالفية ومستلزماتها ولعدم وجود حق سواء عانه لا مالك ومالك غيره

ولذا تصفه الآية بعباره (الحق)، ثم يعصر المعنوية فيه لأن العادة يليق بالملك الحق وتكمل ذلك بوصفه بـ «رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ». هذه الصفات الأربع جاءت لدعم عقيدة المعاد والقيامة الواردة في الآيات السابقة

«العرش الكريم»: إشارة إلى عالم الوجود كنه، لأن العرش يعني كرسي السلاطين العالي، وكرسي الحكومة الإلهية كناية عن مجموعة عدم الخلق وعلى هذا يسبح مع جملة، «رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ» التي جاءت في الآيات السابقة، وتضاف العرش بـ (الكريم) الذي يعني الشرف والعيد والجيد بسبب أن كرسي الحكومة الإلهية مصداق كامل لهذه الصفات

ولكن بعضاً اعتقد أن (الكريم) يعني الصاحب الكريم، ولأن هذا المعنى لا يصدق في العرش فإن هذه الصفة تكون لذات الله لمعدسة لا العرش، في حين أن كريم يمكن أن يكون وصفاً لغير الموجودات العاقلة أيضاً مثل: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. (الحج / ٥٠)

أي كثير الفائدة والشريف<sup>١</sup>



١. هنا أبحاث مفصلة في معنى «العرش» في اللغة والقرآن الكريم ومنها في تفسير الأمل، ذيل الآية ٥٤ من سورة الأعراف وذيل الآية ٣ من سورة يونس.

الآية الخامسة تتحدث عن ربوبيه الله بل بشر وتقل عن النبي العظيم ﷺ خطابه لقومه، وفيه ويحثهم على عباده صمهم المعروف بـ (عل) وقال لهم: ﴿أَتَدْعُونَ بَغْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ وأصاف: «اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ»<sup>١</sup>

وهذا في الواقع لجميع الوثنيين ليس كسوا يبررون عبادة الأصنام حينما يسألون عنها بقولهم: إن هذه سة آبائنا ولا نتركها، وفي مقابل استند النبي إلياس عليه السلام إلى هذا المعنى وهو: أن اللاتق للعبودية هو رب العالم ومدبره والمرئي الحقيقي للإنسان، والله ربكم ورب آبائكم وأحداكم فإذا كان أولئك على خطأ في معرفة المعبود الحقيقي وربهم فلماذا تسلكون نفس الطريق الخاطيء؟

﴿٢٨﴾

### هو المحتر للأهورة:

تحدث الآية السادسة والأخيرة عن تسمير الأمر بدلاً من استخدام كلمة (الرب) وهو مفهوم شسه بالربوبية، وليس عينة تسماء، فتخاطب النبي ﷺ ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

من الذي سحر لكم نور الشمس لضروري لوجودكم والأمطار التي تنزل من السماء لتهب الحياة في كل مكان والهواء الذي تنفسونه فيسحكم طراوة ولطافة؟ وهكذا النباتات التي تنبت في الأرض، وتوفر المواد الغذائية والفواكه اللذيذة والمعادن الثمينة التي تستخرجونها من باطن الأرض، من الذي أعطاها لكم؟ هل هذه الأرواق من الأصنام؟

ثم تذكر الآية جسم الإنسان ونشير إلى مجموعتين من أهم أعضائه بصوان الطريق الأصلي في ارتباط الإنسان مع العالم الخارجي والمبدأ الأساس للعلوم والأفكار حيث تقول ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾، ثم تتناول أهم ظاهرة في عالم الخلقة وهي قضية

١ «اللَّهُ مَصْرُوبٌ لَّانْهُ بَدَلُ مِنْ «أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ» فِي آيَةِ السَّابِقَةِ وَقَالَ بَعْضُ إِنَّهُ عَطَفَ بَيَانِ.

الحياة والموت وتقول: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾، فهل هذا من فعل الأصنام أيضاً؟

والآية في آخرها يعد ذكر المسائل المهمة ثلاث (الأوراق السماوية والأرضية، السمع والبصر، الحياة والموت) تذكر القصيدة بصورة كنية وجمعة وتقول: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ ومن المسلم به أنهم لو راجعوا عقولهم وصنائرهم لم يكن لهم جواب إلا أن يقولوا الله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾.

ثم تقول الآية خذ من هذا الجواب مستمكاً وهل ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ إن جميع الأوراق المصوية والمادية للسان وتدير العالم كله قد احتضمت في الحقيقة في هذه الآية، فإن الأوراق المادية إما تكون من السماء أو من الأرض، والأوراق المصوية عادة تكون عن طريق البصر والسمع اللذين يعلان العلوم الحسية والعقلية والنفسية إلى الإنسان، وتدير العالم بشمل هذه كلها وغيرها، فمن يستطيع أن يدعى أن العباد الصماء أو الموجودات الصغيرة كالأصنام هي الحالقة لهذه الأوراق والمديرة لهذه الأمور؟ إن سوحيد الربوبية ليس قضية معقدة حتى بالنسبة لعباد الأصنام فيما لو فكروا قليلاً والتعبير بـ (بملك السمع والأبصار) يمكن أن يكون إشارة إلى خلقها أو حفظ نظامها وتديرها أو هذه الأمور كلها.



من مجموع الآيات المذكورة والآيات المشابهة لها في القرآن الكريم وهي كثيرة وواسعة نحصل على هذه الحقيقة، وهي أن القرآن الكريم يعرف الله القادر المتعال بأنه هو المالك والمربي والمدير والمدير لعالم الوجود كله وكل شيء، وكل موجود في السماء والأرض والعرش والكرسي والبشر في الزمان الحاضر والماضي، وتقول بصراحة لا رب لعالم الوجود غيره.



## توضيحات

### ١ - التوحيد يعني حذف الوسائط!

من خلال مطالعة دقيقة للآيات القرآنية نستنتج أن القرآن يصبر مؤكداً بأن لا يصيح الناس بين الوسائط وعليهم أن يسوخوا إلى دت الله، مقدسة مباشرة، ويتحدثوا معه ولتعلق قلوبهم به وحده ولا يعبدوا غيره، وتعبير بـ (رب العالمين) في سورة الحمد والسور القرآنية الأخرى إشارة إلى هذه الحقيقة، ونكرر ذكر الركوع والسجود (سبحان ربي العظيم) و (سبحان ربي الأعلى) كنه بيان هذه حقيقة وهي ليس خلقاً بيده فحسب بل وبقاؤنا وتربيتنا وتكاملنا وتدبير أمورنا.

وقد أوضح القرآن الكريم ذلك بذكره وهو (نحلق) و (الرب) لا يمكن أن يمتصلاً، ولو دقيقاً جيداً في الإنسان لوحدها له حلقاً حديد في كل لحظة، وكل ذلك منه سبحانه إن موجودات العالم بأسرها محتاجة وفقير فيهم الغني المطلق من كل جهة. وتاريخ الديانات يشير إلى أن البشرية بسبب البعد في الوسائط والحرافات التي ابتليت بها، وكم من الموجودات المسحقة التي جعلتها فيهم فيحكم بمصائرهما، وهذا التعدد في الأرباب والآلهة قد جلب للبشرية كل هذا عرق والاحتلافات والشقاء ولكن عندما بهجر هذه الوسائط واعتبر أن الله هو الرب المطلق كما يقول الدلائل والبراهين العقلية، عرف أن كل شيء محتاج إليه فبدأ بسبيل إلى مبدأ السور والمفظة والوحدة والوحدانية.

ولذا فإن صفة (رب) تكررت أكثر من ٩٠٠ مرة في الآيات القرآنية ولم تتأكد صفة أخرى من الصفات الإلهية إلى هذه الدرجة. وفي الحقيقة بحسب معرفة ومطامعة الإخلاص في توحيد الإسلام قبل كل شيء في هذا التوحيد الربوبي.

### ٢ - تاريخ الديانات ومخلفة للوسائط

كلما تعمقنا في دراسة تاريخ المذهب والديانات تتجلى أمامنا هذه الحقيقة أكثر فأكثر

وهي شيوخ الشرك وتعبد الآلهة (الإله بمعنى رب) بين المجتمعات البشرية المختلفة منذ أقدم العصور بشكل أوسع، ولو قمنا بجمع أسماء هذه الآلهة وعقائد المجتمعات البشرية المختلفة لحصلنا على كتاب مفصل مليء بالعقائد المعجبية والعربية والحرافية، ولا بأس في الإشارة إليها بصورة مختصرة، ليعطى القراء على تلك القصة الطويلة من خلال هذه المقدمة المتواضعة.

### (أ) آلهة الروم

كتب أحد المؤرخين العربيين بهذا الصدد «م تكن الديانة الرومية تشابه ما نسطيع عليه «دين» أبداً، ولم تنصت أي تشريع لمعتقداتها، ولم تكن تصدد إصلاح النسخ الأخلاقي بين الناس، بل كانت تعلمهم أقصى نسل لاكتساب رضا الآلهة وعونها وكانت آلهة الروم كثيرة جداً مما جعل كل إله يحظى باتعاه معين وله دور في قصة معينة، فلم يكن لأبواب البيوت إله محسوب، بل والعنبة منها وفوايدها كانت لها أرباب، كما أن هناك آلهة مستقلة تتولى أمر المحافظة على كل فرد من أفراد البشر، فوجود رب النوع الخاص الذي يعلم الطفل أول صرخة، وآخر يعلمه شرب الماء، وآخر يعلمه الخروج من البيت وآخر يعلمه كيف يرجع وهناك إله خاص لحرارة الأرض وإله آخر خاص بالزراعة وآخر لهدر البذور وأعداد كبيرة من الآلهة، ولا عجب في أن يكون للروم (٣٠) ألف إله حتى أن أحد شخصياتهم مازح بقوله: إن آلهة بلادنا في الشوارع والمجتمعات هي أكثر من أفراد شعبنا»<sup>١</sup>.

### (ب) آلهة اليونان

ويكتب ذلك المؤرخ أيضاً: (لقد اعتقد المجتمع اليوناني - كالكثر من الأمم - بالوهمية الظواهر الطبيعية كلها نظير الشمس ونرعدها ونمحيطات والأعاصير والأنهار والعيون

١ تاريخ الأبرمالة، تاريخ الروم، ج ١، ص ٢٩ و ٣٠، (علامة التعجب م)

والرياح والأمطار، وقام بعبادتها واعتقد أن هذه الآثار تنشأ من وجود حقي، واعتقد أنها منشأ الخير والشرّ ومن هنا قام بعبادتها كي يحصل على كرمها أو يدفع الشرّ بها  
ثمّ يذكر إنه اليونان المعروف وهو (زيوس) ابن (كرونوس) وهو المتصوّر لديهم على شكل إنسان، له الهيمنة التامة والجبروت وذو حبة عريضة وشعر كثيف ولحية كثة طويلة على شكل حلقات

كان زيوس ربّ الأرباب وإله البشر في اليونان ويحيطه عدد كبير من الآلهة وأرباب الأنواع، وكانت زوجة زيوس (هيرا) تعيش في السماء  
ويعتقدون أن لزيوس أبناء ثلاثة هم (هرمس) و(آرتميس) و(آبولون) وهم على التوالي مطاهر المطر وربّ النور للقمر والشمس  
كما اعتقدوا بالآلهة عديدة أخرى بطير آلهة، نهر وآلهة الأرض وآلهة حواف الأرض وآلهة العمل<sup>١</sup>.

### ج) آلهة مصر

أغلب المصريين القدماء اعتقدوا بديانة تؤمن بتعدد الآلهة، واعتقدوا أن إلهاً واحداً هو أعلى من الآخرين عرف به (إله الآلهة).  
في مصر القديمة كان للناس في كلّ منطقة آلهة ومعبود خاصّ تجاوزت الـ ٢٠٠٠ معبوداً تسعة منهم يحفظون بذكر أكبر، أحدهم إله الشمس، ثمّ إله الهواء، وإله الفضاء والفراغ، وإله الأرض وهكذا هناك إله الصحراء والأرضي بحصه ولموات<sup>٢</sup>.  
يقول المؤرّح الشهير ويل ديورانت في (فئة الحضارة)  
«لم تكن في العالم منطقة تناظر مصر في تعدّد الآلهة، وكان المصري يعتقد أن الخلق ابتداءً من السماء، وكانت سماء نهر النيل أعظم ربّ الأنواع.

١. تاريخ آلبرماله، تاريخ أمم الشرق، ج ٢، من ص ١٧١ إلى ص ١٧٩ (باختصار).

٢. الإسلام والعقائد والآراء البشرية، ص ٤٦.

وقد اعتقد المصريون بأن كواكب السماء ليست أجساماً فحسب بل إنها تعكس الصورة الخارجية لأرواح الآلهة الكبيرة مثل آلهة السماء و لحيوان والسيات، وقد بلغت حداً أصبحت فيه المعابد المصرية معارض للحيوانات المختلفة<sup>١</sup>

#### د) آلهة إيران

يعتقد الإيرانيون قديماً بالثنوية ثم تعدد لآلهة وشاع بينهم بصورة تدريجية عبادة (مشتاسندان) أو الآلهة الستة، آلهة الحيوانات الأليفة والبيضاء، إله النار، إله المعادن، إله الأرض، وإله المياه والحيوانات وإله الثوابت والسيارات السماوية<sup>٢</sup>

#### هـ) آلهة الصين

يعتقد الصينيون القدماء أيضاً بأن العالم يحكمه أصلان أحدهما (الذكر) أو (الموجب) أو (النور) والآخر (الأنثى) أو (السالم) أو (الظلام) وثمة التفكير بالثنوية (شانتكتي) وهو فعل مظهر لأصل الذكورة وكان يدعى إله لأفلاك، وعتقدوا أنه هو الذي يجازي الإنسان على أعماله الصالحة والسيئة في هذه الدنيا وينزل البلاء الشديد عند العصيان العام وكانت (هانتن) إلهاً مؤنثاً ويشي عليه، ثم ظهرت آلهة أخرى تدريجاً وبذلك التثوية إلى تعدد الآلهة: إله الحصوية، إله المطر، إله الرياح، إله الشج، إله النار، إله الجبل و...<sup>٣</sup>

#### و) مشركو العرب

يؤكد بعض المؤرخين والمفسرين بأن العرب كانوا يعتقدون بأن الخالق والرزاق والرب والمدير للعالم إله واحد ويستشهدون بآيات قرآنية تتحدث عن إقرارهم في قصبة خالقية الله ورازقته، وعليه فإن عبادة الأصنام بينهم لم تنشأ من الاعتقاد بتعدد الآلهة، بل من

١. تاريخ الحضارة، ويل دورانت، ج ١، ص ٢٩٨ و ٣٠٠ (باختصار).

٢. الإسلام والعقائد والآراء البشرية، ص ٢٤ (باختصار).

٣. المصدر السابق، ص ١٥٧.

اعتبارهم الأصنام ذات مقام ومكانة عند الله يرجون منها الشفاعة والقرب من الله، حتى اعتقد البعض منهم أن إلى جانب كل صنم شيطان موكل به من قبل الله، وكل من يعبد الصنم حق عبادته فإن ذلك الشيطان يبادر بقضاء حوائجه بأمر من الله<sup>١</sup>

ولا يمكن إنكار أن طائفة من العرب كانت ترحح عبادة السحوم، وتعتقد أن كواكب خاصة حين العروب والشروق تعوم بإزال مطر وقد عبروا عنها بـ(الأنواء) وهو جمع نوء ويعني النجم الذي يميل إلى العروب، وقد اعتقدوا بارتباط الحركة والسكون والسفر والإقامة بهذه السحوم (واعتقدوا بتأثيرها على مصائرهم) وقد شيدوا معابد كبيرة للشمس والقمر والرهرة وسائر الكواكب<sup>٢</sup>

وفي اليمن كان من بين القبائل العربية من يعبد الكواكب السماوية، فكانت طائفة منها تعبد الشمس وقد أشار القرآن الكريم إليها في قصة ملكة سبأ، وطائفة أخرى عبدت القمر، وأخرى عبدت نجمة الشعراء، كما عبدت قبائل أخرى نجومًا أخرى<sup>٣</sup>

### (ز) آلهة بلدان أخرى

في بلدان أخرى مثل الهند واليابان وغيرها ساد الاعتقاد بأرباب الأنواع والآلهة المتعددة، كما اعتقد الصابئة (عباد السحوم) بأن السبورات السبع هي التي تحرس الأقاليم السبعة وتحافظ عليها (حيث قسموا لأرض قديماً إلى سبعة أقسام أطلق على كل قسم منها إقليم)<sup>٤</sup> واعتقدوا أنها مبدأ الحيرات ودافعة للأضرار عن أهل الأرض.

والإعتقاد بـ(توتوم) الذي ساد في مناطق شاسعة من العالم كان مشابهاً للاعتقاد برب الأنواع أيضاً، حيث كان لكل قبيلة (توتوم) بحث به لأب وروح القبيلة واعتقد بأنه على صورة الحيوانات أو ما شاكله

١ بلوغ الأرب ج ٢، ص ١٩٧

٢ المصدر السابق، ص ٢٢٢

٣ الإسلام والجاهلية، ص ٢٩٥

٤ يمكن مراجعة معجم البلدان، ج ١، ص ٢٧ لمعرفة لتفصيلية بالأقاليم السبعة وحدودها

## (ح) الاعتقاد بالمثل الأفلاطونية

يفترض أفلاطون لكل نوع من أنواع عانه لطبيعة فرداً مجرداً عقلياً، واعتقد أنه قائم بالذات وبما أن هذه الأفراد المجردة عتبرت أمثالاً ومظاهر لأسماء وصفات الله وشبيهة للأنواع الطبيعية فقد أطلق عليها عنوان (مثال) وجمعه مثل على وزن رُسُل.

يعتقد أفلاطون أن ما له الحقيقة هو المثال وهو المطلق الذي لا يتغير ومجرد من الزمان والمكان وأبدي وكلّي، وأما هذه الأقسام الحسماينة والمادية التي تشاهدها متعددة وذات زمان ومكان وهابية فإنها إبعكاس لتلك، وعبيه تكون نسبة الإنسان الحسمايني لمثاله هو نسبة الظل إلى دي الظل.

ولأفراد الإنسان قسط من الحقيقة ما يناسب قربها من المثال، ومن هنا اعتبر أفلاطون العالم المحسوس محاراً وعالم العقول حقيقة<sup>١</sup>

إن الاعتقاد بالمثل اليونانية وإن تعبير مع الاعتقاد بأرباب الأنواع لكنه لا يخلو من تشابه من عدة جهات ويعبر شكلاً فلسفياً من أرباب الأنواع اليونانية

كما أن الاعتقاد بالعقول الفلكية المجردة له تشابه مع أرباب الأنواع من جهة وإيضاحه أن جماعة من الفلاسفة اعتقدوا بأن الله - بسبب بساطته من كل جهة - له مخلوق واحد لا أكثر، وهو مخلوق مجرد أصعوا عليه (العقل الأول) ثم اعتقدوا بأن العقل الأول لتركيبه من وجود وماهية فهو الحال لبعض الثاني والملك الأول، وبهذا الترتيب اعتقدوا بخلق عشرة عقول وتسعة أملاك!

وقد اعتقد البعض منهم أن عدد العقول لا حصر لها، كما اعتقدوا بالعقول العرسية) إلى جانب العقول الطولية (العقول العشرة التي يكون أحدها معلوماً للآخر)، واعتبروها وسائط لفيض الصور النوعية والمرتبة العليا بالموجودات الجسمية (مثل أرباب الأنواع والمثل الأفلاطونية)، ولكل مفردة من هذه المسائل بحوث مطولة تنصرف عنها لأنها خارجة عن موضوع بحثنا.

١ كليات الفلسفة الإسلامية وسير الحكمة في أوروبا وكتب أخرى.

المهم هنا هو أن نعلم بأن القرآن الكريم وحه هذه الأفكار كلها وفي هذا الوسط الواسع من الأفكار العجيبة والغريبة والملوثة بالشرك وأمام هذه العقائد والمذاهب الفلسفية المختلفة التي تُشتملها رايحه الشرك قام بعرض توحيد خالص في مسألة الحاقية وتدير العالم وربوبيته وهو بحق من معجرات القرآن نكريم

لقد أبطل القرآن هذه الآلهة الوهمية وربّ لأنواع الحيالية وعرف (الله عز وجل) كرب للعالمين فقط، واعتبر كل شيء وكنّ إنسان مخلوقاً له وتحت تربيته ونديره، وقام بإفاضة الصفاء على قلوب البشر وأرواحهم بنور الوحدة ووحيه أنظار البشر المشتتة إلى ذلك الواحد الأبدى.

أجل، إن دراسة تلك العقائد المنوبة باشرِك ومطالعتها تصصح عن قيمة التوحيد الإسلامي في مظار أتياع الحق

والطريف أن الإسلام قد اهتم من أجوده لا يتممكم فيها سوى الجهل، وكسان الشرك يفرص قوته على عقول الناس، ولم يكن العالم الخارج عن حدود الجريرة العربية متعلقاً عنها، فقد أشرنا سالهاً إلى أن العلاسفة والمفكرين كانوا متورطين بلون من الأفكار المشوبة بالشرك.

ويدل ذلك على أن طريق التوحيد الأصح ليس أمراً يسمح للإنسان أن يسير فيه بنفسه، بل لابد من يد عبيبه تصد إليه عن طريق نوحى، ومن أنبياء يقودونه من وادي الظلمات ويوصلونه إلى معين التوحيد الخالص.



### ٣- للتفويض لون من الشرك

بالرغم من أن للتفويض معاني مختلفة يبلغ سبعة عند بعض، ووجود بحوث واسعة مرتبطة به، إلا أن من اللارم التذكير بأن جمعاً من المسلمين القائلين بالتفويض قد ظهروا وهم يحملون عقيدة بأن الله تعالى حوى السبي ﷺ والأنمة المعصومين ﷺ ثم أوكل إليهم

أمر الخلق والرق والموت والحياة لسائر الموجودات في العالم.  
وأفصل ما قيل عن هذه العقيدة هو ما ذكره العلامة المحلّي رحمته في مرآة العقول. «ثم اعلم أنّ التعويض يطلق على معاني بعضها مسمي عنهم عليه السلام وبعضها مثبت لهم، فالأول: إنّ التعويض في الخلق والرق والتربية والإماتة والإحياء، فإنّ قوماً قالوا: إنّ الله خلقهم وهوّض إليهم أمر الخلق فهم يخلقون ويررقون ويحيون ويميتون وهذا يحتمل وجهين أحدهما: أن يقال إنّهم يفعلون جميع ذلك بقدرة الله وإرادتهم وهم الفاعلون لها حقيقة وهذا كفر صريح، دلّ على استحالة الأدّة العقلية والسلبية ولا يستريب عقل في كفر من قال به وثانيهما: إنّ الله تعالى يفعلها مقارناً لإرادتهم كشقّ القمر وإحياء الموتي وقلب العصا حية وغير ذلك من المعجرات، فإنّها جميعها بما تقع بقدرة سبحانه مقارناً لإرادتهم لظهور صدقهم فلا يأتى العقل من أن يكون الله تعالى خلقهم وأكلهم وأنهمهم ما يصلح في نظام العالم ثم خلق كلّ شيء مقارناً لإرادتهم ومشيئتهم، وهذا وإن كان العقل لا يعارضه بساتاً لكن الأحبار الكثيرة ممّا أوردناها في كتاب (بحار الأنوار) يجمع من القول به فيما عدا المعجزات ظاهرة بل صريحاً»<sup>١</sup>

وعليه فإنّ الاحتمال الثاني غير محال عقلاً، إلّا أنّ لأدّة العقلية لا تر تصيد، وقد كثرت الأمور التي ليست محالة عقلاً ولكن اشترع يرفضها، فمن الممكن - مثلاً - أن يكون عدد الأنبياء أو الأئمة أكثر من المعروف إلّا أنّ الأدّة العقلية قد حدّدت أعدادهم بما نعلمه. وهناك احتمال ثالث وهو أنّ الله عزّ وجلّ يوهب انبياء أو إمام قدرة يستطيع بها إحياء الميت أو إبراء المريض من مرضه المستعصي بدنه والظاهر من الآيات القرآنية حول السيّد المسيح هو ما ذكرنا، وهذا كلّ ممكن أيضاً بالنسبة للمعصومين، ولكن كما وردت في العبارات المذكورة تكون هذه المسألة في إطار المعجرات والكرامات فقط، لا في مورد خلق السماء والأرض وتدبير أمور الكائنات، لأنّ القرآن الكريم قد صرّح في حصر أمر الخلق والتدبير والربوبية في الله عزّ وجلّ، والآيات التي ذكرناها في هذا الفصل حول

١ مرآة العقول، ج ٣، ص ١٤٣ (باختصار).



التوحيد والربوبية شاهدة على هذا المعنى

وبما أن الإنسان الكامل هو الغاية الأساسية من خلقه وبما أن المعصومين هم أفضل البشر، يمكن القول أن عالم الوجود قد خلق من أجلهم. ويتعبر آخرون أنهم بحثاية العلة الغائية لعالم الوجود



#### ٤- هل أن الملائكة تدبر الأمور؟

يقسم القرآن الكريم في سورة البارات الآية ٥ - (المدبرات أمراً)، والمشهور بين المفسرين هو أن الملائكة هي التي تدبر أمور عالم. فهل هذا يتنافى مع توحيد الربوبية؟ الإجابة عن هذا السؤال واضحة، فلو كانت الملائكة لها الاستقلال في التأثير لم يكن ذلك متسهماً مع توحيد الربوبية ولكن يعلم أنها مهيأة للأمر الإلهي وقد أوكلت إليها الأمور بإرادته ومشيتته نظير الأسباب في عالم الطبيعة التي لها تأثيراتها بأمر الله وقد لاحظ الكثير من المفسرين هذه النقطة في هذه الآية ولم يجدوا ساقصاً بين القول بأن الله (رب العالمين) و(رب كل شيء) وبين تأثيرات عالم الأسباب أو تدبير الملائكة بإذن الله. فكما ينص القرآن الكريم على أن الرارق بجميع الموجودات هي الذات المقدسة لله عز وجل. ﴿وَمَا مِنْ ذَاتَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ فَوْزٍ بِرِزْقِهَا﴾ (هود / ٦٦) في حين يقول في موضع آخر ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة / ٢٣٣)

ومن المسلم به أن إطلاق الرارق على واحد لمولود لا يتنافى مع إطلاقه على الله سبحانه. فهذا مستقل بالذات وذلك بالعرض والبيع.

عندما نقول إن في العسل شفاء ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾. (النحل / ٦٩)

فإن ذلك لا يتنافى مع أن الشافي هو الله فقط، كما يقول رمز النوحيد، إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذَا

مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾. (الشعراء / ٨٠)

هذه كلها تبيّن سلسلة العلّة والمعلول، أي تبدأ بأعلّة غير المستندة حتّى تصل إلى علّة العلل ومسبّب الأسباب، أي الذات المقدّسة لله تبارك وتعالى حيث يكون كلّ سبب مديماً له في تأثيره.



### ٥- «توحيد الربوبية» في الأحاديث الإسلامية

لقد انعكس هذا المضمون بصورة واسعة في الروايات والأدعية المأثورة عن المعصومين. ومنها الأدعية المختلفة التي وردت في الجزء الثاني من أصول الكافي، حيث تلاحظ هذه العبارات خلال الأدعية «اللهم ربّ السماوات السبع وربّ الأرضين السبع.. ربّ العرش العظيم.. ربّ المشعر الحرام وربّ البلد الحرام وربّ الحل والحرام... الحمد لله ربّ الصباح... ربّ الملائكة والروح... ربّ المستضعفين.. ربّ جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وربّ القرآن العظيم وربّ محمد خاتم النبيين»<sup>١</sup> كما وردت هذه التعابير في روايات أهل السنة<sup>٢</sup>.

وعليه فلا ربّ للسماء والأرض والملائكة والبيّن والأعنياء والمستضعفين والصباح والمساء والكعبة ومكة والعرش العظيم إلّا الله تقادر الواحد والتنسيق في شؤون الكون وتنفيذ الأنظمة بحاكمته عليه دليل واحد على وحدة المدبّر، ولذا نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله للزندقي الملحّد الذي سأله عن وحدانية الله عزّ وجلّ: «فلما رأينا الخلق منتظماً، والملك جارياً، واختلاف الليل والنهار والشمس والقمر، دلّ صفة الأمر والتدبير واتّلاف الأمر على أنّ المدبّر واحد»<sup>٣</sup>.



١ أصول الكافي، ج ٢، ص ٥٦٤-٥٨٥.

٢ للمزيد من الإيضاح راجع المعجم المعهرس لألفاظ الحديث النبوي، ج ٣، ص ٢٠٧.

٣ توحيد الصادق، ص ٢٤٤، باب ٣٦ (باب الردّ على التثوية والربادية).

## ج) توحيد المالكية (الحاكمية التكوينية)

### تمهيد:

من الأقسام المهمة الأخرى لـ (توحيد الأنفال) هو التوحيد في المالكية، ويعني أن المالك الحقيقي تكويناً وتشريعاً هو الذات الإلهية المقدسة، والمالكيات الأخرى محازية وغير مستقلة.

يصاح ذلك، أن المالكية على قسمين ملكية حقيقية (تكوينية) ومالكية حقومية (تشريعية).

المالك الحقيقي هو من له السلطة التكوينية، والعارضة على الأشياء، وأما المالكية الحقوقية والتشريعية فإنها تعود لمن تمضي عليها سلطة القانونية نظير ملكة الإنسان لأمواله

والقسمان من المالكية لله تعالى في الدرجة الأولى من منظار الموحّد لعالم الوجود، فهو تعالى المالك للسلطة الوجودية على جميع لأشياء في الكون، لأن الموجودات كلها منه وتستمدّ منه فيص الوجود أما بعد أن، والجميع تبع له، وبهذا تثبت ملكيته الحقيقية على كلّ شيء من كلّ جهة

وأما المالكية القانونية فإن كلّ شيء له لأنه الخالق والموجود لجميع الأشياء، بل حتّى ما يصنعه فإنه هو الذي أعطانا وسائل الإنتاج كلّها، وعليه فإن المالك الأول في الحقيقة هو الله، وإن مالكيّتنا ما هي إلّا وديعة لأيام معدودة.

وبهذا التمهيد راجع القرآن الكريم لتأمل خاشعين في الآيات التالية:

١- ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ

وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدُلُ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(آل عمران / ٢٦)

- ٢- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (بقرة / ١٠٧)
- ٣- ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تُصْرَقُونَ﴾ (زمر / ٦)
- ٤- ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (بقرة / ٢٤٧)
- ٥- ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطَابٍ﴾ (فاطر / ١٣)
- ٦- ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (سبا / ٢٢)

### شرح المفردات:

**(الملك)** بناء على ما ورد في المقاميس هو فاعل لأصل القوة على الشيء، ولذا ورد التحريك بمعنى القوة، ثم استعمل هذا التعبير في ما يصحبه الإنسان من أشياء وذلك لما له من قدرة وقوة عليها

ولذا يطلق على الماء الذي يحمله المسافر **(ملك)**، لأن المسافر الذي يصطحب الماء (خصوصاً في الصحارى العازة) يكون قوياً ومهيماً على عمله

**«ملك»**: هو السلطان لقدرته في بلاده.

**«ملكوت»**: يعني العزة والسلطنة.

**«إملاك»**: في العربية يعني الترويح، لا اعتبارهم الزوجه ملكاً لهم

وأخيراً **(مملكة)** هي الحكومة وعرة لسلطنة، ومن ثم أطلق على الوطن.

١ وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة أخرى حول هذا الموضوع متبعة مع الآيات أعلاه مثل المائدة: ١٧-١٨-

٤٠-١٢٠، الأعراف: ١٥٨، التوبة: ١١٦، الإسراء: ١١١، النور: ٤٢، الفرقان: ٢، ص: ١، الزمر: ٤٤، الشورى: ٤٩،

الزحرف: ٨٥ وغيرها

## جمع الآيات وتفسيرها

لأنه جالسه الملك:

قال المفسرون: إن الآية الأولى برزت بعد فتح مكة، أو حينما كان النبي الكريم ﷺ مشغولاً بحفر الخندق قبيل معركة الأحزاب حيث بشر المسلمين بفتح بلاد فارس والروم وقد اعتبر المنافقون ذلك تخیلات وتكهنات وتشبهاً بالمحالات<sup>١</sup>.

وهي هذه الأثناء برزت الآية المذكورة ونسب الجهلاء بأن الله مالك كل البلدان حيث قالت: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ» وليس الحكومات فقط وليس العزة والدلالة بل: «بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»<sup>٢</sup>.

وقدرة الله عز وجل على كل شيء هي في الحقيقة - دليل حاكميته على الأرض والسماء.

ومن الواضح أن لمالكية الله بعداً عاماً وحقيقياً، شيء حين ما جاء في المورد الآخر في جمعه «تؤتي الملك من تشاء» يكون له بعد حقيقي ومجازي

ولا دليل على تحديد مفهوم الآية بفتوحات الرسول الأكرم ﷺ أو عزة المؤمنين ودلالة اليهود وما شاكل - كما يعتقد بعض المفسرين - بأن الآية مفهومها واسعاً يشمل كل الحكومات وكل عزة ودلالة، وما قالوه فهو من مصاديقها الواضحة، والجملة الأخيرة: «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» هي في الواقع بمثابة لدس على هذه المالكية الإلهية العامة والمطلقة. وواضح أن المشيئة والإرادة الإلهية التي ستند إليها في هذه الآيات لا تعني أن الله يعز أو يذل أو يعطي الحكومة ويسلبها بدون حساب، بل إنه وضع في عالم الأسباب مجموعة من عوامل النصر والهزيمة وهي مظاهر مشيئته وكرامته.

١ تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٢٧؛ وتفسير الكبير، ج ٨، ص ٤

٢. قال بعض اللغويين العبر واللاتين لهما مادة واحدة. والعبارة غير لأن كل بسن يختارها (المتحقق).  
المعجمات، تفسير الميزان في ذيل آية البحث

فحينما يوفق المسلمون يوماً لفتح الأندلس وهي بوابة أوروبا أو يخرجون من تلك الديار المعمورة يوماً آخر فإن ذلك حديث وهو تلك الأسباب التي هي مظاهر لمشيئته الإلهية. وعندما يتسلط أمثال يريد وجنكيز خان على الناس فلعلة نبيحة لأعمال الناس أنفسهم حيث إنهم يستحقون مثل هذه الحكومات فقد ورد «كيفما تكونوا يركب عليكم» من هنا يتضح الجواب على الأسئلة التي تطرح حول آية البحث وليست بحاجة إلى توضيح أكثر.



الآية الثانية تنظر إلى الإشكالات الواهية لني أثبتت من قبل اليهود حول تعبير القبلة بقولهم: هل بإمكان الله أن ينسخ حكماً ويحلّ حكماً آخر محلّه؟ أن يرفع حكم القبلة من بيت المقدس ويجعله للكمية؟ فتقول ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وعليه هل يكون عجيباً أن يقوم مثل هذا الحاكم الأعظم بفسخ حكم؟ إنه ليس مطلقاً على مصالح العباد فحسب بل له الحاكمية أبصاً وهو مالك التدبير والتصرف المطلق في الكون وفي عباده.

ولذا تصيف الآية في ديلها ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ إنه يعيكم في صوء علمه بالمصالح والمفاسد وفي ظلّ حاكميته بسنّ القوانين، ثم أن الله تعالى ليس له مكان لكي تتوجهوا إليه في الصلاة، وعليه فإن قيمة المكان المتخذ كقبلة - مع أن الكون بأسره ملك له - ناشئة من أمره بذلك.

وقد ورد وصف الله تعالى بأنه (ولي) و(نصير) في القرآن بكثرة، ويمكن أن يكون الاختلاف بينهما من جهتين الأولى أن (ولي) يعني حافظ المصالح و(نصير) هو الذي يبصر الإنسان على عدوه، والأخرى أن (ولي) هو الذي يؤدي عملاً لشخص تحت ولايته، ولكن (نصير) هو الذي يعين الإنسان ليتعلّب على مشكته.

الآية الثالثة ومن خلال الإشارة إلى خلق الإنسان والحيوانات والتطوّرات العجيبة

تقول: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾، فهو الحق وهو سرتي ولدا فهو المالك والحاكم، ثم تجعل الآية هذه القصيدة مقدّمة لإثبات توحيد العبادة وتضيف: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِلُ تَضَرُّعُونَ﴾.

فيا أيّها انعافلون الجاهلون ويا أيّها الناهون في ودي الصلالة! كيف تحيدون مع وجود هذه الدلائل الواضحة عن الإعترااف بخالقكم لله وربوبيته وما نكتبته؟! هذا الجرم من الآية يثبت في الحقيقة (توحيد العبادة) استناداً إلى 'توحيد الحاكمية' لله تعالى وحاكميته بالاستناد إلى مسألة الخلق التي يدّعي حتى يشركون بأنّها محتصة بالله عز وجل

❦❦❦

الآية الرابعة تنظر إلى قصّة طالوت وحالوب، فقد كان حالوت حياراً ومجرماً وحاكماً على بني إسرائيل وقد آذاهم كثيراً (١) يطلب من بني إسرائيل منصيب (طالوت) الذي كان من القرويين الفقراء قائداً للحيش وحاكماً على بني إسرائيل.

أمّا الملاء من بني إسرائيل فقد اجتمعوا على هذا الانتخاب واعتبروا أنفسهم أرحح منه، وذلك لما لهم من ثروة وفحامة، إلا أن نبيهم قدّر لهم بصراحته: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾ وأصاف: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. (البقرة / ٢٤٧)

وعليه فانه لا يكون حاكماً تكويمياً على عالم الوجود فحسب، بل إنّ الحاكمية القانونية والتشريعية على المجتمع البشري هي لداته بقدسه ويمتعه لمن يشاء وإن كانت إرادته ومشئته قائمة على أساس الأهلية واللياقة.

❦❦❦

١. احتمل بعض المفسرين أنّه النبي شمعون أو يوشع وبكهما يدعون بعددين أمّا بالسبب ليوشع الذي كان وصياً لموسى عليه السلام فهو غير ممكن تقريباً

الآية الخامسة تبين هذه المساواة في إصدار جديد، بعد بيان حاكمية الله على الشمس والقمر ونظام النور والظلم مستنتج بهذا النحو بولها: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾.

في حين ليس للمعبودات من دونه حاكمية ولا مالكية حتى بحجم العشاء الرقيق الذي يغلف نوى التمر ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾

وقد ذكر المفسرون واللغويون معاني مختلفة لكلمة قطمير، أشهرها هو العشاء الرقيق الذي يفصل النوى عن التمر

وقد فسر البعض بأنه يعني التجوف الأبيض الصغير الذي يوجد على ظهر النوى وينمو منه بهات التمر، وفسره البعض بأنه رأس التمرة، وفسره بعض آخر بمعنى الشق الموجود على بطن النوى، أو بمعنى القطعة النعنة الموحدة في بطن النوى.

ترتبط هذه المعاني الخمسة بنوى التمر التي كانت في متناول العرب، وهناك تفسير آخر ذكر لهذه الكلمة وهو غشاء البصل، ولكن الأشهر - كما ذكرنا - هو المعنى الأول وعلى كل حال هو كناية عن الشيء الصغير والناقة الذي لا يؤمله له.

والآية هذه دليل واضح على أن المالكية والحاكمية لا تكون لأحد سوى الله عز وجل إلا أن تكون بمشيئته وهيبته.



وفي الآية السادسة والأخيرة جاء هذا المصموم في إطار جديد، حيث تحاطب النبي ﷺ ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هل بإمكانهم أن يحلوا عقدة من مشكلاتكم؟

ثم تقيم دليلاً على عجزهم في حل المشكلات وتصيف: ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾.

١. راجع تفاسير مجمع البيان، روح المعاني القرطبي، الميرزا الميرزا، ومفردات الراغب، لسان العرب، ومجمع البحرين.



وعليه فأنهم ليسوا مالكيين مستقلين ولا شركاء ولا معاونين، فأى عمل هم قادرون على إنجازه حتى تسجدوا لهم وتعبدوهم؟

بهذه الاستدلالات الواضحة ينفي القرآن نكريم كل شريك في المالكية والحاكمية في عالم الوجود الواسع بصورة مستقلة ومشركة ومعاصدة، وتعتبر ذلك كله محتصاً في الله، وينزهه الله عن كل شريك ومعين وباصر في عباده الوجود كله.

المستفاد من مجموع هذه الآيات الست وأبواب لقراءة المشاهدة لها هو أن المالك والحاكم على عالم الوجود بأسره لا يكون في سطر موحد الكامل إلا الله، ولا يملك أحد في أي موضع ومنصب حرراً أصغراً، وبهذا لا يبقى لمشركين أي مِرَر لعبادة الأصنام أو رب الأنواع أو الملائكة وغيرها.

### توضيحات

#### ١- الآثار التربوية للإيمان بتوحيد المالكية والحاكمية

الطغيان والعزور والتمرد والبخل والحبس بحالاته شأناً عابياً من عقيدة الإنسان بأنه المالك الحقيقي للأموال التي بحورته، ويرى نفسه حرّاً فيما إذا أسلم رمام الحكم في نطاق واسع أو ضيق، وهذه حالة مشوية بالشرك وهي مشأاً لألوان المعاصي والفساد الاجتماعي.

ولكن إذا ما نظر الإنسان إلى هذه معالم بمنظار توحيدى، واعتقد - كما هي الآيات - أن العالم ملك مطلق لله واعتبر نفسه - كما جاء في الآية ٧ من سورة الحديد: ﴿وَأَسْفِقُوا حَمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ - أميناً بين يدي الله، واستوعب هذا المعنى بوجوده كله، فكيف يمكن أن يقصر في أداء ما يريده صاحب الأمانة الأصلي أو يهمل أو يحسد؟ وكيف تكون هذه الأموال سبباً لعزوره وطغيانه، إن ما يملك من مال وتروة يس له أهل يعتز الموطف في أحد المصارف بالملايين التي تكون تحت تصرفه كل يوم؟

وهكذا بالنسبة للحكومات والمناصب التي يتولاها البعض، فأنهم ليسوا مستخلفين في

حرء صغير من عالم الوجود هذا، وعلى أساس هذا الفهم والرؤية، فلماذا الغرور والطغيان؟ ولماذا الظلم والفساد؟

إن هذه الرؤية التوحيدية لعالم تعطي للإنسانية صبغة أخرى، صبغة إلهية، صبغة السلام والصفاء والأمن ولون الإنفاق والإيثار.



## ٢ - استغلال مفهوم (ملكية الله)

لا شك - وكما تقدم - أن الله تعالى مالك لعالم الوجود بأسره - وبغض النظر عن الآيات القرآنية الكثيرة الواردة بهذا الخصوص فإن دليل العقلي شاهد على هذا الأمر، فاحصر صاحب الوجود في ذاته المقدسة واحتياح لموجودات كلها إلى الله سبحانه وتعالى يكفي لإثبات هذا المفهوم ولا يتنافى مع هذا المعنى من الملكية الحقوقية والقانونية لسي الإنسان في الإطار الذي يسمح به الله أبداً، وما يتشعب به البعض في قصة (ملكية الله) لنسب ابنه (الملكية الخاصة) فإنه استغلال ليس إلا، والمصحيح أن ذلك يُطرح تحت عنوان الفهم الإسلامي، ويعطى - في الحقيقة - للإشتراكية أو الشيوعية لوماً إسلامياً.

وبوضوح أكثر يقول إن القرآن الكريم الذي أكد على ملكية الله لعالم الوجود الواسع بأسره فيه آيات تتعلق بـ (الإرث والحمس وزكاة والتجارة) أيضاً ويصفي الشرعية على الأموال المشروعة التي يتصرف بها انقطاع الحق، فقد جاء التعبير بـ (أموالكم) في ١٤ آية قرآنية، والتعبير بـ (أموالهم) في ٣١ آية - وقد وردت الكثير من التعاليم الإلهية في العديد من الآيات تأمرهم في كيفية التصرف في أموالهم، ولو كان مفهوم الملكية الإلهية يعني ملكية الإنسان، فما هو إذن مفهوم الآيات التي وردت في هذه الـ ٤٥ آية إضافة إلى آيات كثيرة أخرى تتعلق بهذا الموضوع؟

فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ... وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾.

وفي موضع آخر ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ثَارًا ۖ ﴾.

وفي موضع ثالث يقول: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ... ﴾ (البقرة / ٢٦٢)

ويخاطب العرايين ﴿ وَإِنْ تُمْتُّمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ (البقرة / ٢٧٩)  
أو كما ورد في الآية الكريمة: ﴿ وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَفِئْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِهِ اللَّهُ حَسِيبًا ﴾ (النساء / ٦)

وقد وردت تعابير كثيرة تشير إلى هدايوسوع من المالكية. بالطبع، في الشريعة الإسلامية هناك أقسام أخرى من المالكية مثل «الملكية العامة» و«ملكية الحكومة» بالإضافة إلى «الملكية الخاصة»، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، ولكن لا يوجد لأي من هذه الملكيات علاقة سالككة الله سبحانه وتعالى. ويتعبر مختصر وهو أن توحيد الملكية لا يتعارض ولا يتنافى مع ملكية أفراد البشر أو طبقة من المجتمع، أو المجتمع لأي شيء، بشرط أن تكون هذه الملكية مشروعة.

ولهذا الأمر شروط وأسباب وردت في كتب الفقه الإسلامي بشكل مفصل وواضح



تجربہ سہ ماہی

## (د) توحيد الثقلين (الحاكمية التشريعية)

### تمهيد:

من المعلوم إنه ومن أجل تنظيم شؤون المجتمعات البشرية يحتاج إلى ثلاث سلطات، (السلطة التشريعية) التي تتكفل سنّ نصوص كفيلة بحفظ النظام في المجتمع والحيلولة دون صياح الحقوق، و(السلطة التنفيذية) التي تقدم صادقت عليه السلطة التشريعية وتتولاها عادة الحكومات المؤلفة من الوزراء والدوائر الحكومية

و(السلطة القضائية) المسؤولة عن معاقبة المخالفين عن القانون والمحرمين والمعتدين. في الرؤية التوحيدية الإسلامية يستند هذه السلطات الثلاث من تعاليم الدين المنمّدة الالهية ولا يكون فيها حكماً حائراً بل يأنه راجع إلى الذي شرع القوانين وهو الذي يحرر تشكيل الحكومات وتعيد القوانين. وهو الذي يسمح بشرعية العمل القضاء، وعليه فإن هذه السلطات الثلاث لا بد أن تستند شرعيتها من حصره القدس الإلهي طبق الشرائع والأوامر. وهذا المعنى له انعكاس واسع في الآيات القرآنية بصراحة إلى إمكانية الاستدلال عنه عتياً بهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم نسمع حاشعين في الآيات القرآنية.

- ١- ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. (المائدة / ٤٤)
- ٢- ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. (المائدة / ٤٥)
- ٣- ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. (المائدة / ٤٧)
- ٤- ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾. (المائدة / ٤٩)
- ٥- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾. (النساء / ٦٥)
- ٦- ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾. (الأنعام / ٥٧) (يوسف / ٦٥)

٧- ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخُسُودُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.  
(القصص / ٧٠)

٨- ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.  
(القصص / ٨٨)

٩- ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.  
(الشورى / ١٠)

١٠- ﴿أَلَمْ يَخِرَّ اللَّهُ أَنْبِيَا حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾.  
(الأنعام / ١١٤)

### شرح المفردات:

«حُكْمٌ»: على وزن (قُفْل) ويعني في الأصل -حكم يقول الكثير من كبار اللغويين - الجمع والصدق ومن ثم أطلق على (القضاء) و(الحكومة)، لأن القاضي والحاكم يمنعان الناس بأحكامهما الحارمة من مخالفتها أو ارتكاب الأعمال الممنوعة

«حَكْمَةٌ»: تعني الحديدة التي توضع في فم الحيوان أو أفعه كالحزام، ولدى سحبه يتألم الحيوان ويستسلم ويوجد هنا معنى لجمع نفسه أيضاً

وهي (لسان العرب) لـ (حكم) معانٍ محللة كالعلم والمهم والقضاء بالحق والعدل (حيث تصد هذه الأمور الإنسان عن السخايف) ويطبق (حكيم) على من كان ذا معرفة كافية تصدّه عن ارتكاب الأعمال السيئة

ومن اللازم التذكير بهذه النقطة وهي أن هذه الكلمة تستعمل في الموارد الثلاثة (التشريعية والقضائية والتنفيذية) حيث يطلق أحكام على الموارد الثلاثة، ولذا فإن البعض

١. هنالك آيات قرآنية كثيرة وردت بهذا المصنوع أيضاً مثل السائدة، ٤٨، و ٥: الكهف، ٢٦، الأعراف، ٨٧،

يوسف، ١٠٩، هود، ٤٥، يوسف، ٨٠، الشين، ٨، النساء، ٦٠

٢. المفردات؛ مقاييس اللغة؛ ومصباح السير للفيومي.

من كتب اللفظة تذكر أنَّ أحد معاني (حكم) هو تفويض لأمر والفعل لشخص ما. ورد في كتاب (العين) أنَّ لفظ (حكمة) يرجع إلى مفهوم العدل والعلم والحلم، ويقول صاحب الكتاب: إنَّ هذه الكلمة فُشرت بمعنى (المع) أو (المشع من الفساد)، وهذا ينسجم مع ما نقلناه عن اللغويين، والآيات المحكمات، طُبّق عليها هذا اللفظ لأنَّ صراحتها ووضوحها يمنع من أي تفسير أو تأويل خاطيء.

### جمع تلايات وتفسيرها

من لم يحكم بما أنزل الله:

في الآيات الأربعة الأولى (الآية ٤٤، ٤٥، ٤٧، و ٤٩ من سورة المائدة) عرّض لمسألة توحيد الحاكمية بأوضح وجوه.

تقول الآية الأولى والثانية والثالثة ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ... هُمُ الظَّالِمُونَ... هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

وللمفسرين أقوال في هذه العبارات هل أنَّها تتضمن معاهم مختلفة أو أنَّها تشير إلى مفهوم واحد؟

فبعض يعتقد أنَّها تنظر إلى جماعة واحدة، وأنَّها صفات متعدّدة لموصوف واحد ويمكن تفسيرها بهذا الترتيب: من يحكم بخلاف ما أنزل الله فإنه يخالف الله وينهض بوجه الله فهو كافر من هذه الجهة.

ومن جهة ثانية أنَّه يوجّه صريه لحقوق الإنسانى فهو ظالم ومن جهة ثالثة أنَّه يعرج من نطاق واجباته فهو فاسق (لاحظ أنَّ الفسق يعنى الخروج عن واجبات اليهودية).

وقال بعض آخر إنَّ الآية الأولى والثانية - وبضمنة ما قبلها - تقصدان اليهود، في حين تتحدّث الآية الثالثة عن النصارى، وبما أنَّ عداء اليهود للأحكام الإلهية أشدَّ من النصارى فقد حكم عليهم بالكفر والظلم بسما حكم على النصارى بالفسق.

ولكنّا نعلم أنّ نزول الآيات في موارد خاصة لا يحدّد معانيها الكلية بتلك الموارد، وعليه فإنّ الآيات هذه تشمل جميع بدين يحكمون بغير ما أنزل الله إنّ صدق الظلم والفسق فهم يرتكب هذه بمعصية واضح ولكن الحكم بالكفر يكون في حالة الردّ لحكم الله والإعتقاد بطلانه، لأنّ ذلك أمّا إعتقاد يلازمه إنكار الذات المقدّسة أو علمه وحكمته وعدله، وهذا يستوجب الكفر قطعاً، وهكذا إذا رجع إنكار هذا الحكم إلى إنكار القرآن أو رسالة نبي الإسلام ﷺ ولكنه إذا حكم بغير ما أنزل الله فقط وكان ممشأ فيه هوى النفس مثلاً لا إنكار التوحيد أو النبوة فإنّه لا يستوجب الكفر.

وقد ورد في قوله تعالى ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾. (المائدة / ٤٨)

وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة / ٤٩)

وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

(المائدة / ٥٠)

إنّ الآيات الستّ هذه تؤكد على هذا المعنى وهو (الحكم حكم الله فقط).

إنّ هذه التعبيرات المختلفة وهذا التأكيد المتأبّي الذي ورد في هذه الآيات الستّ في سورة واحدة وبصورة متقاربة لدليل على هذه الحقيقة وهي أنّه لا يحقّ التشريع لأيّ مقام إلّا الله، وكلّ من يفتي أو يقضي أو يحكم على خلاف حكم الله فإنّه يقترب إنعاً عظيماً وطعاً وينزع عنه ثوب الإيمان أيضاً

بهذه يثبت توحيد الحاكمية التشريعية وحصر التشريع في ذات الله المقدّسة وحصر الحكم في حكم الله.



الآية الخامسة تتحدّث عن مقام القضاء وتعتبره من محتضات رسول الله ﷺ (الذين ينصبون من قبله أثمة بالمعنى المطلق أو في خصوص القضاء) ويقول: ﴿فَلَا وَزَيْتِكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.



وعليه تكون علامات الإيمان الحقيقي ثلاث الإحكام إلى النبي الأكرم ﷺ في كل اختلاف وعدم الشعور بالأذى من حكمه وتنفيذه بالكامل في الخارج، وبهذا فإن الآية تعتبر فرعاً آخر من الحاكمية، أي الحاكمية في القضاء معصرة في الله عز وجل (لأن النبي ﷺ ممثل عن الله).



### الحكم لله فقط:

الآية السادسة تقول بتعبير قصير: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

لقد تكررت هذه الجملة في القرآن الكريم مراراً وبها مفهوم واسع حيث تتضمن الحكم بمعنى التشريع والحكومة والقضاء والحكم التكويني والأحكام الشرعية، غير أن هذا التعبير في سورة الأنعام الآية ٥٧ وسورة يوسف الآية ٦٧ جاء في مورد الحكم الإلهي بالعذاب على الكافرين ومعاقبتهم.

على كل حال فإن الاختلاف في موارد التعبير هذه دليل واضح على أن مفهوم الآية واسع كما قلنا، ويعتبر كل حكم وأمر مخفّض في الله، في عالم التكوين وعالم التشريع



الآية السابعة وبعد أن وصفت الله عز وجل باستحقاق العبودية والحمد والثناء في الدنيا والآخرة تقول: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

وعبارة (وله الحكم) في الحقيقة دليل على انحصار الأهلية للعبادة والحمد والثناء فيه عز وجل، لأن (المعبود) و(المحمود) هو من كان حكمه نافذاً في كل شيء وفي الجميع، ومن قال بعض المفسرين أمثال ابن عباس، إن نمراد من (حكم) هنا هو القضاء بين العباد يوم

القيامة<sup>١</sup> وليس بأيدينا أي دليل على تحديد معنى الآية وفلما مراراً: إن خصوصية المورد لا تمنع عمومية مفهوم الآية.

وعليه فإن الآية أعلاه تشمل توحيد حاكمية الله في عالم التكوين وهي عالم التشريع والتقنين والحكومة والقضاء (هي تفسير الميزان إشارة إلى عمومية مفهوم الآية)<sup>٢</sup> وينبغي ملاحظة أن عبارة (له الحكم) تدل على العصر من جهتين إحداهما من جهة أن (له) مقدم، والأخرى من جهة أن كلمة (الحكم) جاءت مطلقة أي أنها تشمل أنواع الحاكمية كلها

والجدير ذكره أن انحصار المالكية في الله لا يسع من أن يصعها الله في اختيار الأنبياء والأئمة المعصومين وعباده الصالحين، فالبحث يدور حول المبدأ الأصلي للحاكمية، كما أن اختصاص الحمد والثناء في ذاته المقدسة لا يمنع من أن يشي الإنسان على العباد الصالحين أو الوالدين أو المعلم، فهم يمثلون الوسيلة في المنفعة لا بد من ملاحظة أن هذه الأمور كلها من الله وهذا هو معنى توحيد الحاكمية

﴿...﴾

الآية الثامنة تتحدث أولاً عن توحيد العبادة ثم توحيد الحاكمية حيث تقول: «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» ثم تقول بما يتنصص الدليل على هذا الحكم «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» وتصيف أحياناً: «لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

هذه الآية تخصص العبادة في الله وهكذا البقاء والحكم والقضاء وإن اعتبر البعض الحكم فيها بمعنى الحكم التكويني وإرادة الله الباقية في كل شيء، واعتبرها البعض الآخر بمعنى القضاء يوم القيامة.

وقال البعض، إن الحكم هنا له جانب تشريعي فقط، غير أن الإطلاق هو الظاهر من الآية

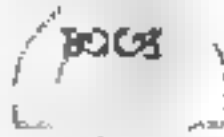
١. تفسير روح المعاني، ج ٢٠، ص ٩٢

٢. تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٧٠.

ويشمل كل حكم في عالم الوجود وعالم الشريعة وأنديا والآخرة  
أما المراد من ((الوجه)) في العبارة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ قَالِكُ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فإن البعض فسره بمعنى  
الأعمال الصالحة التي تنجره تعالى، فيما فسره البعض الآخر بمعنى الدين والقبول،  
والبعض الآخر بمعنى مقام الرب.

ولكننا نعلم أن ((وجه)) يعني في الأصل ((الصورة)) وكما يقول الرابع أن الوجه هو أول ما  
يواجه الأشخاص الآخرين وهو أشرف الأعماء في لسان، ولذا أطلقت هذه الكلمة على  
الموجودات الشريفة، وبهذه المناسبة يطلق على ذات الله المقدسة وقد استعملت بهذا  
المعنى في الآية طاهراً

وبما أن كل موجود يرتبط بهذه لدات البقية والأبدية، فإنه يتلون بلون الأبدية فإن دين  
الله وشريعته والأعمال المسخرة من أجله ولأسياء تكون حادثة وباقية لارتباطها بالله تعالى،  
وبهذا نجمع التفسير المذكورة في مضمون الآية



#### عند الاختلاف لرجعوا إلى الله:

الآية التاسعة ترى ((الحاكمية)) بمعنى القضاء حيث تقول ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ  
فَعُكُّهُ إِلَى اللَّهِ﴾

أجل، إنه وحده القادر على رفع الاختلاف فيما بينهم لأنه عالم بكل شيء وله الولاية  
على الجميع

وتضيف الآية: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

وهناك أقوال عديدة في تفسير هذه الآية، فالبعض اعتبرها ساطرة إلى الاختلافات  
والخصومات بين الناس الذين وجب عليهم لإحتكام إلى السيِّد ﷺ، فيما اعتبرها البعض  
الآخر إشارة إلى الاختلاف في تأويل الآيات وتفسيرها، في حين اعتبرها آخرون ناظرة  
إلى الاختلاف في العلوم المرتبطة باسمائهم لدينه ولتكاليف وواجبات الناس مثل معرفة  
الروح وأمثالها<sup>١</sup>

١ نقتت هذه التفسير الثلاثة عن المفسرين في تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ١٥

ولكننا لا نرى دليلاً لتحديد مفهوم الآية، بل كما قال بعض المحققين، إن الآية تشمل كل قضاء سواء كان في الأحكام أو في المعاهيم بدييه أو في معنى الآيات المتشابهة أو غيرها. إن الآية هذه من الآيات التي ثبتت هذه حقيقة بوضوح وهي أن كل المسائل التي يحتاجها الناس قد وردت في الكتاب والسنة، ويكون كل قياس وتشريع وأمثاله باطلاً، فلو لا وجود هذه الأحكام كلها في الكتاب وسنة فلا معنى لإرجاع جميع الاختلافات إلى الله فيها (تأمل جيداً).

والملاحظ أن الصخر الراري وبعض المعشرين قد قرؤوا بهذه الحقيقة واعتبروا هذه الآلة من حملة الأدلة المبطله للمعاس في الأحكام عقبيه<sup>١</sup>

فالآية تقول: يجب إرجاع الحكم في جميع الاختلافات إلى الله، وبالطبع فإن النبي ﷺ هو خليفة الله المصطفى من بين الناس، فلو لم يتصمّن كتاب والسنة طرق حل للاختلافات في الأحكام والعقائد وما يتعلق بالشرع لكان إرجاع الاختلافات إلى الله عز وجل لا معنى له.



الآية العاشرة والأخيرة تقول كاسساح عدم عن لسان النبي ﷺ: «أَفَغَيْرَ اللَّهِ أُهْتَفَى حَكماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً» وعليه فإن (الحكم والحاكم والقاضي) هو ذاته الممدّسة فقط لأنه عالم بكل شيء، والقرآن فصل دليل على علمه<sup>٢</sup> وأما السؤال عن أن الحكمية في أي شيء تكون؟ فإن القرآن تشير إلى أن المقصود هو

١ تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ١٤٩

٢ «حكم»: كما يعتقد المرحوم الطبرسي في مجمع البحار و شيخ الصوسي في (التيار) يطلق على من لا يحكم إلا بالحق في حين أن (الحاكم) يمكن أن يحكم بغير الحق. ولكن لم يتوضح من أين استفيد هذا المعنى إلا أن القدر المسلم به هو أنه صفة مشبهة وتدل على الدوام ولا يمتد ويطلق على من يحكم باستمرار، والصفة المعروفة عن (الحكمين) في حرب صفين شاهد على هذا المعنى، غير أن هذه الكلمة أو كلمة (حاكم) إذا استصلت في الله فإنها إشارة إلى القضاء والحكم المسرّ عن كل ظلم وخطأ وليس لهذا ارتباط بالأصل اللغوي

الإحتكام إلى الله في حقانية الرسول الأكرم ﷺ.

وسبب النزول الذي ينفل في هذا المجال شاهد على هذا المعنى حيث قيل: إن مشركي قريش اقترحوا على النبي ﷺ أن يجعل يسا وبينك حكماً من اليهود أو قساوسة النصارى؟ كي يعبرونا عنك بما يتوفر لديهم من كتب سماوية<sup>١</sup>.

فنزلت الآية كجواب على إشكاليهم. هل يوجد غير الله حكماً!

وديل الآية شاهد على هذا المعنى أيضاً بقولها: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾

على كل حال فإن مفهوم الآية واسع ويحصر الحكمية في جميع الأمور دون استثناء هي ذات الله المقدسة لأننا نعلم أن مورد الآية لا يحدد مفهوم الآية أنداً



المستعاد جيداً من الآيات العشر السالفة هو أن الحاكمية تعود للحكم والأمر في عالم الوجود وفي عالم الشريعة محتص في ذات الله المقدسة.

والحاكمية بمعنى التشريع وهكذا القضاء والحكومة بمعنى السيف كلها نشأ منه تعالى ومن يرعب في التصدي لبعض هذه الأمور فلا بد أن يكون ذلك بإذنه وأمره سبحانه. غير أن الآيات المذكورة مختلفة. فبعضها يلاحظ فروع الحاكمية كلها وبعضها يلاحظ مسألة القضاء أو التشريع فقط، ولكن المستند من المجموع هو مسألة (توحيد الحاكمية) بجميع أبعادها من هذه الآيات.

### توضيحات

#### ١- حاكمية الله في المنطق العقلي

لا شك أن كل عارف بالله مقر بتوحيد الحائق يدعى بِنفاذ أمره في عالم الوجود، وعندما

يتقبل حاكميه على عالم الوجود فإنه سوف لا يتردد في ولايته وحكومته التشريعية لأنه حينما يكون هو الحالق والمالك والمدير والمدير فقيره لا يكون أهلاً للتشريع ولا يتمكن من وضع قوانين تسجّم مع نظام التكوين والحلق.

وهكذا عندما يكون هو الحالق والمدير فإنه هو الذي يحب أن يحكم في مسألة الحكومة القانونية على العباد ويقضي في الاختلافات، ويدونه سيكون هناك تدخل في نطاق مالكه لله عزّ وجلّ وتديره بدون إذنه، من جهة أخرى يكون القانون الصحيح هو القانون الذي يسجّم مع التركيب الجسمي للإنسان وروحه ويلبّي حاجاته المادية والمعنوية ولا يترك آثاراً سلبية في فترة زمنية قصيرة وطويلة، وأن يكون ذا ضمان تنفيذي كافٍ وداً تقبل وانشداد في المجتمع الإنساني.

وبتعبير آخر يكون المشرّع الحنفي عالماً بالإنسان بصورة كاملة من جهة وعالماً بالكون من جهة أخرى كي يلاحظ بدقة العلاقات التي تربط الإنسان مع العالم الخارجي والداخلي ويصع القوانين مصفاً إلى عدم وجود مصالح شخصية من وضع تلك القوانين، وما شاهده من احتلال كبير في القوانين البشرية عنه ناشيء من

أولاً: فقدان البشريه لمن يعرف الإنسان بجميع حرياته الجسمية والروحية ويعلم جميع القوانين والملاقات التي تحكم العالم. فلا رأت تؤلف كتب من قبل المفكرين تحت عنوان (الإنسان موجود مجهول) وما شاكل، فإذا كانت معرفة الإنسان بنفسه إلى هذه الدرجة من الضعف فكيف تكون معرفته بالعالم الواسع؟

ثانياً: الإنسان موحود محتاج إلى غيره، وبذلك نجد أن كلّ مجموعة تسنّ القوانين في إحدى المجتمعات البشرية تأخذ بنظر الاعتبار مصالح تلك المجموعة أو الحزب

ثالثاً: الإنسان غير مصون عن الخطأ والاشتد ولذا تكون القوانين البشرية عرضة للتغيير المستمر وذلك لظهور عيوبها ونقائصها وأخطئها بمرور الزمان فيبادر لإصلاحها ولكن سوف تظهر عيوب أخرى، ومن هنا أصبحت مجالس التشريعية البشرية مخبرات تختبر فيها القوانين بشكل دائم احتباراً لا طائل فيه ولا نهاية!

ويقطع النظر عن مسألة مالكية الله وحاقفته لا يصح أحد للتشريع أصلاً إلا من كان خالقاً للإنسان وعالمًا بكلِّ مطلوباته الجسمية و لروحية وغنيًا عن كلِّ شيء وكلِّ إنسان ومنزهًا عن كلِّ خطأ واشتباه.

وواجباً التوحيد هو تطبيق أصول لقوايس لإلهية عامة على مصاديقها وجعل الأحكام العامة أحكاماً جزئية قابلة للتنفيذ



## ٢ - للحكومة وديعة إلهية

من الآيات السابقة يستنتج بصورة جيدة أن الحكومة وديعة إلهية، وعلى الحكام والمسؤولين العمل كواب عن الله تعالى، المفهوم من هذا الكلام هو وجوب رعاية أوامر المالك الأصلي للحكومة، أي الله سبحانه وتعالى في جميع المجالات.

وقد خاطب الله عز وجل النبي داود عليه السلام وهو ملك لأحد أوسع الحكومات في التاريخ السري «يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ».

إن هذا التعبير يشير من جهة إلى أن الحكومة وديعة، وإلى المنهج والطريقة للحكومة الإلهية الشرعية والصحيحة من جهة أخرى



## ٣ - شرعية الحكومات تستمد من الله فقط

في الإسلام والرؤية التوحيدية تُنصب حكومة من الأعلى وليس من الأسفل، أي من قبل الله عز وجل لا من قبل الناس، ويصير بجانب لاجتماعي لها بأمره أيضاً.

توضيح ذلك: إن إحدى الفوارق الواضحة بين رؤية التوحيدية وبين الرؤية المشوبة بالشرك في قضية الحكومة هي أن الموحّد يعتقد أن الحكومة هي جميع أبعادها (التشريعية

والتفيدية والقضائية) نشأت من الله ومن ثم تنقلت إلى الأنبياء وأوصيائهم ثم الصالحين والعلماء في الأمم.

لا بد أن يشعر هؤلاء الحكام بالمسؤولية أمام الله عز وجل، ويراعوا رصاء قبل كل شيء، وأن يكونوا خداماً مخلصين وأمناء لعباده.

إن مثل هذه الحكومة وبوحي من الرسالة الإلهية يمكنها قيادة البشر، لأن تكون تابعة لأهواء هذا أو ذاك ولرغباتهم المصحفة والمشوبة بالمعاصي

ومن الممكن أن يقال: إن الحكومة الإسلامية إذن ليس لها بعد شعبي بل هي أكثر ما تكون نوعاً من دكتاتورية الصالحين، ولكن هذا خطأ كبير لأن مبدأ الشورى الذي تقرره الشرائع التوحيدية كقصة أساسية في الحكومة وأكد عليها النص القرآني ويشهد له فعل نبي الإسلام ﷺ وهو صاحب مقام (الفضل الكل) يدل على أن الله هو (مالك الملك) و(أحكم الحاكمين) وهو الذي أمر بالمشورة مع الناس في أمر الحكومة وإشراكهم في هذا الشأن.

من هنا تكون الحكومة التوحيدية والإسلامية حكومة (شعبية دينية) وبمعنى ذلك الإلهام بآراء الناس بأمر إلهي وذلك في إطار مبادئ العبودية والأحكام الإلهية طبعاً، وسيأتي تفصيل هذا الكلام بشكل كامل في مبحث الحكومة في الإسلام بإذن الله

النتيجة هي أن الناس - مثلاً - عندما يتوجهون إلى صناديق الاقتراع في الحكومة الإسلامية لانتخاب رئيس الجمهورية أو نواب المجلس فإنهم يلاحظون هذه النقطة وهي أنهم أسماء الله تعالى، فالواجب هو أن يصعوا هذه توديعاً للإلهية التي سمي بالحكومة في يد من تتجسد به القيم الإلهية، وإلا فإنهم يخوبون لأمانه

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (النساء / ٥٨)

وقد ورد في الروايات الإسلامية، من إحدى المصاديق المهمة للأمانة هي الحكومة، وقد تأكد هذا الأمر في تفسير الدر المنثور حيث قال «حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله وأن يؤدي الأمانة».



وعليه فأنهم لا يفكرون أبداً بأي نائب أو رئيس للحكومة يقوم برعاية مصالحهم الشخصية أو القنوية أو من هو الذي تربطهم معه الصداقة أو القرابة؟ من الذي يستأنسون به أم لا يستأنسون؟ هل ينبغي أن يراعوا الله عز وجل ورصاء والقيم الإنسانية والدينية السامية في كل موقف

أما في الحكومات الديمقراطية والشعبية في العالم المادي فيمكن أن تنظر هذه الأمور من آراء المقرر عين من قبيل الميول، لشخصية ولفئوية، للصراعات السياسية، المصالح المادية اللامشروعة والعلاقات الخاصة وأمثالها  
لاحظ العارق من أين وإلى أين؟



#### ٤- الإيمان بتوحيد المالكية وتأثيراته التربوية

متما ذكر يتضح جانب من تأثير الإيمان بهذا النوع من التوحيد وهو مدى تأثير الاعتقاد بحاكمية الله في جميع الأبعاد، وأن الحكومة وديعة إلهية عند الناس، فبعد التمييز سواء كان في المسؤوليات الكبيرة هي الحكومة أو الصغيره ينبغي أن يرعى فيه مبدأ الأمانة والوديعة الإلهية وعدم التصحية بالصواب فداء للعلاقات وعدم التصحية بمصالح المجتمع من أجل المصالح الشخصية

وأما من جهة الحكام فإنا نعلم بأن المشكلة الهامة في العالم هي مشكلة الحكام المستبدين الذين أضرموا الميراث طينة النارخ في مناطق واسعة من العالم، أو في العالم بأسره وجلبوا المصائب والشقاء الكبير لبشريه

في هذا العصر قام (هتلر) بقتل عشرات الملايين، و(ساليين) مسؤول عن مقتل ٣٠ مليون إنساناً حسب الإحصاءات المروعة التي نشرت من قبل شعبه، ولا تزال أوصاع العالم بهذا السحوا وان كانت بصور أخرى،

في حين لو كان الإنسان ذا رؤية توحيدية لآمن بأن الحكومة المطلقة مختصة بالله تعالى

وقد فوّضت إليه بإدبه عزّ وجلّ وإعانة عبادِه وآتِه حليفة لله في الأرض وعليه يجب أن لا يكون إنساناً مستبدّاً مغروراً وظالماً أبداً، وعندما يصل إلى الحكومة يقول كما قال علي عليه السلام: «... وما أخذ الله على العلماء ألا يقاتروا على كفّة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبليها على غاريها ولسقيت آخرها بكأس أولها ، ولا نغيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عنقة عنزة»<sup>١</sup>.

أجل إنه يرى الحكومة في كلّ الأحوال وديعه إلهية وهو أمينها ومسؤول أمام صاحبها الأول، وهذه الرؤية يمكن لها أن تقلب صورة لحكومة في العالم بشرط أن سعد إلى أعماق الروح وتتلون الروح الإنسانية بلونها

ولا يصدق هذا الأمر على المتصدين في حكومه فحسب، بل يصدق على جميع العاملين في الحكومة والأمراء والعادة والاندراء والقضاة

المعلوم من مجموع ما مرّ من أبحاث هو أن الحكومة في الإسلام ليس لها شكل اسبدي ولا يثبت من الطرار الديمقراطي الغربي بل هي نوع من الحكومه الشعبية التي تعمل في إطار العفيدة ولها لون إلهي في أساسها، عن هذا الطريق مكتسب لوماً شعبياً ونشأ كلّ امتيازاتها من هنا

وهناك كلام طويل حول (الحكومة في قرآن) وموضوع لبحث هنا هو (التوحيد في الحاكمية) و(نشوء الحكومه من الله) ولذا نركز النافي إلى البحث العام حول الحكومة بإذن الله



## هـ) توحيد الطاعة

### تمهيد:

الكلام الأخير في باب أقسام التوحيد هو أن لإنسان الموحّد يعتقد بأن الله وحده واجب الطاعة ولذا يضع طوق العبودية في رقبته ويسبح بقوله إني عبد ويستعذّ للتصحة بنفسه ويعلن عن استعداده لتنفيذ أوامر الله تعالى.

ويقوم بطاعته الأنبياء والمرسلين وأوصيائهم المعصومين ومبعوثيهم بوصفها فرعاً لعبادة الله عزّ وجلّ ويحترم أوامرهم.

إنّه يعكّر بأمر واحد فقط هو رضا لمحبوب الحقيقي وامثال أوامر المولى الحقيقي، إنّه لا يشتري (رضا الناس) بـ (سخط الله) ولا (طاعة المخلوق) بـ (معصية الخالق)، لأنّه يرى ذلك شعبة من الشرك

إنّ هذا الفرع من التوحيد وهو (توحيد الصّلة) نشأ في الواقع من التوحيد في الحاكمية الذي مرّ في البحث السابق

وبهذا التمهيد راجع لقرآن الكريم لنأمل بحشوع في الآيات التالية:

١- ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾  
(المائدة / ٩٢)

٢- ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾

(آل عمران / ٣٢)

٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾  
(النساء / ٥٩)

٤- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ (التغابن / ١٦)

٥- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾

(الشعراء / ١٠٨، ١٢٦، ١٤٤، ١٦٣، ١٧٩) (ال عمران / ٥٠) (الزحرف / ٦٣)

٦- ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ (الأعراف / ٣)

٧- ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب / ٣٦)

٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ آفِرِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ﴾ (الحجرات / ١)

٩- ﴿اتَّخِذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَزْيَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا

لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة / ٣١)

١٠- ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ • وَأَنْ

اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (س / ٦٠ - ٦١)

### شرح المفردات:

(الإطاعة) تعني في الأصل الإتيان و لتسليمه (وعد صرح بذلك الكثير من اللغويين) ومن ثم أطلق على اتباع الأمر.

وقد فرّق البعض بين (الإطاعة) و(المطوعة) ففسّر الإطاعة بمعنى الإتيان وتنفيذ الأمر، والمطوعة بمعنى الموافقة والإنسجام، ولذا يقول الخليل ابن أحمد في كتاب (الصين): تستعمل (الإطاعة) في مورد الرعية بالسبة لبقائه، وفي مورد المرأة بالنسبة لزوجها تستعمل (طواعية) أو (مطوعة)



١ هنالك آيات قرآنية كثيرة أخرى تتفق مع الآيات أعلاه، مصوناً منها الأعمال، ٢٠، ٤٦، البور، ٥٤، محمد، ٣٣.

المجادلة، ١٣؛ النساء، ١٦؛ الأنعام، ١٥؛ يونس، ١٥؛ الزمر، ١٣.

### جمع الآيات وتفسيرها

**إلهنا نطيع لأمره وحده:**

إن آية البحث الأولى وإن جاءت بعد تحريم الحمر والقمار والأنصاب والأزلام إلا أن محتواها لا يحفى كونه حكماً عاماً حيث تقول ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾، وتضيف لدى تأكيدها على هذا الأمر: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلُوا نَافَا عَلَى رَسُولِكَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾<sup>١</sup>.

ومن الواضح أن طاعة الرسول رشفة من رشفات طاعة الله تعالى وطاعته طاعة الله، لأنه لا يبين سوى كلام الله وأمره، ولعل تكرار جملة (أطيعوا) إشارة إلى هذا المعنى، أي أن الطاعة الأولى لها جانب ذاتي وأصلي والثانية لها جانب عرصي ومرعي

﴿٢٨﴾

والإيه الثانية بعكس هذا المصمون من خلال تولعه خطاب للنبي ﷺ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، جعل الآية شهد حيداً بأن التمرد يستوجب الكفر، التمرد الحادث عاداً وعدة لأمر الله تعالى والنبي ﷺ، أو تتوسع في معنى الكفر حتى يشمل كل معصية.

على أية حال فإن الآية تؤكد على وجوب طاعة الله ونبيه أي اتباع الكتاب والسنة، النبي ﷺ في هذه الآية وإن كان معطوفاً على الله تعالى بدون واسطة وبكس بملاحظة الآية السابقة التي تقول: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾، يتصح أن طاعة النبي الأكرم ﷺ هي فرع لطاعة الله تعالى.

﴿٢٩﴾

١ جرد الشرط في الآية معدوم يقترب قمت المحبة عليكم) و (الشفقتهم العقاب) أو (لم تضرزوا بتوليكم الرسول) (تفسير مجمع البيان، الكبير: روح المعاني والمراغي هي دليل آية مورد البحث)

وهذه الآية تدلّ بوضوح على أن علامة المحبِّ لحقيقي لله ورسوله هي طاعتها واتباعهما وإلا كان حُبّاً كاذباً أو ضعيفاً جداً



الآية الثالثة تضيف طاعة أولي الأمر إلى طاعة الله ورسوله وتأمر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

وهذا التعبير يدلّ بوضوح على أن الطاعة محتضنة في الله ثم رسوله وأولي الأمر، ولحلّ أي مراعٍ لابد من الاستعانة بهم، ويدور ذلك حول قواعد الإيمان بالمبدأ والمعاد سنرعرع في قلب الإنسان وروحه



الآية الرابعة تتحدث عن طاعة الله فقط حيث تقول: ﴿فَآتُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَنِيعُوا وَأَطِيعُوا﴾، فهي تأمر بالتقوى أولاً ونجس المعاصي لأنّ (التخلية) والتطهير يتقدّمان على (التخلية)، ثم تأمرنا ثانياً بالإسماع لأمر الله سماعاً يكون معدّمة للطاعة، وتأمر أخيراً بإطاعة أمره دون قيد أو شرط، وهذه لطاعة سطيفة محتضنة في الله عز وجلّ، وما يطنه البعض من أن عبارة ﴿فَآتُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ سحب الآية ﴿آتُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِيدِهِ﴾ (آل عمران / ١٠٢) خطأ كبير لأنّ الآيتين تتحدثان عن حقيقة واحدة، لأنّ حقّ التقوى ليس سوى أن يكون الإنسان متّقياً قدر ما يستطيع.

الآية الخامسة التي جاءت على لسان الكثير من الأنبياء ﷺ تأمر أولاً بالتقوى ثم طاعة الأنبياء وتقول ﴿فَآتُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ وقد نقت هذه العبارة نفسها عن لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب والسيد المسيح ﷺ في نقرآن الكريم (مرة واحدة على لسان نوح (الشعراء / ١٠٨) ومرتين على لسان هود (الشعراء / ١٢٦ و ١٣١) ومرتين على لسان صالح

(الشعراء / ١٤٤، ١٥٥) ومرة على لسان نوط (شعراء / ١٦٣) وشعيب (الشعراء / ١٧٩) ومرة على لسان المسيح (آل عمران / ٥٠ ولخرف / ٦٣) ومن المسلم به هنا هو أن الطاعة ترتبط بالدرجة الأولى بعبادة التوحيد وترك الوثنية ثم سائر التعاليم الدينية، ومثل هذه الطاعة هي طاعة لأمر الله لأنهم لم يحددوا: **يَا عِبَادِ** تعالى



في الآية السادسة حدث عن متابعة لأحكام الإلهية، وهي تعبير آخر عن الطاعة إضافة إلى تصريح الآية بعدم اتباع غيره، وهذا المعنى والإتيان يوضحان (توحيد الطاعة) وتقول: **«اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ»**. هذه الآية تبطل طاعة الغير أبداً كان وفي أية حال إلا أن ترجع طاعته إلى طاعة أمر الله عز وجل وهذه الآية وأمثالها تشهد جيداً أن أحكام البشر وآراءهم مهما كانت فهي ليست أهلاً للإتيان (لامتثالها بالأخطاء إضافة إلى عدم وجود دليل على وجوب طاعة الآخرين).



الآية السابعة وبعد التصريح بعدم امتلاك أي رجل مؤمن أو امرأة مؤمنة أي خيار أمام أمر الله ورسوله تقول **«وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً»**. إن الآية تبين في أولها وآخرها توحيد طاعة وتعتبره علامة الإيمان ومعارضته تكون (ضلالاً مبيناً) وأي ضلال هو أوضح من أن يترك الإنسان أمر الله العالم الحكيم والرحمن والرحيم ويتوجه لطاعة الآخرين؟! **«وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً»**



الآية الثامنة تحاطب المؤمنين، وقد ذكرت شؤون مختلفة في نزولها وكلها تشهد على أن بعض الأشخاص يتقدمون أحياناً على الله ورسوله بالإقتراحات ويقولون: لو أصدر

الأمر الغلاني لكار أفصل، فرب الآية تدره بقولها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَبِيحٌ عَلَيْهِ﴾

ومن المسلم به أن الله لا مكان له حتى يقول لا تتقدموا عليه، بل أن ذلك كناية عن عدم التقدم عليه في أي عمل أو كلام.

على أية حال فإن الآية لا تعتبر طاعة لأمر الإلهي واحباً محسب، بل تقول كونوا بانتظار أوامره في كل عمل، وبعد إصدار الأمر لا ينبغي عليكم التقدم عليه أو التريث في امتثاله فالمسرعون والمبطنون محطون.

وقد جاء في تفسير المراعي القول عن بعض علماء الأدب العربي إن مفهوم التعبير (لا تقدم بين يدي الإمام) هو لا تعجل عليه في أدائه الأعمال.

❦❦❦

### عبادة للقادة والعلماء:

الاية التاسعة بدم اليهود وانصارى لكونهم جعلوا من علمائهم ورهبانهم الهة من دون الله الواحد ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾<sup>١</sup>

وقد جعلوا من المسيح بن مريم معبوداً لهم 'بصاً' ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ في حين: ﴿وَمَا

١ المراد من ﴿تَقْدُمُوا﴾ ما هل هو بمعنى لا تتقدموا، أم ٢٦ وقع كلام بين المفسرين (الأول من باب التفعيل والثاني من باب التثقل) ولكن جملة (بين يدي الله ورسوله، في الحالة الأولى يكون معناها عدم التقدم على الله ورسوله، وفي الحالة الثانية يكون مفهومها هو لا تقدموا شيئاً على الله ورسوله وأوامرهما والمعنى الأول هو الأنسب.

٢ «أحبار» جمع «حبر» أو «حبر» وهي في الأصل الأثر بحبل تة ضيق على العالم والمفكر بسبب الآثار الجميلة التي تبقى منهما بين الناس وهذه الكلمة تستعمل في لغالب هي علماء اليهود وقد تطلق أحياناً على غيرهم كما لقبوا ابن عباس بـ (حبر الأئمة).

«رهبان» جمع «رهب» وقال البعض إن هذه الكلمة لها معنى المفرد والجمع وتضي في الأصل الشخص الذي يتصف بحوف الله ويظهر ذلك على أعماله، وتطلق عادة على مجموعة (النازيين لنديا) من النصارى وهي مجموعة هجرت الحياة والإكتساب والعمل بل والرواج أيضاً واشتهروا بالعبادة في الدير (مفردات الراسب، العين، نهاية ابن الأثير، وتفسير الميراث، الكبير، روح المعاني، وروح البيان، والمرغني).



أَمِرُوا إِلَّا يُفَعِّلُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ شَبَّانُهُ عَمَّا يَشْرِكُونَ» ومن المسلم به أن اليهود والنصارى لم يعتقدوا بألوهية علمائهم ورجالهم ولم يعبدوهم كما نعبد الله تعالى أيدياً. فلماذا إذن استعمل القرآن الكريم كلمة (رب) و(إله) فيهم؟

وردت الإجابة عن ذلك في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام: «أما والله ما صاموا لهم ولا صلوا ولكنهم أحلوا لهم حراماً وحرموا عليهم حلالاً فاتبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون»<sup>١</sup>.

وقد ورد هذا الحديث بطرق متعددة أخرى في المصادر الشيعية والسنية ومنها ما نقرأه في كتب عديدة. «عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي، اطرح عنك هذا الوثن وسعته يداً آية اتخذوا أحبارهم ورجالهم أرباباً من دون الله. فقلت له: يا رسول الله لم يكونوا يعبدوهم فقال ليس يعظمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه ويحلون ما حرم الله فيستحلونه؟ فقلت بلى، قال: ذلك عبادتهم»<sup>٢</sup>.

وبهذا يتضح أن اتباع وإطاعة أشخاص يأمرون على خلاف حكم الله يكون لوماً من

الشرك

❦❦❦

الآية العاشرة والأخيرة مخاطب جميع البشر: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ﴿ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾.

ومن المسلم به أنه لا أحد يعبد الشيطان بمعنى ركوع والسجود والصلاة والصيام، فما هي العبادة التي نهى عنها؟ هل هي شيء غير إطاعة؟ أحل، يهتم حينها يستسلمون لما يريد الشيطان ويقدمون أمره على أمر الله فيهم مشركون وعباد الشيطان، والشرك هنا

١. تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٣؛ وتفسير البرهان، ج ٢، ص ١٢٠ و ١٢١.

٢. تفسير روح المعاني، ج ١، ص ٧٥ وورد هذا المعنى في تفسيرات متعددة أخرى منها تفسير در المنثور بعراق طهري.

بمعنى طاعة الأمر لا الركوع والسجود

أين أحد الله تعالى هذا العهد من بني آدم؟ فتره البعض بأنه (عالم الذر) وفسره بعض أنه وصايا الأنبياء لأقوامهم، ولكن الظاهر أن الآية تشير إلى الوصايا التي تشبه العهد الذي كان لله تعالى عند هبوط آدم مع أولاده إلى لأرض وقد امت هذه الآية بتبيان ذلك: ﴿يَأْتِي آدَمَ لَا يَفْتِنُكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾. (الاعراف / ٢٧)

وهكذا في خطابها لآدم وروجه بقولها ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. (الاعراف / ٢٢) والآية ١١٧ من سورة طه تخاطب آدم ﷺ: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ ومن المسلم به أن مثل هذا العدو يكون عدواً لأبائه أيضاً، لأن مخالفته لم تكن مع آدم فقط بل مع جميع نسله، ولذا أقسم من الدابة: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتِنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَآتِيَنَّكَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَبِيلاً﴾. (الاسراء / ٦٢)

وقوله الله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَعْرِضَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، إلا هنادك منهم المخلصين. (ص / ٨٢-٨٣)

## توضيحات

### ١ - الله تعالى هو للمطاع المطلق

من مجموع الآيات السابقة يستفاد جيداً أن الله تعالى وحده هو (واجب الطاعة) في النظرية الإسلامية وفي المنظار القرآني وهكذا. لذين تعتبر طاعتهم طاعة لله تعالى، وكل طاعة وتسليم أمام الأحكام والأوامر المخالفة لأمر الله يُعدّ لوياً من الشرك والوثنية هي المنظار القرآني.

وعليه فإن لزوم طاعة النبي والأئمة والوُديين هو بأمر الله كما يقول القرآن: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء / ٦٤)

كما يمكن إثبات هذه المسألة بالدليل العقلي، لأن مطاع المطلق هو من يكون عالماً

بكل شيء وحكيماً وخبيراً ومنزهاً عن كل خطأ ورحيماً وقد اجتمعت هذه الصفات في ذات الله المقدسة فقط

وإرادة الحكام والأصدقاء والأبناء والأرحام والأسميات القدسية إن لم تتناسق مع إرادة الله فإن طاعتها تكون شركاً.

يقول الإنسان الموحّد لو انحرف عن صاعته الله قيد أملة فإني قد أشركت لأنني جعلت له بدءاً في طاعته.

## ٢- توحيد للطاعة في الروايات الإسلامية

إن الأحاديث المختلفة التي وردت في مصادرنا الإسلامية أكدت على هذه المسألة أيضاً وهي أن أحد شعب الشرك هو لشرك في الطاعة ومن هذه الروايات:

(أ) ورد في الحديث النبوي «لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف»<sup>١</sup>

(ب) ومروا في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»<sup>٢</sup>

(ج) وحديث عن الإمام الصادق عليه السلام «من أطاع رجلاً في معصية فقد عبده»<sup>٣</sup>

(د) في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام وهكذا عن الإمام الجواد عليه السلام «من أصغى إلى مطلق فقد عبده، فإن كان المطلق يؤذي عن الله لمعبود الله، وإن كان المطلق يؤذي عن الشيطان فقد عبده الشيطان»<sup>٤</sup>.

(هـ) وبختم هذا الكلام بحديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام «لا دين لمن دان بطاعة المخلوق في معصية الخالق»<sup>٥</sup>.

١. صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٤٦٩

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٦٥

٣. وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٩١، ح ٨

٤. وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٩١، ح ٩، ونهج العقول، ص ٣٣٩ (باختلاف يسير).

٥. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٩٣، ح ٦ (وهذا المصنف ورد أيضاً عن الإمام الباقر عليه السلام في أصول الكافي، ج ٢،

ص ٢٧٣، ح ٤).

تتضح من هذه الروايات انصريحة والقاطعة النظرية الإسلامية في مسألة الشرك وتمييز  
الموارين الإسلامية في توحيد الطاعة.

إلهنا: إنَّ سلوك طريق التوحيد مقعد ومشكل، فاهدنا أنت في هذا الطريق المستوي.  
إلهنا: إنَّ جهات مختلفة تدعونا لطاعتها من كلَّ جهة، فالهوى من الداخل، وشياطين  
الجنِّ والإيس من الخارج، ونحنُ نرغب في طاعة أمرك وحدك، فكن لنا عوناً وناصرأ في  
هذا الطريق.

## الفهرس

المقدمة .. ٥

الطرق إلى الله ... ٥

### براهين معرفة الله / ٩

٢- برهان التغير والحركة ١٣

شرح الممرات ١٤

جمع الآيات وتفسيرها ١٥

إبراهيم عليه السلام يواجه عبدة الأصنام بمسطق قوي. ١٥

العلاقة بين الأقول والحدوث: .. ١٩

توصيحات .. ٢٢

١- برهان الحركة ومقدماته .. ٢٢

أ) تعريف الحركة. . ٢٣

ب) وجود الحركة . ٢٣

ج) أركان الحركة ٢٤

د) مجالات الحركة ٢٤

٢- أدلة وجود الحركة الجوهرية .. ٢٦

٣- إثبات وجود الله بواسطة برهان الحركة ٢٨

٢٩	٤- العالم متغيّر وكلّ متغيّر حادث .. .. .
٣٠	٥- حدوث العالم والقوانين العلمية محدّثة
٣٣	٣- برهان الوجوب والإمكان (الغنى والمقر)
٣٤	شرح المفردات: .. .. .
٣٥	حاجة الجميع إلى الله: .. .. .
٤٠	توضيحات
٤٠	١- برهان الوجوب والإمكان من الماحية الفلسفية
٤٢	٢- برهان الغنى والمقر في الروايات الإسلامية
٤٥	٤- برهان العلّة والمعلول .. .. .
٤٦	شرح المفردات: .. .. .
٤٧	جمع الآيات وتفسيرها
٤٧	استحواب عجيبها .. .. .
٥٠	توصيحات
٥٠	١- برهان العلّة والمعلول في الفلسفة والكلام
٥٠	١- تعريف أصل العلّة .. .. .
٥١	٢- شمولية قانون العلّة وسعة تطبيقاتها
٥١	٣- جذور معرفة قانون العلّة
٥٣	٤- أقسام العلّة .. .. .
٥٤	٢- إيضاح برهان العلّة .. .. .
٥٧	٥- برهان الصديقي
٥٨	شرح المفردات: .. .. .
٥٩	جمع الآيات وتفسيرها .. .. .
٥٩	القرآن وبرهان الصديقيين

٦١	بزوغ الشمس دليل عليها؛
٦٢	إحاطة الوجود الإلهي؛
٦٣	هو الأول والآخر؛
٦٥	هو نور العالم
٦٧	توضيحات
٦٧	١- برهان الصديقي في الروايات الإسلامية ولأدعية
٦٨	٢- إيضاح برهان الصديقي
٧٣	٦- الطريق الباطني لمعرفة الله (المطهر)
٧٤	شرح المفردات.
٧٥	جمع الآيات وتفسيرها
٧٥	الحلق الثابت والراسخ؛
٧٧	عند مواجعة الأزمات
٨٠	إقرار المشركين؛
٨٢	عهد عالم الذر؛
٨٩	حصيلة البحث عن عالم الذر.
٨٩	توصيحات
٨٩	١- (عالم الذر) في الروايات الإسلامية
٩٢	٢- فطرة العقل أم القلب؟
٩٣	٣- شواهد حية على فطرة الإيمان بالله
٩٣	أ) الحقائق التاريخية.
٩٤	ب) الآثار التاريخية
٩٤	ج) الدراسات النفسية واكتشافات علماء النفس
٩٦	د) فشل الدعاية ضدّ الدين

٩٧	ها التجارب الشخصية في الأزمات
٩٧	وا شهادة العلماء على فطرية الدين
٩٩	٤ - الفطرة في الروايات الإسلامية

### وحدانية الذات المقدسة / ١٠٣

١٠٣	«أهم أصل في معرفة الله» ..
١٠٧	شرح المفردات: ..
١٠٩	جمع الآيات وتفسيرها ..
١٠٩	الذنب الذي لا يُعتفر: ..
١١١	أعظم الظلم ..
١١٢	القوط الموحش ..
١١٤	الجنة معرمة على المشركين ..
١١٤	الله بريء من المشركين: ..
١١٧	إبراهيم عليه السلام الأسوة الحسنة في معارعة الشرك ..
١١٩	توصيح: لماذا هذا الإهتمام الكبير بمصيئة التوحيد والشرك؟

### دلائل التوحيد / ١٢٣

١٢٥	١ - شهادة الفطرة على وحدانية الله (عر وجل)
١٢٦	جمع الآيات وتفسيرها ..
١٢٦	حينما يشرق نور التوحيد ..
١٢٨	اللبوء إلى الله في الشدائد ..
١٢٩	النور الوهاج في الظلمات: ..



١٣٣	٢- تناسق العالم .....
١٣٤	شرح المفردات.
١٣٥	جمع الآيات وتفسيرها .....
١٣٥	مظاهر التنسيق: ..
١٣٦	تعدد الآلهة: ..
١٣٨	توضيحات .....
١٣٨	١- النظرة العلمية لوحدة عالم الحلق
١٤٠	٢- إيضاح برهان التمايع ..
١٤٣	٣- برهان الوحدة والتمايع في الروايات الإسلامية
١٤٥	٣- دليل صرف الوجود ..
١٤٦	جمع الآيات وتفسيرها ..
١٤٦	الله شاهد على وحدانية ذاته
١٤٧	هو الأول والآخر والظاهر والباطن
١٤٩	توضيحات
١٤٩	١- إنه حقيقة لا متناهية ..
١٥٠	٢- الحقيقة اللامتناهية واحدة قطعاً
١٥١	٣- دليل صرف الوجود في الأحاديث الإسلامية ..
١٥٣	٤- دليل الفيض والهداية ...
١٥٤	جمع الآيات وتفسيرها .....
١٥٤	دعوة الأنبياء العامة إلى الله الواحد: ..
١٥٥	هل تمتلكون دليلاً على الشرك؟ ..
١٥٦	توضيحات ..
١٥٦	١- الفيض والهداية في الروايات الإسلامية .....

- ٢- برهان التركب ..... ١٥٧
- ٣- التوحيد والأدلة النقلية ..... ١٥٨

### مصادر الشرح الهامة / ١٥٩

- ١- إتياع الأوهام ..... ١٦١
- شرح المفردات ..... ١٦٢
- جمع الآيات وتفسيرها ..... ١٦٣
- العور في عالم الأوهام ... ١٦٣
- أسماء بلا عباوين ..... ١٦٤
- الاستناد إلى الحَدَس والنخمين ..... ١٦٥
- ٢- إتياع الحواس ..... ١٦٩
- جمع الآيات وتفسيرها ..... ١٧٠
- لماذا لا ترى الله؟ ..... ١٧٠
- طلبوا ذلك من موسى ..... ١٧١
- دعني أرى الله في السماء ..... ١٧٢
- أيقنوا أن يأتي الله إليهم ..... ١٧٣
- توصيح: لماذا ألقوا عالم الحس؟ ..... ١٧٥
- ٣- المصالح الوهمية ..... ١٧٧
- شرح المفردات ..... ١٧٧
- جمع الآيات وتفسيرها ..... ١٧٨
- الأصنام شفاعونا؟ ..... ١٧٨
- توضيحات ..... ١٨٠
- ١- منشأ الاعتقاد بالشفاعة ..... ١٨٠

- ٢- تاريخ عبادة الأصنام والأوثان..... ١٨٢
- ٣- عوامل أخرى للشرك وعبادة الأصنام..... ١٨٣
- ٤ و ٥- عاملي التقليد والاستعمار..... ١٨٥
- شرح المفردات:..... ١٨٦
- جمع الآيات وتفسيرها..... ١٨٧
- عبادة الأصنام دين أجدادنا!..... ١٨٧
- الجواب الدائم للمشركين:..... ١٩٠
- توضيحات..... ١٩٢
- ١- التقليد، عامل للتقدم أم للانحطاط؟..... ١٩٢
- ٢- تزيين الشياطين وهوى النفس..... ١٩٢
- ٣- عامل الاستضعاف والاستعمار الفكري..... ١٩٣
- ٤- كلمة أخيرة حول عوامل الشرك..... ١٩٤

مركزية تكوير علوم

### أقسام التوحيد / ١٩٩

- التقسيمات الأساسية:..... ٢٠١
- ١ و ٢- توحيد الذات والصفات..... ٢٠٣
- جمع الآيات وتفسيرها..... ٢٠٣
- يا من تعالى عن الخيال والقياس والظن والوهم:..... ٢٠٣
- توضيحات..... ٢٠٩
- ١- المفهوم الدقيق لتوحيد الذات..... ٢٠٩
- ٢- مفهوم توحيد الصفات..... ٢١٠
- ٣- الدليل على توحيد الصفات..... ٢١٠
- ٣- التوحيد في العبادة..... ٢١٣

٢١٤	شرح المفردات:
٢١٤	المفهوم الدقيق للعبادة:
٢١٦	جمع الآيات وتفسيرها
٢١٦	هو المعبود وحده:
٢١٩	لا أعبد غير الله:
٢٢١	إن عجزتم عن عبادة الله فهاجروا:
٢٢٥	توضيحات
٢٢٥	١- شجرة توحيد العبادة المثمرة
٢٢٦	٢- روح العبادة والإحتراف من الإفراط والتفريط
٢٣٠	٣- توحيد الوهابين المشوب بالشرك
٢٣٥	٤- توحيد الأفعال
٢٣٥	(أ) توحيد الخالقية
٢٣٦	شرح المفردات:
٢٣٦	جمع الآيات وتفسيرها
٢٣٦	هو الخالق لكل شيء:
٢٣٨	خالقية الله للكون:
٢٤٢	توضيحات
٢٤٢	١- الخطوة الأولى نحو الشرك في الخالقية
٢٤٣	٢- خطوة أخرى على طريق الشرك
٢٤٧	(ب) توحيد الربوبية
٢٤٨	شرح المفردات:
٢٤٩	جمع الآيات وتفسيرها
٢٤٩	الله سبحانه وتعالى رب العالمين:

- هو المدبر للأمور: ..... ٢٥٣
- توضيحات ..... ٢٥٥
- ١- التوحيد يعني حذف الوسائط! ..... ٢٥٥
- ٢- تاريخ الديانات وخرافة الوسائط ..... ٢٥٥
- (أ) آلهة الروم ..... ٢٥٦
- (ب) آلهة اليونان ..... ٢٥٦
- (ج) آلهة مصر ..... ٢٥٧
- (د) آلهة ايران ..... ٢٥٨
- (هـ) آلهة الصين ..... ٢٥٨
- (و) مشركو العرب ..... ٢٥٨
- (ز) آلهة بلدان أخرى ..... ٢٥٩
- (ح) الاعتقاد بالمثل الأفلاطونية ..... ٢٦٠
- ٣- التفويض لون من الشرك ..... ٢٦١
- ٤- هل أن الملائكة تدبر الأمور؟ ..... ٢٦٣
- ٥- «توحيد الربوبية» في الأحاديث الإسلامية ..... ٢٦٤
- (ج) توحيد المالكية (الحاكمية التكوينية) ..... ٢٦٥
- شرح المفردات: ..... ٢٦٦
- جمع الآيات وتفسيرها ..... ٢٦٧
- الله مالك الملك: ..... ٢٦٧
- توضيحات ..... ٢٧١
- ١- الآثار التربوية للإيمان بتوحيد المالكية والحاكمية ..... ٢٧١
- ٢- إستغلال مفهوم ( ملكية الله ) ..... ٢٧٢
- (د) توحيد التقنين (الحاكمية التشريعية) ..... ٢٧٥

٢٧٦	شرح المفردات:
٢٧٧	جمع الآيات وتفسيرها
٢٧٧	من لم يحكم بما أنزل الله:
٢٧٩	الحكم لله فقط:
٢٨١	عند الاختلاف ارجعوا إلى الله:
٢٨٢	توضيحات
٢٨٢	١- حاكمية الله في المنطق العقلي
٢٨٥	٢- الحكومة وديعة إلهية
٢٨٥	٣- شرعية الحكومات تستمد من الله فقط
٢٨٧	٤- الإيمان بتوحيد المالكية وتأثيراته التربوية
٢٨٩	هـ) توحيد الطاعة
٢٩٠	شرح المفردات:
٢٩١	جمع الآيات وتفسيرها
٢٩١	إلهنا نطيع أمرك وحدك:
٢٩٤	عبادة القادة والعلماء:
٢٩٦	توضيحات
٢٩٦	١- الله تعالى هو المطاع المطلق
٢٩٧	٢- توحيد الطاعة في الروايات الإسلامية